نام کتاب: الإمام الصادق علیه السلام

نویسنده: محمد حسین مظفر

وفات: ۱۳۸۱ ق

تعداد جلد واقعی: ۲

زبان: عربی

موضوع: امام صادق علیه السلام

ناشر: جامعه مدرسین

مکان نشر: قم

سال چاپ: ۱۴۲۱ ق

نوبت چاپ: دوم

ص: ۳

الجزء الأول

[مقدمات]

[مقدمة الناشر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه ربّ العالمین و الصلاة و السلام علی سیّدنا محمّد و آله الطاهرین.

لا یخفی علی أیّ أحد من المسلمین و من روّاد العلم و غیرهم منزلة و مکانة الامام أبی عبد اللّه جعفر بن محمّد الصادق علیه أفضل الصلاة و السلام بأنّه مشعل الهدایة و مصباح الدین الذی انتشر فی عصره الاسلام فی جمیع أرجاء العالم و تشعشعت أضواؤه فی أقصی أنحائه و تخرّجت من مدارسه الرّواة و المحدّثون و المتکلّمون من العامّة و الخاصّة، و لیس بإمکاننا التعرّف

على هذه الشخصيّة الاسلامية العظيمة حقّ المعرفة مع هذه الألسنة الكالّة و الأقلام العاجزة عن فهمها و معرفتها، فليس لنا إلّا المرور الخاطف على حياته عليه السلام.

و لذلک قامت المؤسّسة- و للّه الحمد- على طبع كتاب للعلّامة المحقّق الشيخ محمّد الحسين المظفّر و هو يدرس حياة الامام الصادق عليه السلام بصورة موجزة مع اشتماله على كثير من زوايا حياته سلام اللّه عليه من مدرسته العلمية و تعاليمه و مناظراته و خطبه و أقواله و رواته من العامّة و الخاصّة.

نسأل اللّه تعالى أن يوفّقنا لنشر الكتب الاسلاميّة و تقديمها لروّاد العلم و الحوزات العلميّة، إنّه وليّ التوفيق.

مؤسّسة النشر الاسلامى التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة

ص: ۴

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مالِکِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاکَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاکَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ و- إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِکَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً و- سَلامٌ عَلى إِلْياسِينَ.

ص: ۵

الإهداء

سيّدى أبا عبد اللّه:

أرفع بكلتا يدىّ هذه الصحائف الوجيزة، لأهديها إلى رفيع قدسک موقنا أنّى لست ممّن يقوى على الرقى لأمثال هذه المعارج العالية، أو تنفق بضاعته فى مثل هذه السوق الغالية، غير أنّى مستمسک بعروة هذه العترة الطاهرة، و متعلّق بأغصان هذه الشجرة المباركة، و أرغب جهدى فى أن أحسب فى عداد من أدركه الحظ بإسداء الخدمة إليهم. و هذا الذى بين يدى ما انتهى إليه عرفانى، و وصل إليه علمى، من الجمع و التأليف و التعليق و قيمة كلّ امرئ ما يحسنه، فإن كانت فيه حسنة فهى منک و إليک، و إن كانت فيه كبوة فتلک من قلمى الجموح، و من أولى منک بالإقالة من العثرات، و قلّما يسلم منها أحد مثلى، و ما أملى إلّا أن تمنّ بابتياع هذه البضاعة المزجاة من وليّک، و ثمنها القبول، و ما أغلاه من ثمن.

رقّک محمّد الحسين المظفّر

ص: ۶

الطليعة

لمّا كان الوقوف على حياة هذا الامام يتطلّب درسا لشؤون الدولتين الامويّة و العبّاسيّة اللتين عاصرهما أبو عبد اللّه عليه السلام، و موقف هاتين السلطتين من أهل البيت، و معرفة من هم أهل البيت، و معرفة ما كان فى عهده من المذاهب و النحل، و ما رأته الناس فى الإمامة، حقّ أن نذكر هذه الشؤون فى الطليعة، فإن بها تعرف ما كان من حياته السياسيّة و العلميّة و الاجتماعيّة، و السبب الذى من أجله بثّ العلوم و المعارف، و ندب إلى الأخلاق و المحاسن و حثّ على التكتّم فى نشر هذه الفضائل و كتمان نسبتها إلى أهل البيت، كما منع أولياءهم عن إظهار الولاء لهم و الاعلان فى التردّد عليهم، و هو ما نسمّيه ب «التقيّة».

فهذه الطليعة يكون القارئ على بصيرة من حياة هذا الامام قبل أن يستعرض تفاصيلها.

ص: ٧

أهل البيت

من هم أهل البيت؟

يأتينا الكتاب الكريم ناطقا مبينا بقوله جلّ شأنه «إنّما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهّركم تطهيرا» «١» إنّها لفضيلة لهم لا يدانيهم فيها أحد من الناس كافّة.

و لا كرامة أنفس من إذهاب الرجس عنهم و تطهيرهم من العيوب كافّة، ذلک التطهير الذى يريده اللطيف تعالى لهم بعنايته، و هو غير مقيّد برجس خاصّ و لا من شىء معيّن، فيدلّ على عموم التطهير من كلّ عيب و ذنب.

و يستفاد من هذه الآية الجليلة عصمة أهل البيت النبوى، لأنّ كلّ ذنب رجس، و ارتكاب الذنوب لا يجتمع مع إذهابها عنهم و طهارتهم منها، فهم إذن بحكم هذه الآية مطهّرون من الأرجاس و الذنوب، و هل العصمة شىء وراء هذا؟

نعم و إنما الشأن كلّه فى المعنىّ بهذه الفضيلة التى امتازوا بها على جميع الامّة. أهم الذين كانوا فى البيت حين نزلت هذه الآية الكريمة؟ أم كلّ من يمت إلى الرسول الأطهر بسبب أو نسب؟ فإن قيل بالثانى فالواقع شاهد على خلافه، لأنّا نجد فى نسائه من خالفته و تظاهرت عليه، و لا رجس أعظم من ذلک. فلا بدّ من أن يكون نساؤه غير معنيّات بها، و استثناء بعض النساء دون

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

ص: ٨

بعض تحكّم.

هذا فيمن يمت إليه بالسبب، و نجد البعض ممّن يمت إليه بالنسب يدانى الموبقة، و يقارب الجريمة، و لا يصحّ أن يريد القدير سبحانه شيئا بالإرادة التكوينيّة «۱» ثم لا يقع، فلمّا كان مستحيلا أن يريد تكوين شيء فلا يكون عرفا أن النساء و عامّة الهاشميّين غير مقصودين من الآية، لإتيانهنّ و إتيانهم ما ينافى التطهير، على أنه لم يقل أحد بعصمة نسائه و الهاشميّين عامّة.

و لو كان المقصود بها الإرادة التشريعيّة فلا وجه لارادة التطهير من أهل البيت خاصّة، لأنه تعالى يريده من الناس كافّة، فاختصاصه بهم على وجه الميزة و الفضيلة يدلّنا على تكوينه فيهم، ثمّ ان الإرادة التشريعيّة إنما تتعلّق بفعل الغير، و متعلّقها فى الآية فعل اللّه تعالى نفسه، و لو كانت الإرادة تشريعيّة لقال:

لتذهبوا و تطهروا أنفسكم.

فلا شكّ فى أن المعنىّ من الآية هو المعنى الأول، أعنى أن المقصود منها أناس مخصوصون، و هم الذين كانوا فى بيت سيّد الرسل صلّى اللّه عليه و آله و قد جلّلهم بكسائه و التحف معهم به، فنزلت هذه الآية عليهم و فيهم، و هم علىّ و فاطمة و ابناهما عليهم السلام، و على ذلک صحاح الأحاديث من طرق الفريقين «۲».

و لو لم يكن هناک نقل يدلّ بصراحته على اختصاص هذه الصفوة الكريمة

---

(۱) الإرادة التكوينيّة هى التى تتعلّق بفعل المريد نفسه و تقابلها الإرادة التشريعيّة التى تتعلّق بفعل الغير على أن يصدر من الغير و هى التى تكون فى التكاليف.

(۲) انظر مجمع البيان و ما رواه القوم فى تفسيرها: ۴/ ۳۵۶ و تفسير الشوكانى: ۴/ ۲۷۰ و رواه من عدّة طرق عن أمّ سلمة و عن عائشة و عن غيرهما، و ذكر ابن حجر فى الصواعق ص ۸۷: أن اكثر المفسّرين انها نزلت فى علىّ و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السّلام، الى غيرهم من أهل التفسير و الحديث و التاريخ.

و حاول الآلوسى فى تفسيره روح المعانى بعد أن ذكر الأحاديث الجمّة الواردة فى اختصاصها بأهل الكساء أن يعمّم الآية لهم و للنساء و للمؤمنين من بنى هاشم، و ما ذكرناه كاف فى ردّه.

بهذه الآية الشريفة لكان من آثارهم اكبر برهان على هذا الاختصاص، فانّ أفعالهم و أقوالهم ترغمنا على الاعتراف بتلک النزاهة لهم.

و ما خفيت هذه الحقيقة الناصعة على أهل البصائر من بدء نزول هذه الآية المحكمة حتى اليوم، فكان أهل البيت عندهم أهل الكساء، خاصّة، الذين حبوا بمكارم لا يأتى عليها الحصر، و كان منها الطهارة من العيوب، و ذهاب الأرجاس و الذنوب.

نعم ربّما استغلّ بعض الهاشميّين و منهم العبّاسيّون ظاهر عموم كلمة أهل البيت لتحقيق مآربهم و الوصول إلى العروش، فكان الهاشميّون عامّة يدلون على الناس بهذه الآية.

كما كان اسم التشيّع أيضا قد يستغل فيراد به ولاء علىّ و أهل البيت بالمعنى العام، لا خصوص أصحاب الكساء و الأئمة من أولاد الحسين عليهم السلام إلّا عند الذين لا تجرفهم سيول الرعاع، و لا يعدل بهم عن الحقّ الصخب أو الضغط، و ما عرفت الناس التشيّع بولاء هؤلاء الأئمة خاصّة إلّا بعد أن خيّم السكون على الناس بعد الثلث الأوّل من الدولة العبّاسيّة، حين قرّت شقشقة العلويّين و ثوراتهم، فتمخّض القول وقتذاك بأهل البيت لهؤلاء السادة الأئمة.

و شاهدنا على ذلک أن بنى العبّاس ما دبّوا دبيب النمل على الصفا لارتقاء عروش الملک و تحطيم دعائم الدولة المروانيّة إلّا بذلک الاسم، بزعم أنهم أهل البيت الأقربون إلى صاحب الرسالة، ليعطفوا بذلک عليهم قلوب الشيعة و يتّخذوا منهم فعلة لبناء الكيان لسلطانهم، و هدم بناء الدولة الامويّة التى قاومت أهل البيت و شيعتهم طيلة أيامها، و صبغت وجه الأرض من دمائهم المسفوحة.

ص: ١٠

و ما كان ليتمّ لبنى العبّاس ما أملوه لو لا ادعاؤهم ذلک، و لو لم يكن الذين نهضوا بهم و اتخذوا منهم جسرا عبروا عليه إلى مآربهم شيعة لأهل البيت، من دون تفريق بين العبّاسى و الطالبى، و لا بين العلوى و الجعفرى و العقيلى، و لا بين الحسنى و الحسينى.

و هكذا كانت الدعوة و النهضة من كلّ هاشمى كنهضة عبد اللّه بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر بالكوفة ثمّ بفارس و فيهما أولياء لأهل البيت، و قد قضى عليه أبو مسلم بعد تفرّق الناس عنه و التجائه إليه، و ما كان من زيد و ابنه يحيى من النهضة، و لا من الأخوين محمّد و إبراهيم من الدعوة إلّا لأنهم من أهل البيت و أن غاياتهم من الدعوة أخذ التراث من أعداء أهل البيت.

و لكن قد وضح للناس بعد ذلک أنّ بنى العبّاس ليسوا من أهل البيت، حين سلّوا سيف البغى على أهل البيت قربى الرسول صلّى اللّه عليه و آله و عرف الناس أنّ الدعوة من بنى العبّاس لقلب دولة أميّة باسم الثأر لقتلى الطف و صليب الكناسة و الجوز جان و غيرهم كانت سبيلا للوصول إلى أمنيّتهم المقصودة، لأنه بعد أن بنوا من جماجم اولئک الاغرار من محبّى أهل البيت قواعد سلطانهم ظهرت كوامن صدورهم، و ما قصدوه من الوليجة إلى غاياتهم، حتى أن محمّدا و إبراهيم اختفيا عند قبض السفّاح عن أعنة الحكم، و ما اختفيا إلّا لما يعلمانه من سوء نواياه مع الادنين من الرسول، و الشواهد على ذلک من ضغطهم على أهل البيت و شيعتهم اكثر من أن تحصر، و فى ثنايا الكتاب سيمرّ عليک من هذا القبيل ما فيه مقنع.

***

ص: ١١

بنو أميّة

من هم بنو أميّة؟

يفصح القرآن الكريم معلنا بقوله: «و ما جعلنا الرؤيا التى أريناک إلّا فتنة للناس و الشجرة الملعونة فى القرآن» «۱» و يحدّثنا التفسير فى سبب نزول هذه الآية الكريمة أنّ النبى رأى فى المنام أنّ قردة تنزو على منبره فأعلمه جبرئيل أنهم بنو أميّة يتغلّبون على الأمر فيتنازعون على منبره و أنهم هم الشجرة الملعونة، ثم انّ النبى صلّى اللّه عليه و آله لم يستجمع ضاحكا بعد ذلک حتى مات «۲».

و جاء فى ذمّ بنى أميّة و الطعن فيهم كثير من التنزيل، انظر الحاكم فى حديث على فى قوله «و أحلّوا قومهم دار البوار» «۳» قال: هما الأفجران من قريش بنو أميّة و بنو المغيرة، و تفسير ابن جرير فى قوله: «و جاهدوا فى اللّه حقّ جهاده» «۴» فإنه قال: إن الذين أمر تعالى بجهادهم مخزوم و أميّة «۵»، إلى غير ذلک.

ثمّ انّ الرسول الصادق الأمين صلّى اللّه عليه و آله يتبع القرآن المجيد بقوله:

اللهمّ العن بنى أميّة قاطبة، و بأمثال ذلک، لا سيّما فيما يخصّ أبا سفيان و ابنيه

---

(۱) بنى إسرائيل: ۶۰.

(۲) مجمع البيان: ۳/ ۴۲۴، و شرح النهج: ۳/ ۴۸۸ و ۲/ ۴۶۶ و ۴۶۷، و قال الشوكانى فى تفسيره أنهم آل أبى العاص خاصّة و عليه روايات.

(۳) إبراهيم: ۲۸.

(۴) الحج: ۷۸.

(۵) تفسير الطبرى: ۱۷/ ۱۴۲.

يزيد و معاوية، و لا تنس ما جاء عنه فى آل أبى العاص و لا سيّما فى الحكم و ابنه مروان. «۱»

أ ترى لما ذا يمنح الكتاب المبين أهل البيت بذلک الثناء الجزيل و يذكر بنى أميّة بذلک السوء و الذمّ، أ يكيل العادل تعالى لأولئک المدح جزافا، و لهؤلاء الذمّ اعتداء، تعالى اللّه عن ذلک علوّا كبيرا.

نعم إنّ الطاعة هى التى تقرّب الخلق من الخالق، و إنّ المعصية هى التى تبعد العبيد عن البارىء، و إلّا فانّ عباده لديه بالعطف و اللطف و بالرحمة للمطيع و بالنقمة على العاصى شرع سواء، فإنّه يدخل الجنّة من أطاعه و إن كان عبدا حبشيّا، و النار من عصاه و إن كان سيّدا قرشيّا.

فما كان دنوّ أهل البيت من حظيرة القدس حتى منحهم تعالى بذلک الوسام الأرفع الذى لم يحظ به بشر سواهم إلّا لتقواهم و امتثالهم لأوامره، و ما كان بعد بنى أميّة عن ساحة الرحمة حتى صاروا الشجرة الملعونة فى القرآن، و حتى عمّتهم لعنة الرسول صلّى اللّه عليه و آله مرّة، و خصّت الكثير منهم اخرى، مشفوعة بالدعاء عليهم، إلّا لعصيانهم لجبّار السموات و الأرضين، و استمرارهم على العصيان.

و لو لم يقرئنا التاريخ قدر تلک الطاعة، التى كان عليها أهل البيت و مبلغ ذلک العصيان الذى استقام عليه الامويّون، لكفى ذلک التقديس من الجليل فى كتابه لأولئک، و هذا الحظ من هؤلاء، كاشفا عمّا عليه الآل من الطاعة

---

(١) لا يحتاج الخبير فى هذا إلى المصادر لكثرتها، و إن أحببت الوقوف على شىء من ذلک فانظر شرح ابن أبى الحديد فى التعليقة الماضية من الجزء و الصحيفة و: ١/ ٣٦١ و: ٢/ ١٠٦ و ٤١٠ و ٤/ ١٤٨ و الاستيعاب لابن عبد البر فى مروان، و الحاكم عن أبى هريرة فى آل أبى العاص و مروان و أبيه و بنيه الى غير ذلک.

و الانقياد، و أميّة من التمرّد و الابتعاد.

و هذه النتيجة تلمسها من هذه النصوص الفرقانيّة و الأحاديث النبويّة من دون شحذ قريحة و غور فى التفكير، نعم لو سبرت السيرة الاموية قبل الاسلام و بعده الى انقراض دولتهم، لعرفت أنّ اللّه تعالى و رسوله صلّى اللّه عليه و آله إنّما كشفا بالكتاب و السنّة عن تلک السيرة و السريرة الفائتتين، و أنبأ عن الآتيتين، و ما كان ليخفى على الناس حالهما، و لكنّ كان هذا التصريح قطعا لاعتذار أوليائهم و دحضا لمكابرات مشايعيهم، و مع هذه الصراحة من الكتاب و الحديث ما زال للقوم حتى اليوم أولياء و أشياع، و مدافعون و أتباع.

و لأجل أن تطمئنّ القلوب بهذه الحقيقة، نستطرد نبذا من أعمال أميّة و بنيه أخبرنا عنها التاريخ الموثوق به.

مات عبد مناف و ترک عدّة بنين، كان منهم هاشم و المطّلب و نوفل و عبد شمس، و كان هاشم أرجحهم عقلا و أسماهم فضيلة فاصطلحت قريش على أن تولّيه الرفادة و السقاية «١» و كانتا لأبيه عبد مناف، فكان هاشم حيث رأت قريش، و زاد فى شرف أبيه أن سنّ الرحلتين رحلة الشتاء إلى اليمن، و رحلة الصيف إلى الشام، و قد ذكر هاتين الرحلتين الكتاب الكريم «٢»، و ما كانت غاية هاشم من الرحلتين إلّا أن يكثر المال فى قريش فيقووا به على إطعام الحاجّ، و هذه فضيلة سامية أرادها هاشم لقومه، و هذا شأن العظام الذين ينحون بقومهم عظائم الامور، و مراقى الشرف الرفيعة.

ثمّ تقدم هو فى الاطعام ليكون قدوة لقومه، فأطعم و أجزل حتى غنّت

---

(۱) الرفادة بالكسر: إطعام الحاج، و السقاية بالكسر أيضا: سقيهم.

(۲) قريش: ۲.

الركبان بجوده، و حتّى قال شاعره:

عمرو العلى هشم الثريد لقومه	و رجال مكة مسنّتون عجاف

فى أبيات مشهورة، فصار يلقب بهاشم لذلك، و غلب على اسمه عمرو «۱» فكان الجود بعض فضائل هاشم التى سوّدته على قريش سادات العرب.

و انشطرت اخوته فصار المطّلب الى جنب هاشم، و صار نوفل و عبد شمس فى جانب، و هما ينافسانه و يحاولان أن يجارياه فى مفاخره، فيقصر بهما العمل، فكان هاشم لكرم فعاله و جميل خصاله سيّد البطحاء غير مدافع.

و لمّا مات عبد شمس و ظهر أميّة حاول أن يلحق بهاشم فى شأنه بما عجز عنه أبوه من قبل، و أين أميّة من هاشم فى سنّه و شأنه، و ما ساد هاشم إلّا لأنّه مجمع الفضائل، و لم يكن لأميّة ما يسود به الفتى خلا المال و الولد و لا يكفيان للسيادة اذا لم تكن الأعمال تلحقه بالمعارج السامية.

و طمع أميّة يوما أن ينافر هاشما، و ذلک إقدام لم يرتقب من مثله لمثل هاشم؛ و لا نعرف سببا فى قناعة هاشم بهذه المنافرة- و هو سيد الأبطح و شيخ قريش- سوى علمه بأنه سوف ينفر أميّة، و بذلک كبح لجماع أميّة و إذلال لنفسه المتطلّعة لما ليس له كما كان ذلک، فإنّه قد نفره هاشم فأخرجه من مكّة عشر سنين، و لعلّ أميّة كان يعتقد أن هاشما سيّد الأبطح لا محالة ينفره، إلّا انّه قنع من الشرف أن يقال ان أميّة نافر سيّد الحرم و جرى فى مضماره.

و لمّا نبغ عبد المطّلب بعد أبيه هاشم و عمّه المطّلب، علا على شرف أهله و مفاخر آبائه، فانبطّ ماء زمزم و لم يتوفّق لها قرشى من قبل، فحسدته قريش

---

(۱) شرح النهج: ۳/ ۴۵۷.

و راموا أن يشاركوه فى هذه الكرامة و السقاية منها، فأبى عليهم، و طلبوا محاكمته عند كاهنة هذيل فى الشام، و عند ما رأوا منه الكرامات فى طريقهم الى الشام عدلوا عن محاكمته، و تركوا له زمزما و سقاية الحاج.

و هو الذى أنذر أبرهة- قائد الأحباش و الأمير على اليمن من قبل النجاشى ملک الحبشة- حين جاء من اليمن بجيش كثيف قاصدا هدم البيت ليتحوّل العرب عن الحجّ إليه، و لم يخرج عبد المطّلب من البيت كما خرجت قريش هاربة من سطوة الأحباش، فكان آخر أمر الأحباش الدمار، كما أفصح عن ذلک الكتاب المجيد «١» فجاء الحال وفقا لما أنذرهم به سيّد الأبطح.

فكانت قريش تحسده لهذه المفاخر، و صاحب الفضيلة محسود، و ما اكتفى أميّة بما لقيه من منافرة هاشم حتّى حاول منافسة عبد المطّلب، فحمل أميّة عبد المطّلب على المسابقة، فسبقه عبد المطّلب و استعبده عشر سنين.

و كان حرب بن أميّة أيضا يفاخر عبد المطّلب بوفره و بأهله، تجاهلا منه بأن الشرف إنّما هو بالفضيلة، و الأعمال الجليلة، حتى طلب منافرة عبد المطّلب، و تلک جرأة كبرى يدفعه إليها الحسد و الغرور، و إن علم يقينا أنه لا يشقّ غبار شيخ قريش، غير انّا نحسبه انّه كان يعتقد أن المنافرة وحدها تجعل له المكانة العالية و إن نفره عبد المطّلب، و لقد تعجّب النافر من طمع حرب فى منافرة شيخ البطحاء، و الأعمال وجدها كافلة بخسران حرب، فقال النافر لحرب:

أبوک معاهر و أبوه عفّ و ذاد الفيل عن بلد حرام

و هذا شاهد على ما كان عليه عبد المطّلب و أهله، و حرب و آباؤه من خلّتين شهيرتين دعت وجوه الناس على الحكم لهاشم و ولده فى كلّ منافرة و منافسة.

---

(١) سورة الفيل.

و لا تنس حلف الفضول الذى هو خير حلف عقدته قريش بل العرب كلّها، لردّ عادية الظلم، و الانتصار للمظلوم، قد دخل فيه الرسول- عليه و على آله السلام- و ذلک قبل الاسلام، و قال فيه بعد ذلک: «لو دعيت إلى مثله لأجبت». ذلک حلف هدّد بالهتاف به الحسين- عليه السلام- معاوية بن أبى سفيان، و وقف للطغاة الغاصبين بالمرصاد. فكم ردّ من مال نهب، و عرض غصب، و كان السبب فيه الزبير بن عبد المطّلب، و لم يدخل فيه النوفليّون و العبشميّون، و يحقّ للسائل أن يسأل عن سبب امتناعهم عن الدخول فيه، أ لأنّ سببه الهاشميّون؟ أم لأنه فضيلة سامية؟ أم لما ذا؟

هذه حال أميّة لو استطردت بعضها قبل بزوغ شمس الاسلام. و أمّا لو نظرت الى مواقفهم بعد بزوغ تلک الشمس النيّرة، لأيقنت كيف كانت هذه الشجرة جديرة بنزول ذلک الكتاب الكريم، لا لأنّ الايمان لم يدخل أعماق قلوبهم فحسب، لأنهم لم يتركوا

ذريعة لستر ذلک النور الساطع إلّا توسّلوا بها، و لا معولا لهدم بنائه الشامخ إلّا حملوه، سوى ما كان منهم من أعمال يأباها العدل و المروءة و يمقتها الشرف و الفضيلة.

و هل ينسى أحد ما قام به أبو سفيان من إيذاء الرسول قبل الهجرة، و ما ألّبه عليه بعدها، هذه أحد و الأحزاب و الحديبيّة و ما سواها من أعمال خلّدها التاريخ تنبئک عن حاله، و من صاحب العير و صاحب النفير غيره و غير بنى أبيه العبشميّين، و كيف ينسى ابن الاسلام تلک الوقائع و التاريخ يذكره بها كلّ حين، و ما دخل أبو سفيان و ابنه معاوية فى الاسلام إلّا حين أخذ الاسلام منهما بالخناق، و لم يجدا مفرّا منه، و قد ألفهما النبىّ الحكيم بعد الفتح بالعطاء الوفر من غنائم حنين، فأعان الطمع الخوف على ذلک التظاهر و القلوب منطوية على و ثنيّتها القديمة و على الحسد و الحقد و انتهاز الفرصة للوثبة و أخذ تراث الأبناء

و الأخوال و الأجداد، الذين فرت أوداجهم سيوف الاسلام الصارمة.

و لم يطلق أبو سفيان أن يكتم تلک الضغائن النفسية، فكانت تطفح على فلتات لسانه، و كان اكثرها أيام عثمان «١» لأمانه من المؤاخذة على كلامه، و من أمن العقوبة أساء الأدب، و كيف لا يأمن و الأمر بأيدى صبيانهم على حدّ تعبيره حين ركل قبر حمزة بن عبد المطّلب برجله.

و أما ابنه معاوية «٢» فانه عند ما رأى الاسلام قد ضرب بجرانه الأرض، و وشجت أصوله، و بسقت فروعه، تذرع به إلى اقتلاع جذوره و قد ملک معاوية ناصية البلاد و الاسلام غضّ جديد، فخالف كلّ شريعة من شرائعه، و ناصب كلّ حكم من أحكامه، سوى أنّه لم يخلع عند الظاهر ربقة الاسلام، و كيف يخلعها و هى الوسيلة لنيله ذلک الملک الفسيح الأرجاء، الملک الذى ما كان يحلم به صخر بن حرب بل و لا أميّة من قبل، و ما كان يضرّه من تلک الظاهرة إذا كانت الذريعة لاقتناص مآربه الواسعة، و لتحطيم قواعد الاسلام الرفيعة.

و كفى من حربه لسيّد الرسل حربه لأمير المؤمنين عليه السلام و قد قال فيه الرسول صلّى اللّه عليه و آله: «سلمک سلمى و حربک حربى» «٣» و قال فيه:

---

(١) الأغانى: ۶/ ٩٠- ٩۶.

(٢) جاء فى معاوية عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله الشىء الكثير، و إن شئت أن تلمس بعضه فدونک الأحاديث القائلة «يا عمّار تقتلک الفئة الباغية بصفّين» و عدّه السيوطى فى الأخبار المتواترة، و دونک الأحاديث القائلة «إن عليّا يحارب القاسطين و هم معاوية و جنده» و دونک شرح النّهج:

۱/ ۳۴۷ و: ۳/ ۴۴۳ و: ۱/ ۲۵۴ و: ۲/ ۳۶۳ و: ۲/ ۱۰۲ و: ۱/ ۳۷۲، ۳۶۱، ۳۵۵، ۳۷۳، ۱۱۳، و انظر فيها رأى الناس فى معاوية و: ۱/ ۴۶۳ و اقرأ فيها ما يقوله الناس عن معاوية و بنى أميّة و: ۳/ ۱۵ و ۴/ ۱۹۲ و دونک الاستيعاب فى معاوية.

(۳) مسند أحمد بن حنبل: ۲/ ۴۴۲ و اسد الغابة: ۳/ ۱۱.

ص: ۱۸

«تحارب من بعدى الناكثين و القاسطين و المارقين» «۱» و لو كان القصد من حربه لأبى الحسن- عليه السلام- الطلب بقتلة عثمان لما أغضى عنهم حين انتهى الأمر إليه، و لا أدرى كيف كان معاوية وليّ عثمان و المرتضى هو أمير المؤمنين و وليّهم.

لعمر الحق ما كان شأن معاوية خافيا لندلّل و نأتى بالشواهد عليه، و لو لم يكن حربا للاسلام و لرسوله لما سنّ الشفرة للقضاء على آل الرسول، و القرآن يهتف باحترامهم و مودّتهم، و الرسول يدعو إلى ولائهم و التمسک بهم، و ما ذنبهم لدى معاوية إلّا أنّهم عترة الرسول و رهطه، و رعاة الدين و دعاته، و لو صافحهم أو صفح عنهم لم ينل مأربه من الزعامة، و مقصده من حرب الرسول و شريعته. «۲»

و لم يهلک معاوية مستوفيا لأمانيه من محاربة الرسول و الرسالة حتى أرجأ ذلک إلى دعيّه يزيد، غير أن يزيد لم يكن لديه دهاء أبيه معاوية فيدسّ السمّ بالدسم لكيد الاسلام، فمن ثمّ برزت نواياه على صفحات أعماله واضحة من دون غشاء و لا غطاء، فما أصبح إلّا و أوقع بالحسين سبط الرسول و ريحانته و سيّد شباب أهل الجنّة، و برهطه صفوة الناس فى الصلاح و الفضيلة، و ما أمسى إلّا و تحكّم ما يشاء فى دار الهجرة و بقايا الصحابة، من دون أن يحول عن العبث بها دين أو مروّة أو عفاف، و ما عتم إلّا و هو محاصر للبيت ترميه حجارته و تفتک بأهليه و رمايته.

و أىّ رهط أذب عن الاسلام و أحمى لحوزته من الحسين و أهله؟ و أىّ بلد

---

(۱) معانى الأخبار: ۲۰۴ و سنن ابن ماجه: ۸ ح ۳۹۵۰.

(۲) شرح النّهج: ۱/ ۴۶۳، و مروج الذهب: ۱/ ۳۴۱ فيما يرويانه عن المغيرة بن شعبة فى تكفيره لمعاوية و هو المغيرة فكيف إذن معاوية، ويل لمن كفره النمرود.

ص: ۱۹

أظهر فى اتباع الاسلام من الحرمين يوم ذاک؟ و هل أبقى ابن ميسون شيئا من مقدوره فى مبارزة الاسلام لم يصنعه، و محاربة النبى صلّى اللّه عليه و آله و عترته و صحابته لم يفعله؟! و لو أردنا استقصاء أعمال أميّة التى حاربت بها الشريعة و صاحبها الأمين لكثر عليک العدّ، و خرجنا عن القصد، أجل لا ضير لو أوردنا نتفا أشار إليها المقريزى صاحب الخطط فى رسالته «النزاع و التخاصم» و الجاحظ فى رسالته التى ضربها مثلا للمفاخرة بين بنى أميّة و بنى هاشم، فكان مما أورداه:

إنّ بنى أميّة كانوا يختمون أعناق الصحابة، و ينقشون أكفّ المسلمين علامة استعبادهم، و جعلوا الرسول دون الخليفة، و وطئوا المسلمات فى دار الاسلام بالسباء، و أخّروا الصلاة تشاغلا بالخطبة، و كانوا يأكلون و يشربون على منبر النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و يبيعون الرجل فى الدين يلزمه «١».

و هذا بعض ما ذكراه من المنكر منهم و مخالفتهم للشريعة، و هل يا ترى خفى عليهم الدين و حدوده، و أنظمته و قيوده، و كفى من تلك الحرب الشعواء التى أقاموها لمنازلة الشريعة الأحمديّة زيادة على ما سبق أنهم اعتبروا الرسالة ملكا تلعب به هاشم، و جعلوا الكتاب غرضا للنبال، و جاهدوا أن يحوّلوا الحجّ إلى بيت المقدس ثمّ إلى المسجد الذى بنوه بدمشق، و رميهم من على المجانق البيت الحرام.

و لا تسل عمّا لقيته العترة الطاهرة الأحمديّة منهم، فمن صليب الكناسة و صليب الجوزجان زيد و ابنه يحيى إلى قتيل بالسمّ كالحسن و السجّاد و الباقر عليهم السلام و أبى هاشم بن الحنفيّة و إبراهيم بن محمّد أخ السفّاح،

---

(١) شرح النهج: ٣/ ٤٦٩، ٤٧٠.

و نظائرهم. هذا سوى المشرّدين فى الآفاق، و المغيّبين فى قعر السجون.

و كان خيرة القوم فى سيرته عمر بن عبد العزيز، فانّه عرف ما عليه الناس من بغضهم لأهله، فحاول أنّ يغيّر الرأى فيهم، و القول عنهم. «١»

و لا غرابة لو رضى الناس بحكومة هؤلاء القوم، لأن الناس إلى أمثالهم أميل و بأشباههم أرغب.

إنّ الدين يتطلّب من الناس التقوى سرّا و إعلانا، و السيرة العادلة فى القريب و البعيد، كما يتطلّب الانتهاء عن الفحشاء ما ظهر منها و ما بطن، و الكفّ عن الاعتداء فى الرضى و الغضب، و ما أبعد الناس عمّا يتطلّبه منهم الدين، و أين من تقوده نفسه- و النفس أمّارة بالسوء- إلى اتباع الشريعة و إن ضيّقت عليه سبل الشهوات و حرّمت عليه الظلم و الاعتداء.

و لو أراد الناس الهدى لما خفى عليهم الرعاة أرباب العدل و الحقّ و الايمان و الصدق، و لما ارتضى منهم أولئک الرعاة غير هذه الخلال الكريمة، و إنّ الناس لتبتعد عن هذه الفضائل العلويّة ابتعاد الوحش من الملائک، و الحصباء من نجوم السماء.

و لو سبرت أحوال الناس لأيقنت بصدق تلک الكلمة النبويّة الخالدة:

«كيفما تكونون يولّى عليكم» «٢»، و هل يرتضى ذو العلم أن يحكمه الجاهل، و العادل أن يقوده الفاسق.

(۱) و لقد استوفى القاضى أبو حنيفة النعمان المصرى فى كتابه (المناقب و المثالب) ما للهاشميّين من المناقب و للامويّين من المثالب، و لو قرأت هذا الكتاب لعرفت ما كان عليه بنو أميّة من شنيع الأعمال و لو أردنا الاستقصاء لذكرنا أضعاف ما أوردناه و بما ذكرناه يحصل المطلوب، و الكتاب المذكور ما زال مخطوطا لم يطبع و رأيت منه نسخة فى بعض مكتبات النجف.

(۲) مسند أحمد بن حنبل: ۴/ ۴۳۷.

و لو لم يجد رعاة الجهل و الجور و الفجور أعضادا من أمثالهم و سكوتا عن أعمالهم، لم تطمع نفوسهم بالانقياد إلى الهوى، و الاسترسال مع الشهوات، و لم تطمح إلى الغضّ من كرامة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و منابذة رسالته و محاربة عترته.

إنّ درس نفسيّات اولئک الأقوام و سبر أعمالهم تجسّم لک الغدر و الخيانة و التحزّب للضلال على الهدى، و للباطل على الحقّ، حتى لتكاد أن تعجب كيف لم يندرس الحق، و تنطمس أعلام الهداية إلى اليوم، ما دام أنصار الحقّ فى كلّ عصر و مصر قليلين جدّا «و قليل من عبادى الشكور». «۱»

و أين تغيب عن هذه الحقيقة، و نظرة واحدة فى عصرنا الحاضر تريک كيف تتمثل المنافسة بين الباطل و الحقّ، و تغلّب الأول بأنصاره على الثانى و أعوانه، و ليس الغريب ذلک إنّما الغريب أن يتّفق انتصار أرباب الحقّ فى بعض الأعصار و ينخذل الباطل، و لو انتصر أبو الحسن و الحسن على معاوية، و الحسين على يزيد لكان بدعا فى الزمن دون العكس فى الحال، و ما كان انتصار الرسول صلّى اللّه عليه و آله بعد تلک الحروب الدامية إلّا إقامة للحجّة، «ليحيى من حىّ عن بيّنة، و يهلک من هلک عن بيّنة» «۲» و لو غلب الكفر على الاسلام لم يتمّ نوره، و لا قامت حجّته.

إنّ الرسول الأمين جاء للناس بكلّ فضيلة و سعادة و خلق كريم و قد وقفوا دون أداء رسالته، و تنفيذ دعوته، و ما رسالته إلّا لخيرهم، و ما دعوته إلّا لسعادتهم، و لأىّ شىء أبت نفوسهم عن الاستسلام لتلک الفضائل غير مخالفتهم لها فى السيرة و السريرة دأب البشر فى كلّ عصر، و هل خضع الناس لقبول تلک

(۱) سبأ: ۱۳.

(۲) الأنفال: ۴۲.

السعادة إلّا بعد أن علا رءوسهم بالسيف، و ضرب خراطيمهم بالسوط، و ما أسرع ما انقلبوا على الاعقاب بعد انتقاله إلى حظيرة القدس ناكصين عن سنن الطريق، حين وجدوا مناصا للعدول «و ما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل أ فإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم و من ينقلب على عقبيه فلن يضرّ اللّه شيئا» «۱».

بيد أن الأمويّة مخّضت عن أفذاذ ثبت الايمان فى قلوبهم، و نهضوا مع الحقّ حربا للباطل، و لا عجب فإنه تعالى: «يخرج الحىّ من الميت» «۲» و لا شكّ أن اللعن لا يعمّهم، و الكتاب الكريم يقول: «لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم» «۳» «و لا تزر وازرة وزر اخرى» «۴» «من عمل صالحا فلنفسه و من أساء فعليها» «۵» «ما على المحسنين من سبيل» «۶».

***

(۱) آل عمران: ۱۴۴.

(۲) الأنعام: ۹۵.

(۳) المائدة: ۱۰۵.

(۴) الأنعام: ۱۶۴.

(۵) فصّلت: ۴۶.

(۶) التوبة: ۹۱.

بنو العبّاس

ساد ظلم الأمويّين الناس عامّة، و ما اختصّ بالأبرار، و لا بعترة المختار صلّى اللّه عليه و آله فمقتهم آخر الأمر أهل السوء كما أبغضهم أهل الصلاح، فقام الباكيان باك يبكى على دينه و باك يبكى على دنياه، و صار الناس تتطلّب المهرب من جورهم، و تريد الخلاص من حكمهم، كانت أميّة تهدّد بلاد الاسلام كافّة بأهل الشام، لأن الشام جندهم الطيّع الذى لا يحيد عن رأيهم، و لا يتخلّف عن أمرهم، و بأهل الشام و اجتماعهم ملك معاوية مصر و العراق و الحجاز، مع ما فى الحجاز و العراق من رجال الرأى و الشجاعة الذين كان افتراقهم مطمعا للشام باجتماعهم، و ما ساق ابن زياد الكوفة على ابن الرسول صلّى اللّه عليه و آله بغير الوعيد بأجناد دمشق و الوعد بالمال، و ما تغلّب عبد الملك على العراقين و الحرمين و استلبها من آل الزبير إلّا بتلك الأجناد، كانت الشام لا تعرف غير أميّة للملك بل للخلافة، بل لكلّ دعوة و طاعة و ما زالت أميّة مهيمنة على البلاد الوسيعة.

حتى إذا اختلف بنو أميّة بينهم و صار بعضهم يقتل بعضا اختلف أهل الشام باختلافهم، و افترقت كلمتهم لافتراق القادة الذين ضلّلوهم و أضلّوا بهم.

و لمّا اختلفت كلمة الأمويّين اشرأبّت الأعناق لسلطانهم، و طمعت

ص: ۲۴

النفوس فى بلادهم، و لكن من الذى يجهر بتلك الأمانى و الرعب من الشام آخذ بالقلوب، و كيف ينسى الناس تلك القسوة و السطوة و جندهم أهل الشام و لم يطل العهد على حادثة الطف التى أظهر فيها الأمويّون فنون الارهاب و ضروب اللؤم و الانتقام، و لا على واقعة الحرّة التى أبانوا فيها غرائب الخسّة و الدعارة و الهتك للحرمات و المحارم و السفك للدماء البريئة، و لا على حصار البيت من يزيد مرّة، و من عبد الملك أخرى حتى رمته المجانيق و أضرموا فيه النار فهدموه، و لا على قتل زيد و صلبه و إحراقه، و قتل يحيى و صلبه، و الحوادث المثيرة التى أنزلوها بالناس، من دون أن يجدوا حرمة لحريم و لا رادعا عن محرم، فكأن النفوس و النفائس و الأعراض و العروض لم تكن إلّا طعمة لهم، و منفذا لشهواتهم، فكيف و الحال هذه يجهر ابن حرّة بعداء بنى أميّة، أو يتظاهر بالكيد لدولتهم.

نعم لم تأمل الناس من أحد أن ينتزع منهم التيجان، و يسلبهم السلطان غير بنى هاشم، لأنهم أرباب ذلك العرش، سواء كانت الخلافة بالنصّ أو القربى أو الفضيلة فصارت الناس تستنهضهم سرّا، و تحثهم على الوثبة همسا.

غير أن فى الهاشميّين رجالا كثيرة تصلح للرئاسة، و تقوى على التدبير و السياسة، أ فيثب بهم ربّ الخلافة و ربيب الامامة أبو عبد اللّه جعفر بن محمّد الصادق عليهما السلام، أم عبد اللّه بن الحسن فاضل بنى الحسن و شيخهم أم ابنه محمّد من جمع من المكارم كلّ خلّة، أم أخوه ابراهيم أبى الضيم، أم ابراهيم بن محمّد العبّاسى، أم أخواه السفّاح و المنصور، أرباب الهمم و الشمم، أم عبد اللّه بن معاوية الجعفرى الذى أهّلته المفاخر و المكارم لذلك المقام، أم سواهم و هم عدّة كاملة، لو رشّح نفسه كلّ فرد منهم لتلك الزعامة لزانها بجميل خصاله.

ص: ۲۵

بيد أن الصادق عليه السلام لو تقدم لها لم يسبقه إليها أحد، لفضله و كثرة شيعته، و لكنه كان يدافع من يستحثّه، و لا يجيب من يستنهضه.

و لمّا لم يجدوا عنده أملا للنهوض عدلوا عنه إلى غيره، فتارة يبايعون محمّدا و فى طليعتهم أبوه و أخوه و ينو الحسن و بنو العبّاس، و أخرى يدعو أبو مسلم فى خراسان للعبّاسيّين و أبو سلمة الخلّال بالكوفة للرضا من آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله و طورا يثب ابن جعفر فى كوفان فلا يتمّ له أمر، و تارة يظهر فى فارس فلا يستقيم له شأن، فيهرب إلى أبى مسلم فى خراسان، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار، لأنّ حتفه كان على يديه، و لم تمض برهة طويلة على تلك الأعاصير الهائجة، و الأجواء المضطربة، حتى استقرّ الأمر فى بنى العبّاس.

تلك الأقدار هى التى طوحت بالأمر حتى جعلته فى أحضان السفّاح و المنصور، و إلّا فمن الذى كان يحتسب أن الأخوين اللذين كانا يتنقّلان فى الأحياء يرويان للناس فضائل أبى الحسن ذريعة للاستعطاف و الاستجداء و اللذين بايعا ابن الحسن يوم

اجتماعهم بالأبواء من دون تلكّؤ و أمل بالملک و اللذين كانا تحت راية ابن جعفر و فی جنده يوم ظهر فی فارس ينيلهما من وفره، هما اللذين يتواليان على دسّت الحكم، و يكونان السالبين لعروش أميّة، و من الذی كان يخال أن ابن جعفر فارس الوثبة يكون قتيل داعيتهما أبی مسلم، و ما هما إلّا بعض جنده، و من الذی كان يظنّ أن ابن الحسن الذی أمّل نفسه و أمّلته الناس بالخلافة و بايعته على الموت يصبح و أخوه إبراهيم صريعين بسيف المنصور.

شاءت الأقدار- و من يغلب القدر- أن يثب على كرسیّ الحكم بنو العبّاس، و تصبح الدولة الامويّة أثرا بعد عين، و خبرا بعد حسّ، فلا أسف على من فات، و لا فرح بالآت، تذهب أمة فاجرة و تأتی دولة جائرة.

ص: ۲۶

ارتقى السفّاح منصّة الحكم فضحكت له الدنيا بعد تقطيب و أقبلت عليه بعد إدبار، و لكن هل يسلم المرء- و إن أقبلت عليه الدنيا بأسرها- من نوازل الهم؟ أصبح ابن عبّاس بين همّين همّ تطهير البلاد من الأمويّين لتخلص له الأمّة، و همّ المنافسة على العرش من بنی علی، العرش الذی لم ترسخ أسسه بعد، و لم تثبت قوائمه، و ما أسرع ما يميد إذا عصفت أعاصير الوثبات عليه، و لم يسترح بعد من همّه الأوّل حتى أقلقه الثانی، و كيف يأمن من العلويّين، و أبو عبد اللّه الصادق عليه السلام إمام مفترض الطاعة عند شطر من هذه الامّة، و عند كثير من أجنادهم الذين قلبوا بهم عروش بنی مروان، و هل قتلوا أبا سلمة الخلّال إلّا لأنهم أحسّوا منه أنه يريدها لبنی علی، و أن البيعة للسفّاح كانت بالغلبة عليه و إعجاله عليها.

و كيف يأمن ألّا ينافسه العلويّون و محمّد بن الحسن كانت له البيعة يوم الأبواء، و هو الذی صفّق السفّاح و المنصور بيديهما على يده، و هو الذی كان المؤهّل للعرش الذی وثبوا عليه، و ما زالت تلک الأمانی تخالج نفسه و لأیّ شیء اختفى يوم ظهر السفّاح؟ أ ليس الليث قد يربض للوثبة؟

حاول ابن عبّاس أن يستريح من هذا الهمّ فأرسل خلف الصادق عليه السلام إلى الحيرة ليوقع به و إن لم يظهر ما يتخوّفه على سلطانهم، فلما وصلها ضيّق عليه، و لكن لمّا لم يجد عنده هاتيک المخاوف سرّحه إلى المدينة راجعا و الهواجس تساوره.

ثمّ صار يتطلّب ابنی عبد اللّه بن الحسن، و هما مختفيان خوفا من بطشه و كلّما جدّ فی العثور عليهما جدّا فی الاختفاء.

انقضى دور السفّاح القصير و الصادق عليه السلام وادع فی المدينة و ابنا الحسن خلف ستور الخفاء، و ما جاءت أيام المنصور إلّا و اشتدّ على العلويّين،

ص: ۲۷

فما ترک الصادق يقرّ فی دار الهجرة بل صار يجلبه إليه مرّة بعد أخرى و يلاقيه بالاساءة عند كلّ جيئة، و يهمّ بقتله فی كل مرّة، و ما زال معه على هذه الحال إلى أن قضى عليه بالسمّ.

و أما محمّد و إبراهيم فكان يفحص عنهما بكلّ ما أوتى من حول و حيلة فكان يعلن بالأمان لهما مرّة، و يشتدّ على أبيهما و بنى الحسن اخرى، فلم تنفعه هذه الوسائل للوصول إليهما، و العثور عليهما، ثم حمل بنى الحسن إلى العراق، و استودعهم غياهب السجون، حتى قضى أكثرهم بأشنع قتلة و ما فتئ أن فوجئ بوثبة محمّد بالمدينة و البصرة، و هذا ما كان يرقبه و يتذرّع بالوسائل لصدّه، و يتخوّف عقباه، غير أن القضاء غالب.

ملک بنو العبّاس فظهر مكرهم و غدرهم، بايعوا ابن الحسن ثمّ جدّوا فى طلبه و طلب أخيه للقضاء عليهما، حاول ابن عبّاس أن يضعا يديهما بيده استسلاما، و كيف يستسلمان و فى النفوس إباء و عزّة و آمال تؤيّدها الناس فى طلب الوثبة، و إن خمدت فيهما تلک الروح الوثّابة استفزّها الناس بالحثّ على النهضة، فما زالوا بهما حتى وثبا بعد ذاک الاختفاء الطويل.

و ما كانت تلک الغدرة من بنى العبّاس ببنى الحسن الوحيدة فى سلطانهم، غدر المنصور بأبى مسلم بانى كيان دولتهم، و قتلوا أبا سلمة الخلّال و حبسوا يعقوب بن داود، و قتلوا الفضل بن سهل، و ما سوى هؤلاء و كم همّوا بعلىّ بن يقطين و جعفر بن محمّد الأشعث الوزيرين.

و غدر المنصور أيضا بعيسى بن موسى العبّاسى و عزله عن ولاية العهد و ولّى مكانه ابنه المهدى، و كانت الولاية لعيسى جعلها له المنصور بدلا عن بلائه فى حرب محمّد و إبراهيم و قضائه عليهما و على نهضتها، تلک النهضة التى أقلقت المنصور و جعلته يعتقد بزوال سلطانه.

ص: ٢٨

و غدر الرشيد بوزرائه البرامكة و بيحيى الحسنى بعد الأمان، و غدر الأمين بأخيه المأمون حين عزله عن العهد، و المأمون بالرضا عليه السلام حين سمّه بعد بيعته بولاية عهده، إلى ما لا يحصى ممّا كان منهم من غدرة و فجرة و إن أعظم غدر منهم ما كان مع بنى الحسين عليه السلام، كانت شيعة بنى على جند بنى العبّاس فى إزالة دولة بنى مروان كما تقدم، و كان شعارهم الطلب بثأر القتلى من أهل البيت، و هل قتل بسيف الأمويّين غير الطالبيين؟ و هل لقى الشدّة و الضيق من الامويين غير العلويين؟ و لئن لاقى سواهم من الهاشميّين شيئا من ذلک فلا يشبه ما حلّ بآل أبى طالب.

ندب العبّاسيّون الناس لطلب الثأر بل ندبهم الناس إليه، و كانت هذه أمضى وسيلة لنيل إربهم، فما استقرّت أقدامهم فى حظيرة الملک إلّا و راحوا يتتبعون آل الرسول صلّى اللّه عليه و آله فكأن العترة هم الذين جنوا فى تلک الحوادث القاسية يوم الطفّ، و سبوا عقائل النبوة، و أنزلوا بزيد و يحيى و غيرهما هاتيک الفظائع المؤلمة، و كأنّما القتلى و الأسرى كانت من بنى العبّاس و الجناة عليهم العلويّون، و كأن لم يكن العلويّون هم الذين نهض الناس انتقاما لهم، و للأخذ بتراتهم.

ما انجلت الحوادث عن طرد الأمويّين إلّا و أهل البيت صرعى تلک الحوادث بدلا من أن ينالوا العطف من بنى العبّاس لما حلّ بهم من فواجع دامية من الأمويّين، و لما ناله العبّاسيّون أنفسهم من الملک الفسيح بهم.

هكذا انجلت الغبرة بعد استلام العبّاسيّين أزمة الحكم، فما نسيت الناس حوادث أهل البيت من الأمويّين حتى كانت المقارع على رءوسهم من بنى العبّاس يتبع بعضها بعضا من دون رحمة، و لا هوادة، و لا فترة، لما ذا هذا كلّه، و لما ذا كان أهل البيت دون غيرهم بيت المصائب و النوائب؟ فلنبحث عن السبب فى الفصل الآتى:

ص: ٢٩

ما جناية أهل البيت؟

هتف القرآن المجيد بآيات كثيرة فى شأن أهل البيت، آمرا بمودّتهم مخبرا عن طهارتهم، حاثّا على الاعتصام بهم، حاضّا على طاعتهم، معلنا عمّا لهم من جزيل الفضل و عظيم المنزلة.

و أتبعه الرسول صلّى اللّه عليه و آله طيلة حياته كاشفا عمّا جمعه آله من الفضائل، و حبوا به من المفاخر، يوجب تارة طاعتهم و اتّباعهم، و يلزم أخرى بمودّتهم و يعطف طورا للقلوب عليهم و يستميل مرّة النفوس إليهم إلى ما سوى ذلک. «١»

و ما كان ذلک إلّا لسعادة الناس أنفسهم ليأخذوا الدين من أهله و العلم من معدنه، فكان الحقّ على الناس احترامهم، و الانقطاع إليهم و الانصراف عن غيرهم.

كان أهل البيت- أعنى عليّا و الزهراء و ابنيهما و أبناء الحسين عليهم السلام- مثالا للنبى صلّى اللّه عليه و آله فى شمائله و فضائله و خصاله و فعاله، فمن أراد علم الرسول كانوا باب مدينته، و من أراد منطقه كانوا مظهر فصاحته و بلاغته، و من أراد خلقه وجدهم أمثلة سيرته، و من أراد دينه وجدهم مصابيح شريعته،

---

(١) ذكرنا فى كتابنا «الشيعة و سلسلة عصورها» بعض ما جاء فى الكتاب و السنّة فى شأن أهل البيت و فضلهم و الدعوة الى ولائهم.

ص: ٣٠

و من أراد زهده وجد فيهم منهاج طريقته، و من أراد البرّ بعترته كانوا صفوة ذرّيته، و من أراد النظر إليه كانوا جمال صورته، هكذا كان أهل البيت إن قستهم إلى صاحب البيت، و هذا بعض ما كانوا فيه مثالا لشخصيّته الكريمة صلّى اللّه عليه و آله.

و من كانت له عند الرسول صلّى اللّه عليه و آله ترة فمنهم الأخذ بترته، أو كان له مع الاسلام عداء فهم للاسلام أقوم عدّته، أو كان له مع الدين غضاضته فإنهم للدين أوقى جنّته، أو كان له مع المعروف حرب فهم للمعروف أبناء دعوته أو كان له مع المنكر ولاء فهم أعداء خطّته.

و إن ذكر الخير كانوا أدلّاءه، أو سار الفضل كانوا لواءه، أو نشر العدل كانوا أخلّاءه، أو خاض الناس فى المفاخر كانوا أبعدهم قعرا و أثمنهم درّا، أو تسابق أهل الفخر إلى المكارم كانوا أسبقهم جولة، و أبعدهم شوطا، و إن تنافسوا فى الشرف كان عندهم الوقوف و الاحجام، فما من فضيلة إلّا و إليهم مآلها، و منهم انتقالها.

فاذا كان أهل البيت كما وصفنا فكيف لا يقف معهم بنو أميّة موقف العدوّ اللدود، و الخصم العنود، أ لم يكن النبى صلّى اللّه عليه و آله قد قتل منهم فى اللّه من قتل، فمتى يأخذون منه تراتهم، و لو أغضوا عن حماة الاسلام، و دعاة الدين لعاد النبىّ بدعوته، كأنه لم يمت و لم يمت ذكره، و لسار الاسلام و أحكامه و نظامه كما أراده الجليل تعالى و الرسول صلّى اللّه عليه و آله، و لو وقفوا معهم موقف المحايد لعرف الناس فضل أهل البيت و بأن للعالم حقّهم، و لما بقيت عندئذ لأميّة وسيلة لارتقاء منابر الاسلام، و ذريعة للاستيلاء على البلاد و استرقاق العباد.

ما برحت أميّة تظهر و تضمر العدل للرسول الأطهر صلّى اللّه عليه و آله فلا

بدع لو كانت مواقفهم مع آل الرسالة تلك المواقف المشهودة و لو كانوا على غير ما عرفته الأيام منهم لكان ذلك بدعا من خلائقهم و أخلاقهم.

و أما بنو العبّاس، فإنهم حين ملكوا الأمر، و عبروا الجسر إلى مآربهم، الجسر الذى أقاموه على أكتاف الشيعة، و رفعوا أعمدته من جماجم أولئك السذّج، عرفوا أن الحال إن هدأت سوف يحاسبهم الناس على الحقّ و موضعه و الخلافة و أهلها، لأنهم لم ينهضوا معهم إلّا لهدم عروش أميّة، و للأخذ بترات الدماء الزكيّة التى أريقت من غير جرم، و لبناء خلافة الرضا من آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله و ما قاموا و قاوموا لأن يقيموا عرشا لبنى العبّاس دون بنى على فارتأى العبّاسيّون أن يفتكوا بالرجال الذين عبّدوا لهم السبل، و وطّدوا لهم الطريق لاعتلاء أسرّة الحكم، كأبى سلمة الخلّال و غيره، حذرا من ذلك الحساب و رأوا أن يضيّقوا على أبناء على، و يضعوا عليهم العيون و الرصد، خوفا من تلك النزعات التى تخالج نفوسهم أو يحملهم عليها الناس، و رأوا أن يكمّوا أفواه الشيعة بالإرهاب خشية من ذلك السؤال و الحساب.

فما كانت جناية أبناء علىّ لديهم إلّا أنّهم أهل الحقّ و المقام، و أهل البيعة و الخلافة، بالقرابة أو بالنصّ أو بالفضيلة.

و لم يكن شىء يدعوهم لإنزال الضربات بالعلويّين سوى أن العلويّين أجدر بالخلافة التى غلب عليها العبّاسيّون، و أن العبّاسيّين لا يأمنون من و ثباتهم ما برح لأبناء علىّ مكانة سامية بين الناس، و ما برح فيهم قروم تطمح إليهم الأنظار و تهوى إليهم القلوب، فاتخذ العبّاسيّون الغضّ من كرامة آل الرسول صلّى اللّه عليه و آله و الفتك باولئك القروم ذريعة لميل النفوس و انكفاء الأهواء عنهم، و لو حذرا من الفتك و البطش، كما كان دأبهم الإرغام لمعاطس شيعة أهل البيت و التنكيل بهم، لئلّا تكون لهم قوّة و شوكة يستعين بها أهل البيت على النهضة.

و الفرق بين الأمويّين و العبّاسيّين هو أن الذى دعا الأمويّين لحرب الهاشميّين شيئان: الانتقام من الرسول، و التسلّق للزعامة، و الذى دعا العبّاسيّين: نيل العروش و الذبّ عنها فقط، دون أن يكون منهم حرب مع النبىّ و شريعته بقصد، و إن كان حربهم لعلماء الشريعة حربا للشريعة و للصّادع بها.

و لو ألقيت نظرة مستعجلة على ما لقيه أهل البيت من أجل تقمّصهم بالفضائل لعرفت كيف تحارب الدنيا الدين، و كيف انطبع الناس على حبّ الدنيا و حلفائها، و على عداء الدين و حلفائه، و لأبصرت أن بنى العبّاس جروا فى مضمار بنى أميّة، و إن سبقوهم شوطا بعيدا فى حرب أهل البيت.

قتل بنو أميّة الحسين بن على عليهما السلام فى الطفّ و معه صفوة زاكية من أهل بيته، و نخبة صالحة من أصحابه، حين وثب منكرا عليهم تلاعبهم بالدين حسب الأهواء، و قتل بنو العبّاس الحسين بن على بفخّ و معه غرانيق من العلويّين عزّ على وجه الأرض نظيرهم، حين نهض منكرا عليهم ما ارتكبوه من الأعمال التى أغضبوا بها الدين و أهله.

سمّ بنو أميّة من الأئمة ثلاثة: الحسن و السجّاد و الباقر عليهم السلام، و سمّ بنو العبّاس منهم ستة: الصادق و الكاظم و الرضا و الجواد و الهادى و العسكرى عليهم السلام.

أرسل هشام بن عبد الملک على الباقر و الصادق عليهما السلام إلى الشام لينال منهما سوء فحين حلّا بالشام لم يجد بدّا من إكرامهما و تسريحهما إلى المدينة حذرا من أن يفتتن بهما الناس، و أمّا بنو العبّاس فلم يتركوا إماما يقرّ فى بيته، أرسل السفّاح خلف الصادق، و أرسل المنصور أيضا خلفه مرّات عديدة، و أرسل الرشيد خلف الكاظم و حبسه ثمّ أطلقه، و لم يطل العهد حتّى أرسل عليه مرّة أخرى، فما خرج من الحبس إلّا و هو قتيل السمّ، و لا تسل عمّا ارتكبه معه حين

إخراجه من السجن و النداء عليه على الجسر، و أرسل المأمون خلف الرضا إلى طوس، فما عاد إلى أهله بل عاجله بالسمّ و هو فى خراسان، و أرسل خلف الجواد ثمّ سرّحه من دون أن يأتى إليه بسوء، و ما قبض المعتصم زمام الأمر إلّا و أرسل خلف أبى جعفر الجواد عليه السلام و حبسه، و ما أطلقه من السجن حتّى دبّر الحيلة فى قتله بالسمّ، و أرسل المتوكّل خلف أبى الحسن الهادى عليه السلام و جدّ فى النيل من كرامته إلى أن هلک، و ما زال يلاقى من ملوک العبّاسيّين ضروب الأذى و التضييق، يسجن مرّة و يطلق أخرى إلى أن سقاه المعتز السمّ، و بقى ولده أبو محمّد الحسن عليه السلام فى سامراء، لا يأذنون له بالإياب إلى المدينة، و لا يتركونه قارّا فى بيته، بل يحبسونه مرّة و يطلقونه أخرى، إلى أن قضى بسمّ المعتمد، و صار يفحص عن ابنه أبى القاسم حين علم أن له ولدا ابن خمس يريد أن يقبضه ليقضى عليه، فتغيّب هاربا من جورهم و فتكهم حتى اليوم.

أباد الامويّون جماعة من العلويّين بالسمّ و الحبس و القتل و الصلب أمثال زيد و يحيى و فئة أخرى يوم الحرّة، و عبد اللّه أبى هاشم بن محمّد بن الحنفيّة على قول و غيرهم، و أين هؤلاء من تلک العدّة التى أبادها العبّاسيّون و كفى منهم قتلى فخ و العصابة التى قضوا فى قعر السجون، و ما ارتقى العرش عبّاسى إلّا و قتل جماعة من العلويّين.

هرب من جور الامويّين أمثال يحيى و عبد اللّه الجعفرى و عدّة أخرى و لكن أنّى تقاس كثرة بالذين هربوا و اختفوا خوفا من العبّاسيّين، و أين أنت عن القاسم و أحمد ابنى الامام الكاظم عليه السلام و عيسى بن زيد و غيرهم، بل لم ينتشر العلويّون فى الأقطار النائية كالهند و ايران إلّا هربا من بنى العبّاس و حذرا من بطشهم، و كان الكثير منهم يخفى نسبه حذرا من ولاتهم.

ص: ۳۴

و لئن غدر الامويّون ببعض العلويّين و العبّاسيّين فقتلوهم سمّا فلا تسل عمّن غدر به العبّاسيّون من العلويّين، و لو تصفّحت «مقاتل الطالبيّين» لعرفت ما ارتكبه منهم بنو العبّاس.

و لئن أحرق الامويّون بيوت أبناء الرسالة يوم الطف، فلقد أحرق العبّاسيّون دار الصادق عليه و على عياله، حتّى خرج الصادق إليها فأطفأها و قد سرت فى الدهليز.

و لئن سلب الأمويّون بنات الرسالة يوم الطف، فلقد أرسل الرشيد قائده الجلودى إلى المدينة ليسلب ما على الطالبيّات من حلىّ و حلل، فكان الجلودى أقسى من الجلمد فى إمضاء ما أراده فلم يترك لعلويّة و لا طالبيّة حلّة و لا حلية.

و سيّر هشام بعد حادثة زيد كلّ علوى من العراق إلى المدينة و أقام لهم الكفلاء ألّا يخرجوا منها، و سيّر موسى الهادى بعد حدثة فخ كلّ علوى من المدينة إلى بغداد حتى الأطفال فأدخلوا عليه و قد علتهم الصفرة ممّا شاهدوه من الرعب و التعب و الأحداث.

و هكذا لو أردنا أن نقايس بين أعمال الدولتين، فلا نجد للامويّين حدثا فى الإساءة لأهل البيت إلّا و للعبّاسيّين مثله مضاعفا، فكأنما اتخذوا تلك الخطّة مثالا لهم يسيرون عليها، و زاد العبّاسيّون أن اختصّوا بأشياء من فوادحهم مع العلويّين لم يكن للامويّين مثلها، كجعلهم العلويّين بالأبنية و الاسطوانات حتّى جعل المنصور أساس بغداد عليهم، و لا تنسل عمّن وضعه الرشيد فى تلك المبانى من الفتية العلوية البهاليل.

و قطع الرشيد شجرة عند قبر الحسين عليه السلام كان يستظلّ بها زائروه، و هدم المتوكّل قبره و ما حوله من الأبنية و البيوت، و حرث أرض كربلاء و زرعها ليخفى القبر و تنطمس آثاره، حتّى قيل فى ذلک:

ص: ۳۵

تالله إن كانت أميّة قد أتت	قتل ابن بنت نبيّها مظلوما
فلقد أتته بنو أبيه بمثله	فغدا لعمرک قبره مهدوما

أسفوا على ألّا يكونوا شاركوا فى قتله فتتبعوه رميما

و لقد كانت أيام بنى أميّة ألف شهر و قد قتلوا فيها الأماثل من العلويّين و لو حسبت من بدء أيام بنى العبّاس إلى ألف شهر لوجدت إن العبّاسيّين قد قتلوا من العلويين أضعاف ما قتله الأمويّون، و ما قتلوهم إلّا و هم عالمون بما لهم من فضل و قربى، و هذا موسى بن عيسى الذى حارب أهل فخ يقول عن الحسين صاحب فخ و أصحابه: هم و اللّه أكرم خلق اللّه و أحقّ بما فى أيدينا منّا و لكنّ الملک عقيم، لو أنّ صاحب هذا القبر- يعنى النبى صلّى اللّه عليه و آله- نازعنا الملک ضربنا خيشومه بالسيف. «١»

على أن هذا الآثم الجرىء اعترف بذنبه، و لكنه لم يذكر الحقيقة كلّها لأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و الصفوة من آله لم يطلبوا الملک للملک، و إنّما يطلبونه للدين و للأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و لإزالة البدع و الضلالات و لو طلبوا الملک للملک لما رشقنا الامويّين و العبّاسيّين بنبال اللوم على ما جنوه مع الطالبيّين، و هل يلام الظافر بقرينه إذا تجالدا على السلطان.

أ ترى أن الحسين فى نهضته، و زيدا فى وثبته، و يحيى فى جهاده، و الحسين بفخّ فى دفاعه، و أمثالهم من الطالبيّين أهل الدين و البصائر، كانوا يضحّون بالنفس و النفائس لأجل السلطان، و كيف يتطلّبون الدنيا محضا و هم دعاة الدين، و أدلّاء الهدى، و مصابيح الرشاد، و كيف يتطلّبون الملک و هم يعلمون أن ما لديهم من قوّة لا يفوز بها الناهض بالظفر و النصر، نعم ضحّوا بتلک النفوس

---

(١) مقاتل الطالبيّين فى مقتل الحسين بن على صاحب فخ.

الثمينة و النفائس لما عرفوه من أن الدين أنفس من نفوسهم، و من استغلى الثمن هان عليه البيع، و هل عرف الناس الحقّ صراحا، و الدين يقينا، إلّا بعد تلک القرابين، و هل ظهر الحقّ على الباطل فى الحجّة و البرهان إلّا بعد ذلک الفداء.

كانت واقعة الطفّ و تضحيات العلويّين مثالا لأرباب الدين و تعليما لرجال الحقّ عند المنافسة بين الهدى و الضلال، و الحقّ و الباطل، و لم تدع عذرا لدعاة الدين عن الفداء فى سبيل النصرة، فإنهم بأعمالهم علّموهم كيف يكون الانتصار فى هذه التضحية، و كيف تكون الحياة فى هذا الممات، و إنّ تلک التجارب للجام الأفواه عن العذر بالعجز، إذ ليس النصر لفوز العاجل و إلّا فإن يوم الحسين و أيام العلويّين كانت أيام الظفر لأعدائهم، و لكن ما عرف النّاس إلّا بعد حين أن الظفر و الفوز كانا لأولئک العلويين الناهضين الذين بذلوا ما لديهم فى سبيل الدين، و أن الخسران فى الدنيا و الدين لأعدائهم الظافرين فى يومهم.

و بتلک الحوادث بانّ للعالم ما كان عليه أهل البيت من الدين و الجهاد فى إحياء الشريعة، و ما كان عليه أعداؤهم من الدنيا و الحرب للدين، و اتضحت نوايا الفريقين، و بانت أقصى غاياتهم من أعمالهم هاتيک، و إلّا فأىّ ذنب للطفل الرضيع و قد جفّ لبنه و ذبلت شفتاه عطشا أن يقتل على صدر أبيه، حتّى يتركه السهم يرفرف كالطير المذبوح.

و أىّ ذنب للأطفال الذين لم يحملوا السلاح، و لم يلجوا حومة الحرب أن يذبحوا صبرا، أو يداسوا بالخيل قسرا.

و أىّ ذنب للنساء عقائل الرسول صلّى اللّه عليه و آله أن تسبى على الهزل بعد السلب و السبّ الضرب، و لما ذا تحمل من بلد لآخر كما تساق الإماء.

و لو أن الحسين و رهطه قد حاربوا طلبا للسلطان لما استحقّ بعد القتل أن

ص: ٣٧

يداس جسمه و يرفع على القناة رأسه، و تسبى على المهازيل أهله، أ ترى أن قطع الرءوس، و رضّ الصدور و الظهور بسنابک الخيل، و سلب الجثث و تركها عارية، و إبقاءها بالعراء بلا دفن، و أخذ النساء أسارى ممّا يجازى به القتيل الناهض للملک و السلطان.

إنّ الذى يذر الملح على الجرح، و ينكأ القرحة، و يزيد فى النكبة أن القوم لم يفعلوا بالحسين و أهله تلک الفعلة النكراء الفظيعة عن جهل بمقامه، و اعتقاد بخروجه عن الدين، بل إنهم ليعلمون أنه صاحب الدين، و ربّ الخلافة و الامامة، و سيّد شباب أهل الجنّة، و ريحانة الرسول، بل يعلمون بكل ما له من سابقة و فضل.

و هكذا لو فتّشت عن الأمر فى غير الحسين عليه السّلام فإنک لتجد الحال فى زيد و يحيى و أهل فخ، و ما سواهم من أمثال أهل البيت الذين كانوا طعمة للسيوف، و منتجعا للسمّ، و وقفا على الحبوس، كالحال فى الحسين فى المعرفة بهم و العمد على ظلمهم.

فلا بدع إذن لو وضح للعالم من تلک المواقف المشهودة، و المشاهد المعلومة، أن الحرب بين أهل البيت و بين أعدائهم من نوع حرب الفضيلة و الرذيلة، و أن الذين يريدون العروش لا يستطيعون نيلها إلّا بمحاربة أهل البيت و محوهم من صفحة الوجود، لأنهم يعتقدون أنهم لا يصلون إلى الغاية و لأهل البيت شبح قائم، و ظلّ يتفيّؤه الناس، فما كانت جناية أهل البيت إذن لدى الناس إلّا أنهم أهل الدين، و أرباب الفضائل، فلا ترتقى الناس أرائک الخلافة و أهل البيت أكفاؤها الذين خلقت لهم و خلقوا لها تعرفهم الأمّة قياما بين أبناء الاسلام.

***

ص: ٣٨

المذاهب و النحل

كانت أيام أبى عبد اللّه الصادق عليه السّلام أيام نحل و مذاهب، و آراء و أهواء، و كلام و بحث، و بدع و أضاليل، و شبه و شكوك، و نحن الآن نذكر أصول تلك الفرق و المذاهب موجزا، جريا على السنن الذى درجنا فيه، لأن التبسّط فى البحث يخرجنا عن خطّة الكتاب، و فى كتب الملل و النحل المعدّة لهذا الشأن بعض الاغناء.

اصول الفرق الإسلاميّة:

إنّ الأمّة الاسلاميّة قد افترقت ثلاث و سبعين فرقة كما أنبأ عن ذلک نبيّنا الصادق الأمين صلّى اللّه عليه و آله بقوله: ستفترق أمّتى على ثلاث و سبعين فرقة «١»، و تلک من أعلام نبوّته و ما أكثرها.

و الذى نريد أن نبحث عنه فى هذا الفصل هو ما كان من الفرق فى عصر الصادق بارزا يعرف، و نخصّ البحث فى الأصول التى ترجع إليها الفرق المتشعّبة، و قد نشير إلى بعض تلک الشعب بعد ذكر الأصل، و ذلک أقرب للقصد، و أمسّ بالخطّة.

---

(١) سنن ابن ماجة: ٢/ ١٣٢١.

إن جميع أصول الفرق الاسلاميّة، التى إليها المرجع و المآل أربعة: المرجئة، المعتزلة، الشيعة، الخوارج «١» فإن كلّ فرقة تنتمى إلى أحد هذه الأصول، و أما الغلاة و إن رمتهم الفرق الأخرى بالكفر إلّا أنهم أيضا من شعب هذه الأصول- و لو بزعمهم- فالكلام فى هذه الأصول الأربعة عنوان البحث.

١- المرجئة:

يمكننا أن نقول: إن المرجئة اليوم يقصد منها الأشاعرة فحسب، و هم عامّة أهل السنّة فى الاعتقاد فى هذه الآونة، إذ لم يبق على مذهب أهل الاعتزال فى هذه الأزمنة أحد معروف.

كانت المرجئة قبل الأشعرى فرقا متكثّرة، و كلّها قسم من أهل السنّة المقابل للشيعة و الخوارج، غير أنه لمّا حدث مذهب الأشعرى فى الاعتقاد أصبح عنوان المرجئة عنوانا آخر لأهل السنّة، أو للمذهب الأشعرى بوجه عامّ، قال الشهرستانى فى الملل و النحل «٢»: «و قيل الارجاء تأخير على عليه السّلام عن الدرجة الأولى إلى الرابعة» انتهى. و هذا كما ترى هو ما عليه أهل السنّة أجمع.

و ليس من قصدنا أن نبحث عن جهة اجتماع هذه العناوين فى المذهب الأشعرى أو افتراقها عنه، و إنما القصد الأوّلى أن نعرف ما كان عليه المرجئة فى ذلک اليوم، و ليس من شكّ بأن المرجئة فى ذلک العهد كانت فرقا و مذاهب يجمعها قولهم بالاكتفاء فى الايمان بالقول و إن لم يكن عمل، حتّى لو ارتكب مدّعى الايمان من الجرائم و المآثم كلّ موبقة لما أخرجه ذلک عندهم عن ربقة

(۱) فرق الشيعة لابى محمّد الحسن النوبختى: ۱۷، و ذكر ابن حزم فى الفصل: ۲/ ۸۸ أنها خمسة بجعل أهل السنّة فرقة فى قبال المرجئة و المعتزلة.

(۲) المطبوع فى هامش الفصل: ۱/ ۱۴۵.

الايمان، بل كان على ايمان جبرئيل و ميكائيل، و رجوا لهؤلاء مرتكبى الكبائر المغفرة، و لعلّه من هنا سمّوا المرجئة أو من جهة أنّ اللّه تعالى أرجأ تعذيبهم، من الارجاء- التأخير- أو لتأخيرهم عليّا عليه السّلام عن الدرجة الأولى إلى الرابعة، كما ينقله الشهرستانى.

إن أقصى ما يمكن استفادته فى القول الجامع لفرق المرجئة هو ما أشرنا إليه، و هو الذى تفيده كتب الفريقين، التى تذكر اجتماع الفرق و افتراق النحل.

و هل كان أبو حنيفة و نظراؤه من المرجئة الماصريّة «۱» و هم مرجئة أهل العراق، و الشافعى و الثورى و مالک بن أنس و ابن أبى ليلى و شريک بن عبد اللّه و نظراؤهم من المرجئة الذين يسمّون الشكاک، أو البتريّة، و هم أهل الحشو و الجمهور العظيم المسمّون بالحشويّة؟ ذلک ما لا نستطيع البتّ به، لأن كتب الفرق اختلفت فى تلک النسب، و لم تستند فى تحقيق ما تقوله إلى مصدر صريح لنتعرّف صحّة الأقاويل، فإن تعصّب أولئک المؤلّفين لنحلهم و مذاهبهم يجعل النحل الأخرى هدفا لهم، و ساعد على هذه الجناية رجال السلطات الزمنيّة فى تلک العصور، لأنهم إذا حاولوا ترويج فرقة أو محاربة أخرى استأجروا لهذا الغرض أقلاما و محابر، و خطباء و منابر، فمن هنا قد تضيع الحقيقة على من لا دراية له و تتبّع.

و لربما أوقعت تلک المؤلّفات كثيرا من الكتّاب فى أشراک الخبط و الخلط و صفوة القول ان الاعتماد على تلک الكتب فى صحّة النسب ليس بالسهل،

(۱) الملل و النحل فى هامش الفصل: ۱/ ۱۴۷ فى كلامه على المرجئة الغسّانية، و ص ۱۵۱ فى كلامه على رجال المرجئة، و قد جاء فى بعض المناظرات التى جرت مع أبى حنيفة خطابهم له بقولهم: بلغنا عنكم أيها المرجئة، فلم ينكر أبو حنيفة هذه النسبة إليه، انظر فى ذلک تأريخ الخطيب: ۱۳/ ۳۷۰ و ما بعدها فإنک تجد فيها تفصيل نسبته إلى الارجاء.

فمن ثمّ لا يصحّ لدينا من تلک الفرق التى نسبت إلى المرجئة إلّا الجهميّة أصحاب جهم بن صفوان لصراحة اعتقادهم بما ذكرناه عنهم و لإجماع المؤلّفين.

كما أنه قد رووا فى لعن المرجئة عن النبى صلّى اللّه عليه و آله ما نحن براء من تبعته مثل قوله: لعنت المرجئة على لسان سبعين نبيّا، قيل: من المرجئة يا رسول اللّه؟ قال: الذين يقولون: الايمان كلام «١».

و الخلاصة: أن المرجئة كانت و لا شكّ فى ذلک العهد، كما أنها كانت و هى ذات فرق، و يجمعها فى الاعتقاد ما ذكرناه من كفاية القول فى الايمان و إن لم يكن عمل يطابق ذلک الاعتقاد، بل حتّى لو كان العمل على نقيض ذلک القول، و لسنا فى حاجة إلى الغور فى تشعّباتها و خصوصيّات ما اعتقدته تلک الشعب لجواز ألّا نصيب شاكلة الهدف، و نحن فى فسحة من الوقوع فى أمثال هذه المزالق، نسأله تعالى العصمة من الخطأ، و الأمان من العثار.

٢- المعتزلة:

لا نشكّ فى أن الاعتزال وليد عصر الصادق عليه السّلام، و فى ذلک العصر نشأ و شبّ، و ذلک حين اعتزل عمرو بن عبيد و واصل بن عطاء و غيرهما حوزة الحسن البصرى فنبذوهم بهذا اللقب، و ما قيل من أنه وليد عصر أمير المؤمنين عليه السّلام حينما اعتزل سعد بن أبى وقاص و ابن عمر و أسامة بن زيد حروب أمير المؤمنين فلا وجه له، لأن ذلک الاعتزال لم يكن اعتزالا مذهبيّا على أساس فى الرأى أو شبهة فى الدين، و ما كان إلّا انحرافا عن أمير المؤمنين عليه السّلام و لذا لم يكن اسم الاعتزال معروفا فى ذلک العهد، و لا سمّى هؤلاء بالمعتزلة فى ذلک

---

(١) الفرق بين الفرق ص ١٩٠.

اليوم، و لا أن المعتزلة ينتمون إلى أولئک فى المذهب.

و المعتزلة افترقت فرقا كثيرة بعد أن اتفقت على الاعتزال، و ليس فى يومنا الحاضر أحد معروف النسبة إليه على ما أحسب، و الذى يجمع عقيدة الاعتزال ما نقله صاحب «الفرق بين الفرق» ص ٩٤ عن الكعبى فى مقالاته:

إن المعتزلة أجمعت على أن اللّه عزّ و جل شىء لا كالأشياء، و أنه خالق الأجسام و الاعراض، و أنه خلق كلّ ما خلقه من لا شىء، و أن العباد يفعلون أعمالهم بالقدر التى خلقها اللّه سبحانه و تعالى فيهم، قال: و أجمعوا على أن اللّه لا يغفر لمرتكبى الكبائر بلا توبة.

هذا ما حكاه عن الكعبى فى القول الجامع فى الاعتقاد لفرق المعتزلة، و نكتفى به عن الكلام عمّا يعتقدون، و لسنا بصدد التمحيص لنضع هذا الكلام فى ميزان النقد، و نتعرّف صحة ما صوّبه صاحب الفرق نحو هذا الزعم كما دعانا هذا لإغفال ما ينسبه إليهم ابن حزم و الشهرستانى و صاحب الفرق من الأقوال الكثيرة.

ثمّ اننا بعد هذا لا نتبسّط فی البحث عن فروع ذلک الأصل، و ما یمتاز به کلّ فرع منها فی الاعتقاد فیما یزید علی الجامع، فإن التبسّط خروج عن الخطّة الموسومة، مع اننا لا نأمن من العثار.

و هل القدریّة هم هؤلاء المعتزلة؟ أو هم نفس الأشاعرة؟ ذلک موضع الشکّ، لأنّا إن أردنا من القدریّة من یقول: بأن أفعال العباد مخلوقة لهم و أنها من صنعهم و تقدیرهم و إنما خلق اللّه فیهم قوّة و قدرة بها یفعل العباد أعمالهم فهم المعتزلة، علی ما نقل عنهم من القول الجامع السابق، و لا یکونون علی هذا نفس الأشاعرة، لأن الأشاعرة علی العکس من ذلک یرون أن الأفعال کلّها من صنع اللّه تعالی و تقدیره دون العبد.

ص: ۴۳

و إن أردنا من القدریّة من یقول بأن القدر خیره و شرّه من اللّه تعالی فیکونون حینئذ هم الأشاعرة یقینا.

و قد روی الشهرستانی عن النبی صلّی اللّه علیه و آله قوله: القدریّة مجوس هذه الأمّة، و قوله: القدریّة خصماء اللّه فی القدر. «۱»

و لا ندری- إن صحّت الروایة- أین یتوجّه هذا الذمّ الصریح، و السمة الفاضحة.

۳- الشیعة:

کان التشیّع علی عهد صاحب الشریعة الغرّاء و سمّی بعض الصحابة بالشیعة من ذلک الیوم، أمثال سلمان و أبی ذر و المقداد و عمّار و حذیفة و خزیمة و جابر و أبی سعید الخدری و أبی أیوب و خالد بن سعید بن العاص و قیس بن سعد و غیرهم «۲».

و الشیعة لغة:- الأتباع و الأنصار و الأعوان، و أصله من المشایعة- المطاوعة و المتابعة، و لکن هذا اللفظ اختصّ بمن یوالی علیّا و أهل بیته علیهم السّلام «۳».

و أوّل من نطق بلفظ الشیعة قاصدا به من یتولّی علیّا و الأئمة من بنیه هو صاحب الشریعة سید الأنبیاء صلّی اللّه علیه و آله و قد جاءت عنه فی ذلک عدّة أحادیث «۴».

---

(۱) انظر الملل و النحل المطبوع علی هامش الفصل: ۱/ ۵۰- ۵۱.

(۲) الاستیعاب فی أبی ذر، و الدرجات الرفیعة للسید علی خان فی ترجمة سلمان، و روضات الجنّات نقلا عن کتاب الزینة لأبی حاتم الرازی، و شرح النّهج: ۴/ ۲۲۵، و خطط الشام لمحمّد کرد علی: ۵/ ۲۵۱- ۲۵۶.

(۳) القاموس و لسان العرب و نهایة ابن الأثیر و مقدّمة ابن خلدون ص ۱۳۸ إلی کثیر غیرها.

(۴) راجع فی ذلک الصواعق بعد الآیة الثامنة و الآیة العاشرة من الآیات الواردة فی فضل

ص: ۴۴

و أما فرق الشیعة فهی کثیرة، و قد أنهتها بعض کتب الملل و النحل إلی أکثر ممّا نعرفه عنها، فذکرت فرقا کثیرة، و رجالا تنسب الفرق إلیهم، أمثال الهشامیّة نسبة إلی هشام بن الحکم، و الزراریّة نسبة إلی زرارة بن أعین، و الشیطانیّة نسبة إلی مؤمن الطاق محمّد بن النعمان الأحول، و الیونسیّة نسبة إلی یونس بن عبد الرحمن، إلی غیرها، و الحقّ اننا من أهل البیت و أهل البیت أدری بما فیه لا نعرف عینا و لا أثرا لهذه الفرق، و لا للبدع التی نسبت لهؤلاء الرجال.

و إنّ من نظر فی کتب الحدیث و کتب الرجال للشیعة عرف أن هؤلاء من خواصّ الأئمة الذین یعتمدون علیهم و یرجعون الشیعة إلیهم، و لو کان لهم آراء و مذاهب لا یرتضیها الأئمة لسخطوا علیهم و أبعدوهم عنهم، و من سبر ما جاء عنهم فی الرجال الذین انتحلوا البدع لعلم أن هؤلاء برآء مما نسبوه إلیهم، فإنهم برءوا من ابن سبأ و لعنوه و حذّروا من بدعه، و برءوا من المغیرة بن سعید حین صار یکذب علی الباقر علیه السّلام و یدّعی الأباطیل، کما برئ الصادق علیه السّلام من أبی الخطّاب و جماعته، و من أبی الجارود و کما قالوا فی بنی فضال: خذوا ما رووا و دعوا ما رأوا، و کما برئ الحجّة المغیب من جماعة خلطوا فی الدین و ادّعوا أنهم أبوابه، إلی غیر هؤلاء «۱» و لو کان مثل هؤلاء الصفوة علی مثل تلک الضلالات التی نسبت إلیهم لکان نصیبهم من الأئمة نصیب غیرهم من الضالّین البراءة منهم و الذمّ و اللعن لهم.

نعم کانت للشیعة فرق قبل عصر الصادق علیه السّلام و بعده و قد ذهبت ذهاب أمس الدابر، و لم یبق منها الیوم شیء معروف إلّا ثلاث فرق:

اهل البیت، و نهایة ابن الأثیر فی قمح، و الدرّ المنثور للسیوطی فی تفسیر قوله تعالی: «إن الذین آمنوا و عملوا الصالحات اولئک خیر البریّة» إلی نظائرها من الکتب.

(۱) انظر فی ذلک کلّه غیبة الشیخ الطوسی طاب ثراه.

ص: ۴۵

۱- الإمامیّة: و هم القائلون بإمامة الاثنی عشر، و ولادة الثانی عشر و وجوده الیوم حیّا و یترقّبون کلّ حین ظهوره.

۲- الزیدیّة: و هم الذین یرون إمامة زید و کلّ من قام بالسیف من بنی فاطمة، و کان مجمعا للخصال الحمیدة.

۳- الاسماعیلیّة: و هم الذین یجعلون الامامة بعد الصادق علیه السّلام فی ابنه إسماعیل دون موسی و بنیه علیهم السّلام.

هذا ما بقى من فرق الشيعة ظاهرا يعرف منذ عهد بعيد حتّى الزمن الحاضر، و أما ما كان منهم فى الزمن الماضى، فقد بحث عنه النوبختى فى كتابه «فرق الشيعة» و ليس اليوم منها فرقة معروفة عدا ما ذكرناه.

و الذى يهمّنا ذكره من بينها هو ما كان فى أيام الصادق عليه السّلام و إن لم يبق اليوم منهم نافخ ضرمة.

الكيسانيّة: «۱»

فمن فرق الشيعة فى عهد الصادق عليه السّلام (الكيسانيّة) و هم الذين قالوا بإمامة محمّد بن الحنفيّة، و قد اختلفوا فى سبب تسميتهم بهذا الاسم، و هم ينتهون إلى فرق:

فرقة قالت بأن محمّدا، هو المهدى، و هو وصىّ أمير المؤمنين عليه السّلام و ليس لأحد من أهل بيته مخالفته، و أن مصالحة الحسن عليه السّلام لمعاوية كانت بإذنه، و خروج الحسين عليه السّلام أيضا بإذنه، كما أن خروج المختار

---

(۱) اننا نستند على الكثير ممّا نذكره عن الكيسانيّة إلى كتاب فرق الشيعة، و الملل و النحل، و الفرق بين الفرق.

طالبا بالثأر أيضا بإذنه، و فرقة قالت بإمامته بعد أخويه الحسنين عليهما السّلام، و إنه هو المهدى و بذلک سمّاه أبوه، و إنه لم يمت و لا يموت و لا يجوز ذلک، و لكنه غاب و لا يدرى أين هو، و سيرجع و يملک الأرض، و لا إمام بعد غيبته إلى رجوعه و هم أصحاب ابن كرب و يسمّون «الكربيّة».

و فرقة قالت: بأنه مقيم بجبال رضوى بين مكّة و المدينة، و هو عندهم الإمام المنتظر.

و فرقة قالت: بأنه مات و الامام بعده ابنه عبد اللّه، و يكنّى أبا هاشم و هو أكبر ولده، و إليه أوصى أبوه، و سميّت هذه الفرقة «الهاشميّة» بأبى هاشم، و هذه الفرقة قالت فيه كما قالت الفرق الاول فى أبيه، بأنه المهدى و أنه حىّ لم يمت بل غلوا فيه و قالوا إنه يحيى الموتى، و لكن لمّا توفى أبو هاشم افترقت أصحابه إلى فرق.

و كان من الكيسانيّة رجال لهم ذكر و نباهة، منهم كثير عزّة و له بذلک شعر يروى.

و كان منهم السيد إسماعيل الحميرى الشهير. و له أيضا شعر يشهد بما نسبوه إليه، و لكنه عدل عن ذلک إلى القول بإمامة الصادق عليه السّلام بعد أن ناظره الصادق و أقام الحجّة عليه، و له فى العدول و الذهاب إلى إمامة الصادق شعر مذكور.

و منهم حيّان السّراج، و قد دخل يوما على الصادق عليه السّلام فقال له أبو عبد اللّه: يا حيّان ما يقول أصحابک فى محمّد بن الحنفيّة؟ قال: يقولون: إنه حىّ يرزق، فقال الصادق عليه السّلام: حدّثنى أبى عليه السّلام: إنه كان فيمن عاده فى مرضه و فيمن غمضه و أدخله حفرته و زوّج نساءه و قسّم ميراثه، فقال:

يا أبا عبد اللّه إنّما مثل محمّد فى هذه الأمّة كمثل عيسى بن مريم شبّه أمره

ص: ۴۷

للناس، فقال الصادق عليه السّلام: شبّه أمره على أوليائه أو على أعدائه؟ قال:

بل على أعدائه، فقال عليه السّلام: أ تزعم أن أبا جعفر محمّد بن على عليهما السّلام عدوّ عمّه محمّد بن الحنفيّة؟ فقال: لا، ثمّ قال الصادق عليه السّلام: يا حيّان إنكم صدفتم «۱» عن آيات اللّه و قد قال تبارک و تعالى «سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون» «۲».

و قال بريد العجلى «۳»: دخلت على الصادق عليه السّلام فقال لى: لو سبقت قليلا لأدركت حيّان السرّاج، و اشار إلى موضع فى البيت، فقال: كان هاهنا جالسا، فذكر محمّد بن الحنفيّة و ذكر حياته، و جعل يطريه و يقرضه، فقلت له:

يا حيّان أ ليس تزعم و يزعمون، و تروى و يروون: لم يكن فى بنى إسرائيل شىء إلّا و هو فى هذه الأمّة مثله؟ قال: بلى، فقلت: هل رأينا و رأيتم، و سمعنا و سمعتم بعالم مات. على أعين الناس، فنكحت نساؤه و قسّمت أمواله، و هو حىّ لا يموت؟ فقام و لم يردّ علىّ شيئا «۴».

و الكيسانيّة من الفرق البائدة، و لا نعرف اليوم قوما ينتسبون إليها.

الزيديّة:

و من الفرق التى تنسب إلى التشيّع (الزيديّة) نسبة إلى زيد بن على بن الحسين عليهما السّلام، لأنهم قالوا بإمامته.

---

(۱) أعرضتم.

(۲) إكمال الدين للصدوق طاب ثراه ص ۲۲، و رجال الكشى ص ۲۰۳، و الآية فى سورة الأنعام:

۱۵۷.

(۳) من أصحاب الصادق و مشاهير ثقاتهم.

(۴) رجال الكشى فى ترجمة حيّان ص ۲۰۲.

ص: ۴۸

و زيد عليه السّلام ما ادّعى الامامة لنفسه بل ادّعتها الناس له، و ما دعاه للنهضة إلّا نصرة الحقّ و حرب الباطل، و زيد أجلّ شأنا من أن يطلب ما ليس له، و لو ظفر لعرف أين يضعها، و قد نسبت بعض الأحاديث ادّعاءه الإمامة لنفسه، و لكن الوجه فيها جليّ، لأن الصادق عليه السّلام كان يخشى سطوة بنى أميّة، و لا يأمن من أن ينسبوا إليه خروج زيد، و إن قيامه بأمر منه، فيؤخذ هو و أهله و شيعته بهذا الجرم، فكان يدفع ذلک الخطر بتلک النسبة، و لو كان زيد كما تذكره هذه الأحاديث لم يبكه قبل تكوينه جدّاه المصطفى و المرتضى عليهما و آلهما السّلام، و لم تبلغ بهما ذكريات ما يجرى عليه مبلغا عظيما من الحزن و الكآبة، كما هو الحال فى آبائه عند ما يذكرون مقتله و ما يجرى عليه بعد القتل.

و كفى فى إكبار نهضته و براءته مما يوصم به بكاء الصادق عليه السّلام عليه و تقسيمه الثائرين معه بالمؤمنين، و المحاربين له بالكافرين.

و كيف يكون قد طلب الامامة لنفسه و الصادق عليه السّلام يقول: رحمه اللّه أما أنه كان مؤمنا و كان عارفا و كان عالما و كان صدوقا، أما أنه لو ظفر لوفى، أما أنه لو ملک لعرف كيف يضعها «١». و يقول: و لا تقولوا خرج زيد فإن زيدا كان عالما، و كان صدوقا، و لم يدعكم إلى نفسه، إنما دعاكم إلى الرضا من آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله «٢» و لو ظفر «٣» لوفى بما دعاكم إليه، و إنما خرج إلى سلطان مجتمع لينقضه «٤».

---

(١) رجال الكشى فى ترجمة السيّد الحميرى ص ١٨۴.

(٢) الرضا: كناية عن إمام الوقت من أهل البيت و إنما يكنّى عنه حذرا عليه من التصريح باسمه.

(٣) ظهر: فى نسخة.

(۴) الوافى: عن الكافى، كتاب الحجّة، باب أن زيد بن على مرضى: ١/ ١۴١.

و يقول الرضا عليه السلام للمأمون: لا تقس أخى زيدا إلى زيد بن على عليهما السّلام فإنه كان من علماء آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله غضب للّه عزّ و جلّ فجاهد أعداءه حتى قتل فى سبيله، إلى أن يقول: إن زيد بن على عليه السّلام لم يدع ما ليس له بحق، و إنه كان أتقى للّه من ذلک، إنه قال: أدعوكم للرضا من آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله «١».

و لم تكن هذه الصراحة من الرضا عليه السّلام إلّا لأن العهد عهد العبّاسيّين و يقول ابنه يحيى: رحم اللّه أبى كان أحد المتعبّدين قائما ليلة صائما نهاره جاهد فى سبيل اللّه حقّ جهاده، فقال عمير بن المتوكل البلخى: فقلت: يا بن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله هكذا يكون الامام بهذه الصفة، فقال: يا عبد اللّه إن أبى لم يكن بإمام، و لكن كان من السادة الكرام و زهّادهم، و كان من المجاهدين فى سبيل اللّه، قال: قلت: يا بن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله إن أباک قد ادعى الامامة لنفسه و خرج مجاهدا فى سبيل اللّه، و قد جاء عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فيمن ادّعى الامامة كاذبا، فقال: مه مه يا عبد اللّه إن أبى كان أعقل

من أن يدّعى ما ليس له بحق، إنما قال: أدعوكم إلى الرضا من آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله، عنّى بذلک ابن عمّى جعفرا عليه السّلام، قال: قلت: فهو اليوم صاحب فقه، قال: نعم هو أفقه بنى هاشم. «۲»

و هذا الحديث كما كشف عن منزلة زيد الرفيعة فى الدين و الفضيلة و بطلان ما نسبوه إليه، فقد أثبت ليحيى مقاما عليّا فى الورع و العلم و الفقه.

و الأحاديث عن نزاهة زيد عن تلک الدعوى وافرة جمّة، فهو أتقى و أنقى من

---

(۱) نفس المصدر.

(۲) كفاية الأثر: ۳۰۴.

أن يلوّث نفسه الطاهرة بدعوى الامامة، و إنّما ادّعتها له بعض الناس بعد وفاته فعرفوا بالزيديّة لتلک المقالة.

و الزيديّة فرق يجمعها القول: بأن الامامة فى أولاد فاطمة عليها السّلام و لم يجوّزوا ثبوت إمامة فى غيرهم، إلّا أنهم جوّزوا أن يكون كلّ فاطمىّ عالم زاهد شجاع سخىّ خرج بالسيف إماما واجب الطّاعة سواء كان من أولاد الحسن عليه السّلام أو من أولاد الحسين عليه السّلام، و من ثم قالت طائفة منهم بإمامة محمّد و إبراهيم ابنى عبد اللّه بن الحسن بن الحسن عليه السّلام «۱» أحسب أن اشتراط الامامة فى بنى فاطمة إنما كان منهم فيمن يكون إماما بعد زيد، لأن بعض الفرق منهم رأت ثبوت الامامة للشيخين كما ستعرف.

البتريّة:

فمن فرق الزيديّة (البتريّة) و هم أصحاب كثير النواء، و الحسن بن صالح بن حى، و سالم بن أبى حفصة، و الحكم بن عيينة، و سلمة بن كهيل، و أبى المقدام ثابت الحدّاد، و هم الذين دعوا إلى ولاية على عليه السّلام ثم خلطوها بولاية أبى بكر و عمر و أثبتوا لهما الامامة، و طعنوا فى عثمان و طلحة و الزبير و عائشة. و قيل: سمّوا بالبتريّة لأن زيد بن على قال لهم عند ما أخذوا يذكرون معتقداتهم: بترتم أمرنا بتركم اللّه، و قيل: سمّوا بذلک لأنّهم منسوبون إلى كثير النواء و كان أبتر اليد «۲».

و لو صحّت هذه النسبة لكان الأصح فيها أن يقال- الأبتريّة- لا البتريّة.

---

(۱) الملل و النحل المطبوع فى هامش الفصل: ۱/ ۱۵۹.

(۲) منهج المقال للشيخ أبى على الحائرى فى الألقاب.

السليمانيّة:

و منهم (السليمانيّة) نسبة إلى سليمان بن جرير، و كانوا يرون إمامة الشيخين، و لكن يطعنون فى عثمان و طلحة و الزبير و عائشة، و ينسبونهم إلى الكفر، و يرون أن الامامة شورى، و تنعقد بعقد رجلين من خيار الأمّة، و أجازوا إمامة المفضول مع وجود الأفضل و زعموا أن الأمّة تركت الأصلح فى البيعة لما بايعوا أبا بكر و عمر، و تركوا عليّا عليه السّلام لأن عليّا كان أولى بالامامة منهما، إلّا أن الخطأ فى بيعتهما لا يوجب كفرا و لا فسقا «۱».

و من هاهنا نستظهر أن ما ينسب إلى الزيديّة من الدعوى بأن الامامة لا تثبت فى غير أولاد فاطمة إنما هو فيمن بعد زيد من القائمين بالسيف.

كما انّنا لا نعرف وجها فى عدّ هاتين الفرقتين فى عداد فرق الشيعة.

الجارودية:

و منهم (الجارودية) نسبة إلى زياد بن المنذر أبى الجارود السرحوب الأعمى الكوفى، و قد يسمّون السرحوبيّة، و قيل: إن السرحوب اسم شيطان أعمى يسكن البحر فسمّى أبو الجارود به، و كان أبو الجارود من أصحاب الباقر و الصادق عليهما السّلام، و لمّا خرج زيد تغيّر، و جاء عن الصادق عليه السّلام لعنه و تكذيبه و تكفيره و معه كثير النواء و سالم بن أبى حفصة و جاء فيه أيضا أعمى البصر أعمى القلب «۲».

و الجارودية يرون أن الناس قصّروا فى طلب معرفة الامام لأنه كان

---

(۱) الفرق بين الفرق: ص ۲۳، و الملل على الفصل: ۱/ ۱۶۴.

(۲) انظر ترجمته فى كتب الرجال.

بإمكانهم معرفته، بل كفروا حين بايعوا أبا بكر، فهم لا يرون إمامة الخلفاء الثلاثة، بل يرون كفرهم، حيث ادّعوا الامامة و لم يبايعوا عليّا عليه السّلام. «۱»

الصالحيّة:

و قيل: إن منهم (الصالحيّة) نسبة إلى الحسن بن صالح، و قد عرفت انّهم من البتريّة، لأن الحسن هذا من رجال البتريّة، فلا وجه لعدّهم فرقة مستقلّة، نعم هناک فروق طفيفة بينه و بين كثير النواء أوّل رجال البتريّة لا تستدعى أن تكون فرقته فرقة تباين البتريّة.

و قد ذكر الزيديّة النوبختى فى كتابه- فرق الشيعة- على غير هذا النهج، و زاد فيها: غير أننا رأينا أن ما سطّرناه أقرب إلى ما ذكرته كتب الملل و النحل، فراجع إن طلبت الاستيضاح.

الإسماعيليّة:

و من فرق الشيعة (الإسماعيليّة) و قد نشأ القول بإمامة إسماعيل أيّام الصادق عليه السّلام، إلّا أنه كان من بعضهم على سبيل الظنّ لأن الامامة فى الاكبر و إسماعيل اكبر اخوته، مع ما كان عليه من الفضل، فلمّا مات أيّام أبيه انكشف لهم الخطأ.

و أما من بقى مصرّا على إمامته فهم على فرق، لأنّهم بين من أنكر موته فى حياة أبيه عليه السّلام، و قالوا: كان ذلک على وجه التلبيس من أبيه على الناس، لأنه خاف عليه فغيّبه عنهم، و زعموا أن إسماعيل لا يموت حتّى يملک

---

(١) الفرق بين الفرق: ص ٢٢، و الملل على هامش الفصل: ١/ ١۶٣.

الأرض و يقوم بأمر الناس، و أنه هو القائم، لأن أباه أشار إليه بالامامة بعده، فلمّا ظهر موته علمنا أنه قد صدق، و أنه القائم لم يمت.

و بين من قال بموته و أن الامامة انتقلت الى ابنه محمّد، لأن الامامة لا تكون إلّا فى الأعقاب، و لا تكون فى الاخوة إلّا فى الحسن و الحسين عليهما السّلام فلما مات إسماعيل وجب أن يكون الامام بعد جعفر عليه السّلام محمد بن إسماعيل، و لا يجوز أن يكون أحد من اخوة إسماعيل هو الامام، كما لم يكن لمحمّد بن الحنفيّة حقّ مع على بن الحسين عليهما السّلام، و أصحاب هذا القول يسمّون «المباركة» برئيس لهم يسمّى المبارک.

و أمّا (الخطّابيّة) أصحاب أبى الخطّاب محمّد بن أبى زينب الأسدى الأجدع فقد دخلوا فى الفرقة التى قالت بإمامة محمّد بن إسماعيل بعد قتل أبى الخطّاب، و هم من الأصناف الغالية، و تشعّبوا على فرق و القرامطة منهم «١».

و كان أبو الخطّاب من أصحاب الصادق عليه السّلام، و لمّا بلغ الصادق أنه يكذب عليه طرده و تبرّأ منه و لعنه.

ثمّ أنه ادّعى النبوّة و اولوهيّة جعفر بن محمّد عليهما السّلام، و أنه مرسل من قبله، و ظهرت منه و من جماعته بدع و أهواء و إباحات، و لمّا بلغ عيسى بن موسى عامل المنصور على الكوفة ما عليه أبو الخطّاب و جماعته و كانوا سبعين رجلا مجتمعين

فى مسجد الكوفة حاربهم فقتلهم جميعا، فلم يفلت منهم إلّا رجل واحد أصابته جراحات فعدّ فى القتلى فتخلّص، و حمل أبو الخطّاب أسيرا فقتله عيسى ابن موسى على شاطئ الفرات، و صلبه مع جماعة منهم ثم أمر بإحراقهم فأحرقوا، و بعث برءوسهم إلى المنصور فصلبها على باب مدينة بغداد ثلاثة أيام، ثمّ

---

(١) فرق الشيعة: ص ۶۷، ۷۶.

أحرقت «١».

الإماميّة:

و من فرق الشيعة (الإماميّة) و يعرفون بالجعفريّة نسبة إلى جعفر بن محمّد عليهما السّلام، لأنه المذهب الذى ينسبون إليه، و سيأتى أنه كيف صار مذهبا دون سائر الأئمة و كلّهم مذهب فى الأحكام.

و الإماميّة هم الذين يرون الامامة فى الاثنى عشر: على، و الحسن و الحسين، و على بن الحسين، و محمّد بن على، و جعفر بن محمّد، و موسى بن جعفر، و على ابن موسى، و محمّد بن على، و على بن محمّد، و الحسن بن على، و ابنه المهدى المغيب الذى يترقّبون ظهوره كلّ حين صلوات اللّه عليهم أجمعين.

و يعتقدون أن إمامتهم بالنصّ الصريح الجلى من النبى صلّى اللّه عليه و آله عن اللّه عزّ شأنه، و أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله نصّ على خلافة على أمير المؤمنين و إمامته كما نصّ على اخوّته و وصايته، و كان النصّ منه فى مواطن عديدة، منها يوم الغدير، كما أنه صلّى اللّه عليه و آله أخبر بأسماء الخلفاء و الأئمة الذين هم بعد أمير المؤمنين عليه السّلام واحدا بعد آخر، على نحو ما ذكرناه من أسمائهم، و أكّدوا ذلك النصّ من بعضهم على بعض، فنصّ على على الحسن، و الحسن على الحسين، و الحسين على ابنه على، و هكذا الأب على ابنه إلى أن انتهت إلى ابن الحسن المنتظر، كما أنهم يعتقدون حياته و وجوده بعد ولادته عام ۲۵۵، ليلة النصف من شعبان، و أنه تغيب فرقا من فراعنة عصره، و أنه هو المهدى الذى يملأ الأرض قسطا و عدلا بعد ما ملئت ظلما و جورا. «٢»

---

(١) فرق الشيعة: ص ۶۹.

(٢) ذكر كثير من أهل السنّة الامام المهدى و أنه ابن الحسن العسكرى و اعترفوا بوجوده و أنه الموعود

و يعتقدون أيضا فى هؤلاء الأئمة أنهم معصومون عن الذنب و عن الخطأ و النسيان و الغفلة كما فى نبيّنا و جميع الأنبياء عليهم السلام و أن علمهم ليس باكتسابى و إنما هو إلهامى و وارثة من النبى صلّى اللّه عليه و آله يورثه الأب لابنه و الأخ لأخيه كما فى الحسن للحسين، و لمّا كان الرسول صلّى اللّه عليه و آله وارث علم الأنبياء و المرسلين، و عنده علم الأوّلين و الآخرين، كان أمير المؤمنين واجدا لهذا العلم كلّه، لقوله صلّى اللّه عليه و آله: أنا مدينة العلم و علىّ بابها، و لغير ذلک من الأحاديث و آى الكتاب «١» و ورث أولاده الأئمة هذا العلم جميعه.

و يعتقدون فيهم أيضا أنهم عبيد للّه سبحانه مخلوقون له، مرزوقون منه ليس لهم تصرّف فى شىء من أمر العباد من حياة أو موت، و عطاء أو منع و شىء سوى ذلک، إلّا باذن منه تعالى على حدّ ما كان عليه النبىّ صلّى اللّه عليه و آله فى شأن الخليقة، و قد جاء فى الكتاب عن عيسى عليه السّلام «و يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن اللّه».

و استدلّوا على ذلک كلّه بالبراهين العقليّة، و بالأخبار و الآثار، و قد يأتى شىء من هذا طىّ هذا السفر.

كما استدلّوا على النصّ عليهم بالخصوص، بالوارد عن النبى صلّى اللّه عليه و آله من طرق الفريقين من قوله صلّى اللّه عليه و آله: الأئمة من قريش و انهم

به، انظر مطالب السؤل، و الحجّة لابن عرب، و لواقح الأنوار، و التذكرة، و شرح الدائرة، و الفصول المهمّة، و فرائد السمطين، الى غيرها، بل ادّعى بعضهم مشاهدته و الاجتماع به.

(١) كتبت رسالة عن حديث الثقلين و دلالته على عصمة الأئمة و علمهم بكلّ شىء، و قد أخرجتها المطابع، و رسالة فى علم الامام و كيفيّته و عسى أن نتوفّق لطبعها.

اثنى عشر «١» و انهم من ولد علىّ و فاطمة عليهما السّلام، و تسميتهم بأسمائهم واحدا بعد آخر. «٢»

هذا فضلا عن الاستدلال على الامامة باللطف، و انحصارها فيهم لو كان ثمّة إمام تجب إمامته و طاعته و معرفته.

و الاماميّة ترجع إلى هؤلاء الأئمّة فى أحكام الدين، فما ثبت عن النبىّ أو عنهم أخذوا به، و ما اختلفت فيه الأخبار أعملوا فيه قواعد التعادل و التراجيح، حسبما هو مقرّر عندهم فى أصول الفقه.

و عندهم من الأدلّة على الأحكام غير الكتاب و السنّة الاجماع و حكم العقل القطعى، و عند فقدان الأدلّة الأربعة يرجعون إلى الأصول العملية، حسبما تقتضيه المقامات و هى قواعد فقهيّة عامّة تثبت بالأدلّة.

و يرون أن الأحاديث المرويّة عنهم من السنّة، لأنهم حملة علم النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و حفّاظ شريعته، فما عندهم فهو عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله لا عن اجتهاد و رأى منهم، و السنّة أحد الأدلّة الأربعة فى استنباط الأحكام الفرعيّة، و الأدلّة الأربعة كما أشرنا إليها: الكتاب، و السنّة، و الإجماع، و العقل، و البيان عن حجّيّتها و كيفيّة الرجوع إليها مذكور فى كتب أصول الفقه.

و أمّا اعتقادهم فى اللّه تعالى شأنه، فهو أنّه سبحانه شىء لا كالأشياء ليس بجسم و لا صورة، و لا تقع عليه الرؤية فى الدنيا و لا الآخرة، لا تدركه الأبصار و هو يدرک الأبصار، و أن صفاته عين ذاته، و أنّه تعالى عادل لا يظلم أحدا من عبادة لقبح الظلم بحكم العقل، و أنّه خلق الأشياء لا من شىء.

---

(١) مسلم من صحيح جابر، و مسند أحمد: ٥/ ٨٩ و ٢/ ٢٩ و ١٢٨، و الصواعق: الفصل الثالث من الباب الأول، و السيوطى فى تاريخ الخلفاء ص ٥، إلى غيرهم.

(٢) ينابيع المودّة: ص ۴۲۷ و ۴۳۰ و ۴۴۲، و كفاية الأثر، و المقتضب و الكنز و غيرها.

و أمّا اعتقادهم فى نبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه و آله فهو أنّه معصوم من الخطأ و الزلل و النسيان و الغفلة و الذنوب الكبائر و الصغائر، و أنّه ما ارتكب شيئا منها قبل النبوّة و لا بعدها، و أنه مرسل إلى العالم كلّه و هكذا اعتقادهم فى الرسل و الأنبياء من جهة العصمة.

و يرون أن الامامة من الاصول و يجب إثباتها بالأدلّة العقليّة عدا النصوص النقليّة، و من البراهين العقليّة قاعدة اللطف.

و أمّا المعاد فيعتقدون فيه أن اللّه جلّ اسمه يعيد الناس للحساب بتلک الأجسام التى كانت فى الدنيا، و هى التى تنعّم فى الجنان، أو تعذّب فى النيران.

و أمّا أفعال العباد فيعتقدون أنها أمر بين أمرين لا جبر و لا تفويض أى أنّ اللّه تعالى لم يجبر الخلق على أفعالهم حتى يكون قد ظلمهم فى عقابهم على المعاصى، بل لهم القدرة و الاختيار فيما يفعلون، و لا فوّض اللّه إليهم خلق أفعالهم حتى يكون قد خرج من سلطان قدرته على عباده، بل له الحكم و الأمر و هو قادر على كلّ شىء و محيط بالعباد.

و ربّما يهيّىء اللّه تعالى للعبد أسباب الطاعة و الهداية، كما يصدّ عنه أسباب العصيان و الضلالة، لطفا منه بعبده، و هذا ما نسمّيه بالتوفيق.

و هذا بعض ما تعتقده الاماميّة فى الوجود و الوحدانيّة، و الصفات، و فى النبوّة و الامامة و المعاد، و فى أفعال العباد.

و ذكرنا لذلک كان استطرادا على سبيل الايجاز، و استيفاء الكلام على هذه المعتقدات فى كتب الكلام و الاعتقاد.

و الإماميّة اليوم هم السواد الأعظم من الشيعة فى جميع الأقطار الاسلاميّة و كتبهم فى العلوم كافّة من أوّل يوم ابتدأ فيه التأليف حتّى اليوم مبثوثة بين

ص: ۵۸

الامم يقرأها الحاضر و البادى، و العالم و الجاهل.

و ليس اليوم غير الاماميّة، و الزيديّة، و الاسماعيليّة، فرقة ظاهرة تعرف اللّهمّ سوى بعض الفرق الغالية التى تنتمى إلى التشيّع.

و لمّا كان كلامنا عن الفرق التى كانت فى عهد الصادق عليه السّلام أهملنا عن بعض الفرق التى حدثت بعد الصادق عليه السّلام أمثال الفطحيّة و الناووسيّة و الواقفيّة.

۴- الخوارج:

ظهرت هذه الفرقة يوم صفّين بخدعة ابن العاص، حين أشار على معاوية- و قد عجز عن المناهضة- برفع المصاحف، و الدعوة لتحكيمها، فلمّا رفعوها مرقت طائفة من أصحاب أمير المؤمنين عليه السّلام و قالوا هؤلاء يدعوننا إلى كتاب اللّه و أنت تدعوننا إلى السيف، فعذلهم عن ذلک، و حاول رجوعهم عن الاغترار بهذه الخدعة، و قال لهم و يحكم أنا أعلم بكتاب اللّه، فلم ينفع معهم عذل و ردع، و لا إقامة حجّة و برهان، بل قالوا لترجعن مالكا عن قتال المسلمين، أو لنفعلنّ بک كما فعلنا بعثمان، فاضطر إلى ارجاع مالک بعد أن هزم الجمع و ولّوا الدبر، فحملوه على التحكيم، فأراد أن يبعث عبد اللّه بن عباس فأبوا إلّا أن يبعث أبا موسى الأشعرى، فلمّا كان التحكيم قالت الخوارج: لم حكمت فى دين اللّه الرجال؟ لا حكم إلّا للّه، فمن هنا سمّوا (المحكّمة) و بعد أن رجع أمير المؤمنين من صفّين و هم مصرّون على المروق و العصيان اجتمعوا بحروراء قرب الكوفة فسمّوا (الحروريّة).

و كان آخر أمرهم أن قتل أمير المؤمنين بالنهروان من أصرّ منهم على المروق، بعد أن أقام عليهم الحجج، و قطع المعاذير، و بعد أن عاثوا فى الأرض فسادا،

ص: ۵۹

و قتلوا خبابا أحد خيار الصحابة، و بقروا بطون الحبالى.

و لم يستأصل تلک الروح استئصالهم بالنهروان، و ما زال فى كلّ عصر و زمن قوم على ذلک الرأى و المروق، و قد أزعجوا الملوک و الولاة فى تلكم الأعصر، و كلّما فنى قوم منهم نبغ آخرون، و كانت الناس منهم على رهبة و وجل لما يلاقونه منهم من الفتک الذريع و العمل الفظيع، و القسوة و انتهاک الحرمة، و كانوا يحاربون الملوک و الولاة عن عقيدة و اطمئنان، فمن ثمّ تجدهم يستبسلون و يحاربون بشجاعة و رباطة جأش، فلا تقف الناس لهم و إن كانوا أضعافهم، إذ لا يحملون عقيدة يناهضون

بها تلک العقیدة، و لکنهم إذا عرفوا من أنفسهم الضعف قوّضوا لیلا و بعدوا شاحطین، و من ذاک لا تسلم بلدة من وبالهم و سوء أعمالهم.

و کان لهم ظاهر نسک و عبادة، و ما زالوا یستمیلون الهمج الرعاع بتلک المظاهر الصالحة، و دعوی الخروج علی سلطان الباطل، و الدعوة للعمل بالکتاب و السنّة، و إن ناقضوا تلک المظاهر و الدعایة بشدة الوطأة و العیث فسادا، إلّا أن السذّج من الناس ربما انخذعوا بظاهرة النسک و الصلاح، و قد خدعوا بهاتیک الظواهر الجمیلة بعض أهل الکتاب و من لا یعتقد صحّة دین الاسلام، فضمّوهم إلیهم، و کاثروا بهم.

و قد ضعفت بعد ذلک شوکتهم، و هدرت شقاشقهم، و استراح الناس منهم برهة من الزمن، و لکن ظهر لهم شأن أیّام الصادق علیه السّلام فإنّ أحد رؤسائهم عبد اللّه بن یحیی الکندی- الملقّب بطالب الحق- نهض فی حضرموت بعد ما استشار الأباضیّة فی البصرة و أوجبوا علیه النهوض، و شخّص إلیه منهم أبو حمزة المختار بن عوف الأزدی و بلخ بن عقبة المسعودی فی رجال من الأباضیّة، و قد بایعه ألفان و بهم ظهر، و لمّا کثر جمعه توجّه إلی صنعاء و کتب

ص: ۶۰

بذلک إلی من بها من الخوارج، فجرت بینه و بین عاملها حروب انتصر فیها عبد اللّه و استولی علی خزائن الأموال، ثم استولی علی الیمن، فلمّا کان وقت الحجّ وجّه أبا حمزة و بلخا و أبرهة بن الصباح إلی مکّة و الأمیر علیهم أبو حمزة فی ألف، و أمره أن یقیم بمکّة إذا صدر النّاس، و یوجّه بلخا إلی الشام، فدخلوا مکّة یوم الترویة و علیها و علی المدینة عبد الواحد بن سلیمان بن عبد الملک فی خلافة مروان الحمار، فکره عبد الواحد قتالهم و فزع الناس منهم فراسلهم عبد الواحد فی ألّا یعطّلوا علی النّاس حجّهم، و أنهم جمیعا آمنون بعضهم من بعض حتّی ینفر الناس النفر الأخیر، فلمّا کان النفر الأخیر نفر عبد الواحد و ترک مکّة لأبی ..

حمزة من غیر قتال، و لمّا دخل عبد الواحد المدینة جهّز له جیشا منها فالتقوا بقدید فکانت الدبرة علی جیش المدینة و النصرة للشراة، فبلغ قتلی أهل المدینة ألفین و مائتین و ثلاثین رجلا ثم دخل بلخ المدینة بغیر حرب، و رحل عبد الواحد إلی الشام فجهّز مروان لهم جیشا عدده أربعة آلاف فی فرسان عسکره و وجوههم، و معهم العدّة الوافرة، و علیه عبد الملک بن عطیة السعدی، فلمّا بلغ الشراة توجّه جند الشام إلیهم خفوا إلیه فی ستمائة و علیهم بلخ بن عقبة المسعودی فالتقوا بوادی القری لأیام خلت من جمادی الاولی سنة ثلاثین و مائة فتواقفوا ثمّ کانت الدبرة علی الخوارج فقتل بلخ و الشراة و لم یبق منهم إلّا ثلاثون، فهربوا إلی المدینة، و کان علی المدینة المفضل الأزدی، فدعا عمر بن عبد الرحمن بن زید بن الخطّاب الناس الحرب الشراة بالمدینة فلم یجبه أحد، و اجتمع علیه البربر و الزنوج و أهل السوق، فقاتل بهم الشراة فقتل المفضل و عامّة أصحابه و هرب الباقون، فأقبل ابن عطیّة إلی المدینة و أقام بها شهرا، و أبو حمزة بمکّة، ثمّ توجّه إلیه إلی مکّة فوقعت بینهما حرب شعواء قتلت فیها الشراة قتلا ذریعا و قتل أبو حمزة و أبرهة بن الصباح و أسر منهم أربعمائة ثم قتلوا کلّهم، و صلب ابن عطیّة

ص: ۶۱

أبا حمزة و أبرهة و على بن الحصين على شعب الخيف، إلى أن أفضى الأمر إلى العبّاسيّين فأنزلوا أيام السفاح، ثمّ أن ابن عطيّة خرج الى الطائف و قد بلغ عبد اللّه بن يحيى طالب الحقّ و هو بصنعاء ما آل إليه أمر أبى حمزة و جماعته فتوجّه الى حرب ابن عطيّة، فشخّص ابن عطيّة إليه، و لمّا التقوا قتل من الفريقين جمع كبير، و ترجّل عبد اللّه فى ألف مقاتل، فقاتلوا حتّى قتلوا كلّهم و قتل عبد اللّه، و بعث ابن عطيّة رأسه الى مروان، ثمّ أقام ابن عطيّة بحضر موت بعد ظفره بالخوارج، فأتاه كتاب مروان بالتعجيل الى مكّة ليحجّ بالناس، فشخّص الى مكّة متعجّلا مخفّفا فى تسعة عشر فارسا، فندم مروان و قال: قتلت ابن عطيّة سوف يخرج متعجّلا مخفّفا من اليمن ليدرک الحجّ فيقتله الخوارج، فكان كما قال، فإنه صادفه جماعة متلفّقة من الخوارج و غيرهم فعرفه الخوارج فحملوا عليه و قتلوه «١».

ثمّ لم يكن الخروج بعد هذا إلّا عقيدة و رأيا من دون أن يكون لهم شأن فى محاربة الملوک، و ما زال حتّى اليوم منهم أناس على ذلک المروق، و منهم قوم فى عمان، و لكن لا شأن لهم يرعى و لا سطوة تهاب.

و الخوارج هم المارقون الذين أنبأ النبى صلّى اللّه عليه و آله أمير المؤمنين عليه السّلام بأنه سيحاربهم و يظفر بهم.

و كانوا فرقا كثيرة يجمعها القول بتكفير على و عثمان و الحكمين و أصحاب الجمل و كلّ من رضى بتحكيم الحكمين، و تكفير مرتكبى الذنوب، و وجوب الخروج على الامام الجائر، كما حكاه فى (الفرق بين الفرق) عن الكعبى ص ٥٥.

---

(١) انظر شرح النّهج: ١/ ٤٥٥- ٤٦٣ تجد تفصيل ما أوجزناه.

لكن حكى عن أبى الحسن الأشعرى إنكار إجماعهم على تكفير مرتكبى الذنوب، و نقل عنهم تفصيلا فى ذلک، و انتهوا فى التفريع على هذا الأصل إلى فرق كثيرة، و لكن أخنى عليها الدهر، و الموجودون اليوم منهم فى عمان من الأباضيّة، على ما يظهر منهم و يسمع عنهم.

الغلاة و من خرج عن الاسلام ببعض العقائد:

قد ذكرنا فى بدء هذا الفصل أن اصول الفرق الاسلاميّة أربعة، و منها تتفرّع الفرق جميعا، و أن فرق الغلاة من فروع تلک الاصول، فلا تجد أصلا إلّا و له بعض الفروع الغالية.

و هكذا الشأن فيمن ينتحل شيئا كالتناسخ و الحلول و التشبيه أو غير ذلک ممّا يرجع الى الكفر عند فرق المسلمين، و لكن التهجّم عليهم بالكفر لما ينسب إليهم من الاعتقاد ليس بالأمر السهل، فإن تكفير من يعترف بالشهادتين لا ينبغى أن يقدم عليه من له حريجة فى الدين، دون أن يعتمد على ركن وثيق و ما دمنا فى فسحة من ذلک فلا نلج هذا الباب، و لا نلقى بأنفسنا من شاهق ثمّ نفحص عن سلّم النجاة، و لا سيّما أن تلک الفرق التى رميت بالخروج عن ربقة الاسلام الصحيح بانتحالها بعض العقائد الباطلة قد أصبحت فى خبر كان، و لم يبق منها إلّا شواذ لا مقام لهم يلحظ بين أبناء الاسلام، و لا يخاف من تسرّب

معتقداتهم الفاسدة بل أصبحوا يتكتّمون فيما يعتقدون حذرا من سطوة بنى الدين فى الحجج و البراهين و إبطال ما يدينون به أو نبزهم بالكفر و المروق عن الاسلام.

و الحذر من سراية ذلک الداء الى أرباب الجهل أهمّ ما كان لدى الأوائل ممّن قاوم تلک البدع و الضلالات بكلّ ذريعة، و نحن اليوم فى أمان من الانخداع

ص: ۶۳

بضلالات فرقهم الحاضرة، فكيف ببدع هاتيک الفرق البائدة التى أصبحت دائرة العين و الأثر.

شبه الإلحاد:

إنما الحذر اليوم من سراية شبه الإلحاد، و شكوک عبدة الدهر و أبناء الطبيعة الذين تسول لهم أنفسهم التخلّص من قيود الدين بكلّ وسيلة، تلک القيود التى تجعل الانسان فى صفوف الملائكة و الروحيّين، و تخرجه عن الوحشيّة الكاسرة، و الشهوات الفاتكة، كما تجعله فى أمان من اعتداء أحد على أثمن ما يجده فى هذه الحياة: النفس و العرض و المال، كما تجعل الناس فى أمان منه على نفائسهم تلک، و تلک الحرّية التى ينشدونها، و التى خرجوا بها عن ربقة أهل العقول و العفاف الى أسراب الوحوش و أرباب الخلاعة و الدعارة هى التى خدعت بعض الشباب، و جعلته يقع فى تلک الفخاخ، و تصيده هاتيک الشباک، و الشباب سريع الانجذاب الى الشهوات و نزع القيود المزعومة، من دون أن يرجع الى رشده و يحكّم قبل الانخداع عقله.

***

ص: ۶۴

الإمامة

إن المسلمين على مذاهب فى الإمامة بعد أن أجمعوا على وجوبها، باعتبار أنّ الإمام هو الجامع لشتاتها، و الهادى لضلالها، و الناهض بها لنشر أعلام الشريعة، و بثّ روح تعاليمها الحيّة.

و من سياسة صاحب الشريعة و بدائع حكمة أمره بمعرفة الإمام، حتّى أنه جعل «من مات و لم يعرف إمام زمانه ميتا على الجاهلية» «۱»، كأن لم يدخل فى ربقة الاسلام.

فهذا الفرض لو عمل به المسلمون، و قاموا بما يحتّمه الواجب من معرفته و الاستماع لقوله بعد الوصول إليه لأصبحوا جيشا واحدا و قائدهم الإمام، فلا يبقى عند ذاک امرؤ مسلم يجعل أحكام الدين، أو يعلمها و لا يعمل بها، و لا يبقى بلد فى العالم لا تخفق عليه بنود الاسلام.

كانت الخلافة و الإمامة ميدانا للسباق، لا يقبض على ناصيتها إلّا من حاز قصب السبق، و لو بالدماء المراقة، و الحرمات المنتهكة، بل حتّى لو كان الخليفة نفسه بعد استلامه زمام الحكم ما جنا خليعا لا يبالى بما فعل.

---

(١) هكذا الحديث فى أصل الكتاب و لم نعثر عليه فى الكتب الموجودة، و الذى عثرنا عليه هو هذا النص «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية» كنز العمال: ١/ ١٠٣.

غير أن الشيعة الإمامية كانت من العهد الأوّل لا تقيم وزنا لمثل هذه الخلافة و لا تعترف بمثل هذه الإمامة، بل ترى أن الخليفة و الإمام من كان جامعا لصفات الكمال كلّها، عاريا عن خصال النقص جميعا، عاملا بأوامر الشريعة فى السرّ و العلن آمرا بها، مرتدعا عن نواهيها فيما ظهر و بطن ناهيا عنها، منصوصا عليه من صاحب الشريعة، أو من الإمام قبله أمرا من اللّه سبحانه، لأنه تعالى أنظر لعباده، و أبصر بمن يصلح لهذا المنصب الخطير.

و لا ترى الإمام من قام بالناس بل الإمام من قامت الدلالة عليه، و دلّت الاشارة إليه، و إن قعد الناس عن اتباعه، بل و إن قاموا فى وجهه صدّا له عن أدائه فروض إمامته و واجبات زعامته.

و إن قعودهم عن طاعته أو قيامهم فى معارضته لا تخدش فى كفايته للنهوض بأعباء الإمامة، بل حظّهم أخطئوه و سبيل هدى أضاعوه.

فالإمام- على ما تراه الإماميّة- هو الحامل لأعباء الإمامة قام أو قعد، نطق أو سكت، تقدّم للسباق أو تأخّر، لأن إمامته ليست باللباس المستعار يلبسه إن استلبه من غيره، و يتعرّى عنه إن استلبوه منه.

و لمّا كان الإمام هو الحجّة البالغة، وجب عليه إعلام الناس بإمامته و إقامة الأدلّة عليها عند الحاجة الماسّة، كما وجب على الامّة معرفته و طاعته إذا عرفوه.

و أما إقامته الدلالة على إمامته فبالتصريح مرّة و بالتلويح اخرى، و كفى فى الدلالة أن يدلى بالكرامات و المعجزات، و يبدى من العلم ما يعجز الناس عن الحصول على مثله، إلّا أن تحجز السيوف دون بيانه، و لكن أعماله و سجاياه ناطقة بمقامه و إن صمت لسانه.

و الإمامة من الأبحاث التى ما زالت موضع الجدل و الخصام بين المسلمين من

يوم مضى صاحب الدعوة الاسلاميّة، قلما و لسانا، و سيفا و سنانا، و إنما تبتنى اسسها اليوم على أنقاض الماضى، و هى اليوم و غدا كما كانت أمس الفارق بين الفرق، مع وحدتهم فى النبى و الكتاب و القبلة، و فى الفرق اليوم و أمس من ذوى العقول الراجحة و الآراء السديدة رجال بإمكانها أن يجمعوها تحت لواء واحد، كاشفين لهم الستار عمّا حدا بالامامة إلى التخالف و التنابز، و يعرّفوها فوائد الالفة، و ينذروها سوء الفرقة، و يلمسوها ما أنزله ذلک الخصام بالاسلام من الويلات و التدمير و الشتات.

و لمّا كانت الامامة هى المفترق للطرق، وجب أن يكون عندها اجتماع ذلک الافتراق، فلو عرف الناس اليوم حقيقة الامامة و من الامام، لأوشک أن يهبّ و لو بعضهم إلى وحدة عندها مجتمع الفرق، و لمّ الشتات، فى هذه الساعة العصيبة التى سادت فيها الفوضويّة و انشقاق الكلمة.

و إنّى لأحاول أن أرمز إلى بعض ما يجب فى الامام، و إن ذهبت كلمتى أدراج الرياح، لا تسترعى انتباه غافل، و لا هبة يقظان، و لا يغيظنى ذلک ما دام القصد صحيحا و الغاية غالية، و هى طلب مراضيه سبحانه.

أقول: إن النظام الذى جاء به خاتم الأنبياء صلّى اللّه عليه و آله نظام عامّ يجمع بين السيرتين، سيرة المرء مع الخالق، و سيرته مع المخلوق، و إنّ من جاء بهذا النظام وجب أن يكون قديرا على تطبيقه و تنفيذه حتّى لو ثنيت له الوسادة، فانبسطت دعوته على المعمورة جمعاء، و خيّمت شريعته على العالم كلّه، فالنبى عند تطبيق شريعته و تنفيذها يكون ذا سلطتين زمنيّة و روحيّة، و لمّا دعاه اللّه إليه، انتبهت الامّة إلى الضرورة التى دعته إلى عقد الامامة فى حياته، فرأوا أن القيام بوظائف صاحب الدعوة حتميّ و لا يقوم بها إلّا إمام تكون له الزعامة العامّة على الامّة الاسلاميّة كلّها و تكون له السلطتان اللتان كانتا للرسول

الأمين صلّى اللّه عليه و آله و إلّا بقى ذلک النظام الكافل للسعادتين بلا تنفيذ، فلا تتمّ الفوائد من تلک الجهود التى قاساها صاحب الرسالة.

فلمّا كانت الامامة على الامّة واجبة بحكم الضرورة، فمن الأليق بتلک الوظيفة الكبرى؟ أ ترى الأليق بها من هو كصاحب الرسالة و صورة حاكية له فى العلم و العمل، و مهدىّ فى نفسه هاد لغيره، يقوم بالحجّة فيقطع الحجج، لا يعترى برهانه و هن، و لا حجّته فلل، إن طلب الناس منه المعجز فى الفعل و القول استطاع الإتيان به من غير مطل و عناء، و إن احتيج لقطع العذر من المسترشد أو المتعنّد على المجىء بالكرامة الباهرة قوىّ عليها من دون كدّ و جهد، يعلم كلّ ما جاء به صاحب الشريعة عاملا به، يعرف القرآن تنزيله و تأويله، مرتديا بجميل الخصال لا تفرّ عنه منها واحدة، بل هو أفضل فى كلّ خصلة من الناس كافة، عاريا عن ذميم الصفات لا يرتدى منها واحدة و لو لحظة، و جملة القول أنه المثال الصادق للرسول فى جميع ملكاته و صفاته و خصاله و فعاله.

أو الأليق بها من لا يعرف هذه الخلال و لا تعرفه، أو يتقمّص ببعض و يتعرّى عن بعض، لا ريب فى أنک سوف تقول: إن الأوّل أليق و أحقّ بهذا المنصب الرفيع، و هل يقدم بصير على القول بأحقّيّة الثانى.

و لكنى أحسبک تقول: إن الشأن كلّه فى إثبات أمرين فى هذا الباب الأول وجوب نصب إمام على هاتيک السجايا و المزايا، الثانى وجوده جامعا لهذه الخلال و الخصال فى الامّة الاسلاميّة، و لو ثبت لدينا أن الامام يجب أن يجمع هذه الصفات، و أنه يوجد فى الامّة ذلک الجامع، لكان التخلّف عن القول بإمامته، لأوامره عنادا محضا لا يرتضيه ذو دين و بصيرة.

فأقول: إنى سأثبت لک هذين الأمرين، راجيا أن تكون ممّن ألقى السمع

ص: ۶۸

و هو شهيد.

أمّا الدليل على الأول فموجزه: إن النبى صلّى اللّه عليه و آله كان عليما بما صدع به، لا يجهل ما يسأل عنه، شريعته واحدة ليس فيها اختلاف، و خالدة إلى يوم البعث، حلال محمّد حلال إلى يوم القيامة و حرامه حرام إلى يوم القيامة، فلو ألقى الحبل على الغارب للامّة فى ارتياد الامام القائم بوظائفه لألفينا الامّة جاهلة بأحكام الشريعة لا تعرف الحرام من الحلال، و لا الحلال من الحرام إذ ليس لديها حكم فصل فى علم الشريعة ترجع إلى قوله، و حاكم عدل فى إمضاء الحدود تخضع لأمره، فتتشعّب لذلک إلى مذاهب و نحل، و كلّ يقوم بالحجّة على صحّة رأيه و يقيم الأدلّة على صدق عقيدته كما كان ذلک كلّه حين اختار بعض الناس من أنفسهم لأنفسهم إماما و خليفة اختاروا خلفاء لا يعلمون جميع ما جاء به الرسول صلّى اللّه عليه و آله و يجهلون كثيرا ممّا يسألون عنه، و لمّا كانوا بعد الاختيار لهم هم الحكم الفصل و الحاكم العدل، و لمّا لم يجد الناس عند هؤلاء القائمين بالأمر مطلوبهم فى الحكومة و الأحكام صار كلّ يبدى مذاهبه و آراءه، و ليس عند أحد حجّة قاهرة، و برهان نيّر يصدع به شبه تلک المذاهب، و شكوک هذه الآراء، و تعارضت النحل، و كلّ ينسب ما لديه إلى الشريعة، و ما عنده إلى الدين، فأين الحلال و الحرام اللذان لا يتبدّلان إلى الساعة الأخيرة من هذا الوجود، و أين الشريعة الواحدة الخالدة عمر الدهر، و قد أصبح فى الاسلام بعد نبيّه مشرّعون و شرائع، و أديان و مذاهب.

و لمّا كان هذا التبديل و التحريف طارئا عن اختيار الناس لمن لا يعلم جميع ما جاء فى الشريعة ليكون العالم و الحاكم فى ساعة واحدة، يقطع حجج المتأوّلين و ألسنة المتقوّلين بالبرهان مرّة و حدود الشفار اخرى فلا تخالفه الناس بعد ذاک و لا تختلف فى الآراء و الأهواء، وجب على الامّة أن تختار لها إماما

ص: ۶۹

عالما بكلّ ما جاءت به الشريعة الأحمديّة، عاملا فى تنفيذ علمه، عنده علم ما يسأل عنه ولديه الحجّة على إزالة الأوهام و الأباطيل و الجهالات و الأضاليل، لتبقى الشريعة الغرّاء على ما صدع بها الرسول صلّى اللّه عليه و آله أبد الدهر و حلاله و حرامه لا يتبدّلان مدى العمر، فلا شرائع و لا مشرّعين و لا مذاهب و لا أديان.

و لكن أين للأمّة اختيار ذلک الحاكم العالم؟ و من أين تعرفه؟ و لو عرفته فمن أين له اتفاق الكلمة عليه، و الناس مختلفو النزعات متباينو الأغراض؟

فوجب عليه تعالى أن ينصب لهم هذا الامام، و يعرّفهم بواسطة الرسول ذلک الخلف العادل، و العالم العامل، لأن اللّه سبحانه أنظر لعباده، و أدرى بمن يليق لهذا المنصب الخطير، و المقام العظيم.

فاذا كان نصب الامام واجبا عليه تعالى استحال فى العقول أن يهمل سبحانه الواجب فيما يصلح عباده، و يهدى خليقته، كما يستحيل على الرسول أن يترک التبليغ عنه تعالى بنصب هذا الامام، و لو جاز عليه ترک هذا الواجب لجاز عليه غيره.

فمتى وجب الرسول وجب الامام، و متى بعث اللّه رسولا نصب الامام، فلا رسول بلا إمام، و لا شريعة بغير تفسير و تنفيذ.

و أمّا الدليل على الثانى و هو وجود هذا الامام فالأمر فيه سهل بعد ما تقدّم، لأنا إذا اعتقدنا بوجوب نصب الامام على تلک الصفات و أنه قد نصبه اللّه تعالى لخلقه اعتقدنا أنه تعالى لا يجعله مجهول الاسم و النسب و يعسر على الامّة معرفته، و لا نعرف فى الامّة أئمة ادّعى فيهم ذلک و ادّعوها لأنفسهم غير على و بنيه عليهم السّلام، فلو لم يكونوا هم الأئمة لكانت الامامة و ذلک الوجوب لغوا.

فلم يبق إذن إلّا أن نعرف عنهم أنهم اولئک العلماء الذين لا يجهلون،

ص: ٧٠

و العدول الذين لا يجورون، أمّا العدل فلم يحكم منهم أحد غير أمير المؤمنين و شأنه لا يحتاج إلى إيضاح، و أمّا العلم فآثارهم ناطقة به فتتبع تجد صدق ما قيل و يقال و هذا الكتاب بين يديک رشحة من ذلک العلم الغمر «١».

***

(١) إن شئت المزيد فى بحث الإمامة فارجع إلى رسالتنا المطبوعة «الشيعة و الإمامة».

ص: ٧١

من هو الصادق؟

حقّا على الكاتب أن يعطى صورة إجمالية للمترجم له قبل أن يتغلغل فى أعماق الترجمة، لئلّا يكون غريبا عن القارئ عند قراءته لكلّ فصل من حياته.

و هنا رأيت أن أنقل شطرا من آراء العلماء فى كلماتهم عن الصادق جعفر عليه السّلام، لأنها تعبّر عن آراء أجيال فى هذه الشخصيّة الكريمة، و إليک شيئا منها:

فهذا الذهبى «١» فى ميزان الاعتدال (١: ١٩٢) يقول عند ذكره للامام:

«جعفر بن محمّد بن على بن الحسين الهاشمى أبو عبد اللّه أحد الأئمة الأعلام برّ صادق كبير الشأن».

و ممّا قاله النووى «۲» فى تهذيب الأسماء و اللغات (۱: ۱۴۹- ۱۵۰): «روى عنه محمّد بن إسحاق، و يحيى الأنصارى، و مالک، و السفيانان، و ابن جريح، و شعبة، و يحيى القطّان، و آخرون، و اتفقوا على إمامته و جلالته و سيادته، قال عمرو بن أبى المقدام: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمّد علمت أنه من سلالة النبيّين».

---

(۱) الحافظ المحدّث شمس الدين أبو عبد اللّه محمّد بن أحمد بن عثمان الدمشقى المولود عام ۶۷۳، و المتوفى عام ۷۴۸.

(۲) الحافظ أبو زكريا محى الدين بن شرف الدين المتوفى عام ۶۷۶.

و ابن خلكان «۱» يقول: «أحد الأئمة الاثنى عشر على مذهب الاماميّة، و كان من سادات أهل البيت، و لقّب بالصادق لصدقه فى مقالته، و فضله أشهر من أن يذكر». و قال: «و كان تلميذه أبو موسى جابر بن حيّان الصوفى الطرطوسى «۲» قد الّف كتابا يشتمل على ألف ورقة تتضمّن رسائل جعفر الصادق و هى خمسمائة رسالة، و قال: و دفن بالبقيع فى قبر فيه أبوه محمّد الباقر، و جدّه زين العابدين، و عمّ جدّه الحسن بن على عليهم السّلام، فللّه درّه من قبر ما أكرمه و أشرفه».

و الشبلنجى «۳» فى نور الأبصار ص ۱۳۱ يقول: «و مناقبه كثيرة تكاد تفوت حدّ الحاسب، و يحار فى أنواعها فهم اليقظ الكاتب» و قال: و فى حياة الحيوان الكبرى فائدة قال ابن قتيبة فى كتاب أدب الكاتب: و كتاب الجفر كتبه الامام جعفر الصادق ابن محمّد الباقر، فيه كلّ ما يحتاجون الى علمه الى يوم القيامة، و الى هذا الجفر أشار أبو العلاء بقوله:

لقد عجبوا لآل البيت لما — أتاهم علمهم فى جلد جفر

فمرآة المنجم و هى صغرى — تريه كلّ عامرة و قفر

و قال محمّد الصبّان «۴» فى كتابه إسعاف الراغبين المطبوع على هامش نور

---

(۱) أحمد بن محمّد بن إبراهيم بن أبى بكر بن خلكان ولد بمدينة اربل قرب الموصل و انتقل إلى الموصل و سافر إلى حلب و دخل الديار المصرية و ناب فى القضاء عن السخاوى، ثم ولّى القضاء بالشام عشر سنين و توفى بدمشق عام ۶۸۱، ترجم له فى طبقات الشافعيّة: ۵/ ۱۴، و فى فوات الوفيّات: ۱/ ۵۵، و السيوطى فى حسن المحاضرة: ۱/ ۲۶۷، و معجم المطبوعات: ۱/ ۹۸ و غيرها.

(۲) سوف نشير فى حياته العلميّة إلى علم الصادق عليه السّلام بالكيمياء و أخذ جابر عنه و شىء من حياة جابر.

(۳) مؤمن بن حسن مؤمن المصرى. و شبلنج قرية من قرى مصر، اشتغل فى طلب العلوم فى الجامع الأزهر ولد فى نيف و ۱۲۵۰ و لم تذكر وفاته.

(۴) محمّد بن على الصبّان الشافعى الحنفى ولد بمصر، ترجم له فى معجم المطبوعات: ۲/ ۱۱۹۴.

ص: ۷۳

الأبصار ص ۲۰۸: «و أمّا جعفر الصادق فكان إماما نبيلا. و قال: و كان مجاب الدعوة إذا سأل اللّه شيئا لا يتمّ قوله إلّا و هو بين يديه».

و الشعرانى «۱» فى لواقح الأنوار يقول: «و كان سلام اللّه عليه اذا احتاج الى شىء قال: يا ربّاه أنا أحتاج الى كذا، فما يستتمّ دعاؤه إلّا و ذلک الشىء بجنبه موضوع».

و سبط ابن الجوزى «۲» فى تذكرة خواصّ الامّة ص ۱۹۲ يقول: «قال علماء السير: قد اشتغل بالعبادة عن طلب الرئاسة» و قال: «و من مكارم أخلاقه ما ذكره الزمخشرى فى كتابه ربيع الأبرار عن الشقرانى مولى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قال: خرج العطاء أيام المنصور و مالى شفيع، فوقفت على الباب متحيّرا و إذا بجعفر بن محمّد قد أقبل فذكرت له حاجتى، فدخل و خرج و اذا بعطائى فى كمّه فناولنى إيّاه، و قال: إن الحسن من كلّ أحد حسن و أنه منک أحسن لمكانک منّا، و أن القبيح من كلّ أحد قبيح و أنه منک أقبح لمكانک منّا، و إنما قال له جعفر ذلک لأن الشقرانى كان يشرب الشراب، فمن مكارم أخلاق جعفر أنه رحّب به و قضى له حاجته مع علمه بحاله، و وعظه على وجه التعريض، و هذا من أخلاق الأنبياء».

و محمّد بن طلحة «۳» فى مطالب السؤل ص ۸۱ يقول: «و هو من عظماء أهل البيت و ساداتهم ذو علوم جمّة، و عبادة موفرة، و أوراد متواصلة، و زهادة

---

(۱) أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن على الأنصارى الشافعى المصرى المعروف بالشعرانى دخل القاهرة عام ۹۱۱ و بها توفى، ترجم له فى معجم المطبوعات: ۱/ ۱۱۲۶.

(۲) أبو مظفر شمس الدين يوسف بن قزغلى الواعظ الشهير الحنفى المولود عام ۵۸۲ أو ۵۸۱ و المتوفى عام ۶۵۴ فى ۲۱ ذى الحجّة.

(۳) كمال الدين الشافعى المتوفى عام ۶۵۴.

ص: ۷۴

بيّنة، و تلاوة كثيرة، يتبع معانى القرآن الكريم، و يستخرج من بحره جواهره، و يستنتج عجائبه، و يقسّم أوقاته على أنواع الطاعات، بحيث يحاسب عليها نفسه، رؤيته تذكّر الآخرة، و استماع حديثه يزهد فى الدنيا، و الاقتداء بهديه يورث الجنّة، نور قسماته شاهد أنه من سلالة النبوّة، و طهارة أفعاله تصدع بأنه من ذرّيّة الرسالة. و قال: و أمّا مناقبه و صفاته فتكاد تفوت عدد الحاصر، و يحار فى أنواعها فهم اليقظ الباصر، حتّى أنه من كثرة علومه المفاضة على قلبه من سجال التقوى صارت الأحكام التى لا تدرک عللها و العلوم التى تقصر الأفهام عن الاحاطة بحكمها، تضاف إليه، و تروى عنه».

و فى صواعق ابن حجر «١»: «و نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، و انتشر صيته فى جميع البلدان».

و فى ينابيع المودّة «٢» طبع اسلامبول ص ٣٨٠ «و من أئمة أهل البيت أبو عبد اللّه جعفر الصادق» و قال: «و كان من سادات أهل البيت» و قال: «و قال الشيخ أبو عبد الرحمن السالمى فى طبقات المشايخ الصوفيّة: جعفر الصادق فاق جميع أقرانه من أهل البيت، و هو ذو علم غزير، و زهد بالغ فى الدنيا، و ورع تامّ فى الشهوات، و أدب كامل فى الحكمة».

و إليک ما يقوله الحافظ أبو نعيم «٣» فى حلية الأولياء (٣: ١٩٢): «و منهم الامام الناطق و الزمام السابق، أبو عبد اللّه جعفر بن محمّد الصادق أقبل على العبادة

---

(١) المحدّث شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمى نزيل مكّة.

(٢) هى للشيخ سليمان بن إبراهيم المعروف بخواجه كلان، و كان فراغه من تأليفها تاسع شهر رمضان عام ١٢٩١.

(٣) أحمد بن عبد اللّه الاصبهانى المتوفى عام ٤٣٠.

و الخضوع، و آثر العزلة و الخشوع، و نهى «١» عن الرئاسة و الجموع» ثم روى عن عمرو بن أبى المقدام كلامه السابق، و روى عن الهياج بن بسطام «٢» قوله:

«و كان جعفر بن محمّد يطعم حتى لا يبقى لعياله شىء».

و يقول ابن الصبّاغ المالكى «٣» فى الفصول المهمّة: «كان من بين اخوته خليفة أبيه و وصيّه، و القائم بالامامة من بعده برز على جماعته بالفضل و كان أنبههم ذكرا، و أجلّهم قدرا، نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، و انتشر صيته و ذكره فى سائر البلدان»، و قال فى أخريات كلامه: «مناقب أبى عبد اللّه جعفر الصادق فاضلة، و صفاته فى الشرف كاملة، و شرفه على جهات الأيام سائلة، و أندية المجد و العزّ بمفاخره و مآثره آهلة».

و هذا السويدى «۴» فى سبائک الذهب ص ۷۲ يقول: «كان من بين اخوته خليفة أبيه و وصيّه، نقل عنه من العلوم ما لم ينقل عن غيره، و كان إماما فى الحديث» و قال: «و مناقبه كثيرة».

و فى عمدة الطالب «۵» ص ۱۸۴: «و يقال له عمود الشرف، و مناقبه متواترة بين الأنام، مشهورة بين الخاصّ و العامّ، و قصده المنصور الدوانيقى بالقتل مرارا فعصمه اللّه منه».

---

(۱) هكذا فى الأصل و فى كشف الغمّة عن الحلية «و لها» و كلّ منهما يناسب المقام.

(۲) التميمى الحنظلى الهروى رحل إلى العراق و سمع علماء عصره و دخل بغداد و حدّث بها، مات عام ۱۷۷، ترجم له الخطيب البغدادى: ۱۴/ ۸۰.

(۳) نور الدين على بن محمّد بن الصبّاغ المالكى المولود عام ۷۸۴ و المتوفى عام ۸۵۵، ترجم له السخاوى فى الضوء اللامع: ۵/ ۲۸۳ و ذكر مشايخه و كتابه الفصول المهمّة فى معرفة الأئمة و هم اثنى عشر.

(۴) محمد أمين البغدادى، و آل السويدى من البيوتات الرفيعة فى بغداد حتّى اليوم و هو من رجال القرن الماضى، و فرغ من كتابه فى شوّال عام ۱۲۲۹.

(۵) للنسّابة الشهير جمال الدين أحمد بن على الداودى الحسنى المتوفى عام ۸۲۸.

و الشهرستانى «۱» فى الملل و النحل: «و هو ذو علم غزير فى الدين و الأدب، كامل فى الحكمة، و زهد بالغ و ورع تامّ فى الشهوات، و قد أقام بالمدينة مدّة يفيد الشيعة المنتمين إليه، و يفيض على الموالين أسرار العلوم، ثم دخل العراق و أقام بها مدّة ما تعرّض للامامة قط «۲» و لا نازع أحدا فى الخلافة، و من غرق فى بحر المعرفة لم يطمع فى شط، و من تعلّى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط، و قيل من آنس باللّه توحّش عن الناس، و من استأنس بغير اللّه نهبه الوسواس».

و اليافعى «۳» فى مرآة الجنان (۱: ۳۰۴) فيمن توفى عام ۱۴۸، يقول: «و فيها توفى الامام السيد الجليل سلالة النبوّة و معدن الفتوّة، أبو عبد اللّه جعفر الصادق، و دفن بالبقيع فى قبر فيه أبوه محمّد الباقر، و جدّه زين العابدين و عمّ جده الحسن ابن على رضوان اللّه عليهم أجمعين، و أكرم بذلک القبر و ما جمع من الأشراف الكرام اولى المناقب، و إنما لقّب بالصادق لصدقه فى مقالته، و له كلام نفيس فى علوم التوحيد و غيرها، و قد الّف تلميذه جابر بن حيّان الصوفى كتابا يشتمل على ألف ورقة يتضمّن رسائله و هى خمسمائة رسالة».

و الصدوق طاب ثراه «۴» يروى فى أماليه المجلس ال ۴۲ عن سليمان بن داود

(١) أبو الفتح محمّد بن أبى القاسم كان فقيها متكلّما على مذهب الأشعرى، دخل بغداد عام ٥١٠ و أقام بها ثلاث سنين و كانت ولادته بشهرستان و بها توفى عام ٥۴٨، ترجم له فى الوفيّات و معجم الادباء و طبقات السبكى و روضات الجنّات، و مفتاح السعادة و غيرها.

(٢) يراد من الامامة هنا الامامة التى يعقدها الناس، و إلّا فهو إمام اجتمع عليه الناس أو تفرّقوا، تعرّض للأمر أو صفح.

(٣) أبو محمّد عبد اللّه بن سعد بن على بن سليمان عفيف الدين اليافعى اليمانى نزيل الحرمين المتوفى عام ٧۶٨.

(۴) محمّد بن على بن بابويه القمىّ المحدّث الجليل صاحب التآليف القيّمة الكثيرة البالغة نحوا من ٣٠٠ مؤلّف، و قد ورد بغداد عام ٣٥٢ و سمع منه شيوخ الطائفة على حداثة سنّه، و مات بالرى عام ٣٨١.

ص: ٧٧

المنقرى «١» عن حفض بن غياث «٢» انه كان إذا حدّثنا عن جعفر بن محمّد عليه السّلام قال: «حدّثنى خير الجعافرة».

و روى الصدوق أيضا فيه مسندا عن على بن غراب «٣» انه كان إذا حدّثنا عن جعفر بن محمّد قال: «حدّثنا الصادق عن اللّه، جعفر بن محمّد ...».

و روى أيضا فى ال ٣٢ مسندا عن محمّد بن زياد الأزدى «۴» قال: سمعت مالک ابن أنس «۵» يقول: أدخل الى الصادق جعفر بن محمّد عليه السّلام فيقدّم لى مخدّة، و يعرف لى قدرا، و كان لا يخلو من إحدى ثلاث خصال إمّا صائما و إما قائما و إما ذاكرا، و كان من عظماء العبّاد و اكابر الزهّاد، الذين يخشون اللّه عزّ و جلّ و كان كثير الحديث، طيّب المجالسة، كثير الفوائد، فإذا قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله اخضرّ مرّة، و اصفرّ اخرى، حتّى ينكره من يعرفه، و لقد

(١) المعروف بابن الشاذكونى و هو ممن روى عن الصادق عليه السّلام و عن رواته و كان من ثقات الرواة.

(٢) الكوفى القاضى، و سيأتى فى الثقات من مشاهير رواة الصادق عليه السّلام، و الظاهر أنه من أهل السنّة.

(٣) ابن عبد العزيز و هو ممّن روى عن الصادق عليه السّلام و استظهر بعض الرجاليين أنه من أهل السنّة إلّا أن ابن النديم فى الفهرست عدّه من مشايخ الشيعة الذين رووا الفقه عن الأئمة عليهم السلام.

(۴) هو المعروف بابن أبى عمير و قد لقى الكاظم و الرضا و الجواد عليهم السلام، حبسه الرشيد ليلى القضاء، و قيل ليدلّه على مواضع الشيعة و أصحاب الكاظم عليه السّلام، و قيل ضرب أسواطا و نالت منه فلم يقر، و قد رويت عنه كتب مائة رجل من أصحاب الصادق عليه السّلام، و له مصنّفات كثيرة، و هو ممّن لا يروى إلّا عن ثقة، و قد أجمع العصابة على قبول مراسيله، و

هو من العصابة الذين أجمعوا على تصحيح ما يصحّ عنهم، و قد اتفق الفريقان على وثاقته و علوّ منزلته، و قيل: إنما قبلوا مراسيله لأنه دفن كتبه يوم حبس فتلفت فروى ما علق منها فى ذهنه، فمن ثمّ قد ينسى الراوى و إن حفظ الرواية، مات عام ٢١٧.

(۵) المدنى أوّل المذاهب الأربعة، و هو ممّن أخذ عن الصادق عليه السّلام كما سيأتى فى أصحاب الصادق عليه السّلام، و هو مذهب أهل الحجاز و النسبة إليه مالكى.

ص: ٧٨

حججت معه سنة فلمّا استوت به راحلته عند الاحرام كان كلّما همّ بالتلبية انقطع الصوت فى حلقه، و كاد أن يخرّ عن راحلته، فقلت: يا بن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و لا بدّ لک من أن تقول، فقال: يا بن عامر كيف أجسر أن أقول لبّيک اللّهمّ لبّيک، و أخشى أن يقول عزّ و جل: لا لبّيک و لا سعديک.

و ابن شهر اشوب «١» فى كتابه المناقب فى أحوال الصادق عليه السّلام يروى عن مالک بن أنس أيضا قوله: ما رأت عين و لا سمعت اذن و لا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر الصادق فضلا و علما و عبادة و ورعا، و زاد الصدوق فى أماليه فى ال ٨١ قوله: كان و اللّه إذا قال صدق.

و قال أيضا: و ذكر أبو القاسم البغار فى مسند أبى حنيفة «٢» قال الحسن بن زياد: سمعت أبا حنيفة و قد سئل: من أفقه من رأيت؟ قال: جعفر بن محمّد، لمّا أقدمه المنصور بعث إلىّ فقال: يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمّد فهيّئ له مسائلک الشداد، فهيّأت له أربعين مسألة، ثم بعث إلىّ أبو جعفر و هو فى الحيرة فأتيته فسلّمت عليه، فأورد إلىّ المجلس فجلست ثم التفت إليه فقال: يا أبا عبد اللّه هذا أبو حنيفة، قال: نعم أعرفه، ثمّ التفت إلىّ فقال:

الق على أبى عبد اللّه من مسائلک، فجعلت القى عليه فيجيبنى فيقول: أنتم تقولون كذا، و أهل المدينة يقولون كذا، و نحن نقول كذا، فربما تابعناكم، و ربما تابعناهم، و ربما خالفنا جميعا، حتّى أتيت على الأربعين مسألة، فما أخلّ منها

---

(١) محمّد بن على المازندرانى رشيد الدين من مشايخ الطائفة و فقهائها و كان شاعرا بليغا منشأ و له مصنّفات عديدة منها: معالم العلماء، و كتاب أنساب آل أبى طالب، و كتاب مناقب آل أبى طالب، و هو الذى أشرنا إليه فى الأصل، و كثيرا ما نروى عنه فى هذا الكتاب.

(٢) النعمان بن ثابت ثانى المذاهب لأهل السنّة و هو أيضا ممّن أخذ عن الصادق عليه السّلام، و النسبة إليه حنفى، و سيأتى الكلام عليه فى أصحاب الصادق عليه السّلام.

ص: ٧٩

بشیء، ثمّ قال أبو حنیفة: أ لیس أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس.

بل ان المنصور نفسه و هو من علمت کیف یحرّق الارّم «۱» علی أبی عبد اللّه علیه السّلام قد ینطق بالحقّ، عند ذکره أو مقابلته، فیقول: هذا الشجی المعترض فی حلقی من أعلم الناس فی زمانه «۲» و یقول أخری: و إنه ممّن یرید الآخرة.

لا الدنیا «۳» و یقول تارة: إنه لیس من أهل بیت نبوّة إلّا و فیه محدّث، و إن جعفر بن محمّد محدّثنا الیوم «۴» و یقول مخاطبا للصادق علیه السّلام: لا نزال من بحرک نغترف، و إلیک نزدلف، تبصر من العمی، و تجلو بنورک الطخیاء «۵» فنحن نعوم فی سحاب قدسک، و طامی بحرک «۶»، و یقول لحاجبه الربیع: و هؤلاء من بنی فاطمة لا یجهل حقّهم إلّا جاهل لا حظّ له فی الشریعة «۷».

و یقول إسماعیل بن علی بن عبد اللّه بن العبّاس: دخلت علی أبی جعفر المنصور یوما و قد اخضلّت لحیته بالدموع، و قال لی: ما علمت ما نزل بأهلک فقلت: و ما ذاک یا أمیر المؤمنین، قال: فإنّ سیّدهم و عالمهم و بقیّة الأخیار منهم توفی، فقلت و من هو؟ قال: جعفر بن محمّد، فقلت: أعظم اللّه أجر أمیر المؤمنین و أطال لنا بقاءه، فقال لی: إن جعفرا کان ممّن قال اللّه فیه «ثمّ اورثنا الکتاب الذین اصطفینا من عبادنا» و کان ممّن اصطفی اللّه، و کان من السابقین فی

---

(۱) کرکع- الأضراس، و لتولّد الحرارة فیها من حکّ بعضها ببعض یقال یحرقها، و هو مثل یضرب لمن یبلغ به الغیظ شدّته لأن الحکّ من آثاره.

(۲) کتاب الوصیّة للمسعودی.

(۳) کشف الغمّة عن تذکرة ابن حمدون: ۲/ ۲۰۹.

(۴) الکافی: باب مولده علیه السّلام: ۱/ ۴۷۵، و بصائر الدرجات، و المناقب، و الخرائج و الجرائح.

(۵) اللیلة المظلمة، و لعلّه کنایة عن الأمور المشکلة التی لا یهتدی الناس إلی حلّها.

(۶) بحار الأنوار: فی أحوال الصادق علیه السّلام: ۴۷/ ۱۹۹.

(۷) مهج الدعوات لابن طاوس: ص ۱۹۲، بحار الأنوار: ۴۷/ ۱۹۹.

الخیرات «۱».

هذا و هو المنصور العدوّ الألدّ للصادق، الذی کان مجاهدا فی النیل من کرامته و القضاء علیه.

بل أن الملاحدة على كفرهم و عدائهم للاسلام و رجاله كانوا يعظّمونه و يعترفون له بغزارة العلم، و الميزة بالصفات الروحيّة و الملكات القدسيّة، أمثال ابن المقفّع و ابن أبى العوجاء و الديصانى و غيرهم، فهذا ابن المقفع يقول: ترون هذا الخلق- و أومأ بيده الى موضع الطواف- ما منهم أحد أوجب له اسم الانسانيّة إلّا ذلک الشيخ الجالس، يعنى الصادق عليه السّلام، و قال ابن أبى العوجاء:

ما هذا ببشر، و إن كان فى الدنيا روحانى يتجسّد اذا شاء و يتروّح اذا شاء باطنا فهو هذا، يعنى الصادق عليه السّلام. «٢»

و كان ابن أبى العوجاء اذا سأل أحد أصحاب الصادق عليه السّلام عن شىء غامض و استمهله، ثمّ أتاه بالجواب بعد حين و استحسنه، قال: هذه نقلت من الحجاز.

و هكذا كان الديصانى مع أصحاب الصادق عليه السّلام، و ما يقوله فيم يحملون إليه جوابه.

و هذه قطرة من غيث ممّا نطق به أهل الفضل فى شأن الصادق عليه السّلام مع اختلاف الزمن و البلد و الذوق و الرأى فى القائلين، اقدّمها أمام الدخول فى حياته التفصيليّة لتعطيک صورة إجماليّة عن هذه الشخصيّة الفذّة، فإن هذه الكلمات مع وجازتها تعلم القارئ عمّا لأبى عبد اللّه عليه السّلام من فضيلة بل فضائل، و عمّا له من آثار و مآثر.

---

(١) تأريخ اليعقوبى: ٣/ ١١٧.

(٢) الكافى: كتاب التوحيد منه، باب حدوث العالم و إثبات المحدث: ١/ ٧٤.

التقيّة

تمهيد:

منى الامام الصادق عليه السّلام من بين الأئمة بمعاصرة الدولتين المروانيّة و العبّاسيّة، اللتين حاربتا الشريعة و صاحبها النبىّ الأمين بمطاوعة الشهوات و التفنّن باللذات.

ثمّ تنبغ من بين هاتيک المعازف و القيان و ذلک الجور و الفجور رجالات البدع و المذاهب، و الآراء و الأهواء، ناصبين فخاخهم لصيد السمعة و الصيت حين لا محاسب و لا معاقب، و لا ناهى و لا آمر، بل كانت السلطة قد تروّج تلک الاختلافات، فيما يضعف من مذهب أهل البيت و يقلّل من أنصاره.

و لقد كان أبو عبد اللّه الصادق عليه السّلام يشاهد ذلک الصراع القائم بين الدين و الحكومتين، و بين الحقّ و أرباب هاتيک البدع.

فما ذا تراه سيتّخذ من موقف فى وسط هذا المحيط المائج؟ أ يعلن الحرب على السلطة و البدع و هو يعرف الناس و تخاذلهم عن الحق.

و كم شاهد و سمع من غدرة بعلوى، و نكثة بهاشمى، و لا يهمّه ذلک لو كان يصل الى غرضه كما فعل الحسين عليه السّلام، فليست نفسه بأعزّ من الدين عليه، و لكنه يعلم يقينا بأن ذلک سيقضى على نفيس حياته، دون أن يسدى إلى الدين نفعا، و يجرّ له مغنما أو أنه يلتزم الصمت أمام ذلک الصراع و فيه

ص: ٨٢

مسئوليّة كبرى أمام اللّه و أمام صاحب الشريعة فلا بدّ إذن من مخرج لتخليص الدين من هذا الصراع، مع سلامة نفسه و صفوة رجاله من مخالب تلک الاسود الضارية.

فكانت سياسته الرشيدة فى سبيل ذلک نشر العلوم و المعارف و بثّ الأحكام و الحكم و افشاء الفضائل، و كبح الضلالات بالحجّة فى ظلّ (التقيّة) التى اتّخذ منها جنّة و دريئة لتنفيذ سياسته الحكيمة، فكانت تعاليمه خدمة للشريعة، و عباداته إرشادا للناس، و مناظراته مناهضة للبدع، فاستقام مجاهدا على ذلک الى أن وافاه الأجل.

فوجب أن نتكلّم عن التقيّة لأجل ذلک فى فصل مستقل.

دليل التقيّة:

إن التقيّة من الوقاية، فهى جنّة تدرأ بها المخاوف و الأخطار و موردها الخوف على النفيس من نفس و غيرها.

و دليلها: الكتاب، و السنّة، و العقل، و الاجماع عند الشيعة، أمّا الكتاب فيكفى منه قوله تعالى «لا يتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين و من يفعل ذلک فليس من اللّه فى شىء إلّا أن تتّقوا منهم تقاة و يحذّركم اللّه نفسه» «١» فجوّز تعالى للمؤمنين أن يتظاهروا فى ولاء الكافرين عند التقيّة و الخوف من شرّهم، الى غيرها من الآيات التى سيرد عليک بعضها.

و أمّا السنّة فما جاء عن أهل البيت و غيرهم أكثر من أن يحصر، و سنذكر شطرا منه فى طىّ هذا المبحث، و كفى من السنّة ما رواه الفريقان فى قصّة عمّار، حتّى عذره اللّه سبحانه

---

(١) آل عمران: ٢٨.

ص: ٨٣

فى كتابه العزيز فنزل فى حقّه «إلّا من أكره و قلبه مطمئن بالايمان» «١».

و أمّا إجماع الشيعة على المشروعيّة بل الوجوب فلا نقاش فيه، لنذكر مصادره، لأن أمر التقيّة و لزومها عند أهل البيت و شيعتهم لا يختلف فيه اثنان.

و أمّا العقل فلأنه بالبداهة يحكم بوجوب المحافظة على النفس و النفيس ما استطاع المرء إليها سبيلا، و يمنع من إلقاء النفس بالمهالک، و قد نهى عن ذلک الكتاب العزيز أيضا فقال تعالى: «و لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة» «۲» و قال سبحانه «و لا تقتلوا أنفسكم إن اللّه كان بكم رحيما» «۳».

و سيرة أرباب العقول جارية على وفق هذا الحكم العقلى، بل ان غريزة البشر على التقيّة، فإنک لو حللت بدار قوم يخالفونک فى المذهب أو المبدأ السياسى، و تخشى منهم لو علموا ما أنت عليه لكنت تسرّ ما عندک بطبعک و فطرتک ما استطعت، من دون أن تعرف حكم العقل أو الشرع فى هذا الشأن.

و لو استعرضت تأريخ الاسلام من البدء لوجدت أن التقيّة كانت ضرورة يلتجأ إليها، فقد أخفى النبى صلّى اللّه عليه و آله بدء الدعوة أمره حتّى دعا بنى هاشم و أمره اللّه سبحانه أن يصدع بأمره «۴»، و تكتّم المسلمون فى إسلامهم قبل ظهوره و انتشاره، و تستّر أبو طالب فى إسلامه ليتسنّى له الدفاع عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و ليبعد عنه التهمة فى دفاعه.

و كيف عاد الأمر عكسا يوم ارتفع منار الإسلام فصار أهل الكفر فى مكّة و المدينة يظهرون الاسلام و يبطنون الكفر.

---

(۱) النحل: ۱۰۶.

(۲) البقرة: ۱۹۵.

(۳) النساء: ۲۹.

(۴) الحجر: ۹۴.

ابتداء التقيّة و مبرّراتها:

ما كانت تقيّة الشيعة مبتدأة من عصر الصادق عليه السّلام بل كانت من عهد أمير المؤمنين عليه السّلام حتّى أنه كان قد استعمل التقيّة بنفسه فى اكثر أيامه، إنک لتعلم أنه من بدء الخلافة كان يرى أن الخلافة له، و يراها ثلّة من الناس فيه، و لكنّه لمّا لم يجد أنصارا و ادع و صمت هو و أصحابه، و لو وجد أربعين ذوى عزم منهم لناهض القوم- على حدّ تعبيره نفسه- و ان النّاس حتّى من يخالفه لتعلم أن له رأيه فى القوم و من ثمّ أرادوه للبيعة فى الشورى على اتباع سيرة السلف فأبى إلّا على كتاب اللّه و سنّة رسوله.

و كان يتكتّم كثيرا بما يرى التقيّة فى إبدائه حتّى بعد ما صار الأمر إليه لعلمه بأن فى الناس من يخالفه و يناوئه، فلو باح بكلّ ما عنده لم يأمن خلاف الناس عليه، كيف و قد نكثت طائفة، و قسطت اخرى، و مرق آخرون، فلو صارح بكلّ ما يعلم و يرى لانتقضت عليه أطراف البلاد.

و مع أن الكوفة يغلب عليها الولاء و التشيّع و هى عاصمة ملكه ما استطاع أن يغيّر فيها كلّ ما ورثوه من العهد السابق، كما لم يطق أن يبوح فيها بكلّ ما يعلم إلّا القليل، هذا و هو صاحب السلطتين: الروحيّة و الزمنيّة، فكيف إذن به يوم كان أعزل، و كيف بأولاده و السطوة و القوّة عليهم.

لم يتّخذوا التقيّة جنّة إلّا لما يعلمون بما يجنيه عليهم و على أوليائهم ذلک الإعلان، و قد أمر بها أمير المؤمنين قبل بنيه، فإنه قال فى بعض احتجاجاته كما يرويه الطبرسى «١» فى الاحتجاج: و آمرک أن تستعمل التقيّة فى دينک- إلى أن

---

(١) أحمد بن على أبى طالب من علماء الطائفة و شيوخهم، و كتابه الاحتجاج كثير الفوائد جليل النفع.

يقول-: و تصون بذلک من عرف من أوليائنا و اخواننا فإن ذلک أفضل من أن تتعرّض للهلاک، و تنقطع به عن عمل فى الدين و صلاح إخوانک المؤمنين، و إيّاک ثم إيّاک أن تترک التقيّة التى أمرتک بها فإنک شاحط بدمک و دماء إخوانک، متعرّض لنفسک و لنفسهم للزوال، مذلّ لهم فى أيدى أعداء الدين و قد أمرک اللّه بإعزازهم، فإنک إن خالفت وصيّتى كان ضررک على إخوانک و نفسک أشدّ من ضرر الناصب لنا الكافر بنا.

فانظر كيف يأمر أمير المؤمنين وليّه بالتقيّة، و يكشف له عن فوائدها و الضرر فى خلافها.

ظهر التشيّع و الشيعة أيام أمير المؤمنين، لأن السلطان بيده مرجعه و مآله حتّى عرفتهم أعداؤهم فى كلّ مصر و قطر، فما ذا ترى سيحلّ بهم بعد تقويض سلطانه؟

لقد حاربهم معاوية بكلّ ما اوتى من حول و قوّة و حيلة و خديعة، فكان من تلک الوسائل سبابه لأبى الحسن و أمره به ليربو عليه الصغير و يهرم عليه الكبير كما يقول هو، و فى ذلک أىّ حرب لهم و إذلال، ثمّ قتل المعروفين من رجالهم، و المشهورين من أبدالهم و كان أكثرهم بالكوفة فاستعمل عليهم زيادا و ضمّ إليه البصرة و هو بهم عارف، يقول المدائنى: فقتلهم تحت كلّ حجر و مدر و أخافهم و قطع الأيدى و الأرجل و سمل العيون و صلبهم على جذوع النخل و طردهم و شرّدهم عن العراق فلم يبق بها معروف منهم «١».

و أمّا الذين لم يتمكّنوا من الهرب لمعروفيّتهم فى البلاد أو هربوا و أدركهم الطلب فكان نصيبهم الموت الأحمر، أمثال حجر بن عدى و أصحابه،

(۱) شرح النهج: ۳/ ۱۵.

ص: ۸۶

و عمرو بن الحمق و أضرابه.

و يقول العبرى فى تاريخه ص ۸۷: و كان معاوية قد أذكى العيون على شيعة على فقتلهم أين أصابهم.

و يقول الباقر عليه السّلام عند ذكرى النوازل بهم و بأوليائهم: و كان عظم ذلک و كبره زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السّلام فقتلت شيعتنا بكلّ بلدة، و قطعت الأيدى و الأرجل على الظنّة، و كان من يذكر بحبنا و الانقطاع إلينا سجن و نهب ماله و هدمت داره «۱».

كان معاوية يخشى الحسن عليه السّلام، لأن الناس منتظرة لنهضته، و ما ..

صالح معاوية إلّا على شروط، منها أن تعود الخلافة إليه بعده و من ثمّ عاجله بالسمّ، فالناس طامحة الأنظار لأبى محمّد، ما دام أبو محمّد فى قيد الحياة و مع تلک الرهبة من أبى محمّد و خشيته جانبه كان تلک فعاله، فكيف حاله مع الشيعة بعد موت الحسن عليه السّلام.

و لمّا عاد الأمر ليزيد و ابن زياد كانا أقوى فى الفتک و أجرأ فى السفک من معاوية و زياد، فقد قتل ابن زياد مسلما و هانيا و رشيدا الهجرى و ميثما التمّار و فتية شيعيّة، و ملأ من الشيعة و وجوهها السجون، حتّى بلغت فى حبسه اثنى عشر ألفا، ثمّ لحق ذلک حادثة الطف.

و ما نسيت هذه المشانق و المرازئ حتّى جاء دور الحجّاج و فتكه، و لنترک إمامنا الباقر عليه السّلام يحدّثنا عن هذا الدور الذى شاهده بنفسه، فيقول: ثمّ جاء الحجّاج فقتلهم- يعنى الشيعة- كلّ قتلة و أخذهم بكلّ ظنّة و تهمة، حتّى أن الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحبّ إليه من أن يقال له شيعة على

(۱) شرح النهج: ۳/ ۱۵.

ص: ۸۷

عليه السّلام «۱».

فكان هذا دأب الأمويّين مع العلويّين و شيعتهم، و قد عرفت شطر تلک السيرة ممّا سبق.

و لو استطردت أنباء العصر العبّاسى لعلمت أن الدولة العبّاسيّة اقتدت بالامّة الامويّة فى سيرتها القاسية مع العلويّة و أوليائهم، و أمامک ما سلف ممّا حدّثناک به عن الامويّة و العبّاسيّة و ما جنتاه على أهل البيت من قسوة و اعتداء.

أ فيستطيع بعد تلک النوائب و المصائب أن يجهر أهل البيت أو شيعتهم بما يرونه من الدين و معارضة السلطة فى المبدأ و المعتقد و السيرة و العمل؟

بوجدانک أيها البصير ما كنت صانعا لو تمرّ عليک و على أتباعک أمثال تلک الوقائع و أتت رائد و مسئول، أ فتغريهم بإعلان ما يجعلهم مجزرة للأعداء و هدفا للناقمين، أم تحتّم عليهم الكتمان و التستّر هربا من تلک المجازر، و فرارا من مرارة العذاب و التنكيل؟

و اذا كانت العترة أحد الثقلين الذين بهما حفظ الدين و نواميسه تستأصلهم الحراب و الحروب فهل يبقى للدين منار مرفوع أو ظلّ ممدود.

إذن لا محيص من التقيّة إذا أرادت العترة ملازمة القرآن و تعليم ما فيه حتّى يردا الحوض معا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، و إذا أرادوا كشف ما عليه اولئک المسيطرون على الناس من الظلم و بيان ما عليه اولئک المبتدعون فى الدين من الضلالة و الجهالة.

و لذلک يقول الصادق عليه السّلام: التقيّة دينى و دين آبائى و لا دين لمن لا

---

(١) نفس المصدر.

تقيّة له، و إنّ المذيع لأمرنا كالجاحد به، و قال عليه السّلام لجماعة من أصحابه كانوا عنده يحدّثهم: لا تذيعوا أمرنا و لا تحدّثوا به إلّا أهله فإنّ المذيع علينا سرّنا أشد مؤونة من عدوّنا، انصرفوا رحمكم اللّه و لا تذيعوا سرّنا «١».

و يقول عليه السّلام: نفس المهموم لظلمنا تسبيح، و همّه لنا عبادة، و كتمان سرّنا جهاد فى سبيل اللّه «٢».

و يقول عليه السّلام لمدرک بن الهزهز «٣»: يا مدرک إن أمرنا ليس بقبوله فقط و لكن بصيانته و كتمانه عن غير أهله، أقرأ أصحابنا السلام و رحمة اللّه و بركاته، و قل لهم رحم اللّه امرأ اجتر مودّة الناس إلينا فحدّثهم بما يعرفون و ترک ما ينكرون «٤».

و كانوا دائبين على تلک الوصايا لأصحابهم حتّى أن جابرا الجعفى الثقة الثبت الراوية عن الباقر و الصادق يقول: رويت خمسين ألف حديث ما سمعها أحد منى، بل قيل كانت سبعين و قيل تسعين ألفا عن الباقر فحسب و لم يحدّث بها أحدا من الناس «٥».

و لذلک یقول الصادق علیه السّلام للمعلّی بن خنیس: لا تکونوا أسری فی أیدی الناس بحدیثنا، إن شاءوا أمنوا علیکم، و إن شاءوا قتلوکم. و کان یقول علیه السّلام: ما قتل المعلّی إلّا من جهة إفشائه لحدیثنا الصعب «۶».

---

(۱) بحار الأنوار: ۲/ ۷۴/ ۴۲.

(۲) بحار الأنوار: ۲/ ۶۴/ ۱.

(۳) أو ابن أبی الهزهاز النخعی الکوفی روی عن الصادق علیه السلام و روی عنه الثقات.

(۴) بحار الأنوار: ۲/ ۷۷/ ۶۲.

(۵) بحار الأنوار: ۲/ ۶۹/ ۲۱- ۲۲.

(۶) بحار الأنوار: ۲۱/ ۷۱/ ۳۴.

و ما اکثر ما جاء عنه من الردع عن إذاعة سرّهم و الإفشاء لحدیثهم و أن المذیع له قاتلهم عمدا لا خطأ «۱»، فهذه الأحادیث و غیرها تکشف لک سرّ أمرهم بالتقیّة، فکأنّهم یعلمون بأن الناس سوف تستهدف الشیعة علی التقیّة فأبانوا الوجه فی إلزامهم بها و استمرارهم علیها.

أثر التقیّة فی خدمة الدین:

و أمّا أثر التقیّة فی خدمة الدین و المجتمع الشیعی فلا یکاد یجهل، فإن الکوفة أیام زیاد ضعف فیها التشیّع حتّی لم یبق بها من الشیعة معروف و بلغ الحال بها أیام الحجّاج إلی أن ینسب الرجل إلی الکفر و الزندقة أحبّ إلیه من أن ینسب إلی التشیّع، و لکن لم تمض برهة علی تشدیدهم علی الشیعة فی اعتزال الناس و السیاسة و اختفائهم وراء حجب التقیّة حتّی بلغ رواة الصادق علیه السلام أربعة آلاف أو یزیدون کما أحصاهم ابن عقدة، و الشیخ الطوسی طاب ثراه فی کتاب الرجال، و الطبرسی فی أعلام الوری، و المحقّق الحلّی فی المعتبر، و کان اکثرهم من أهل الکوفة، و کان الحسن بن علی الوشاء «۲» یقول: لو علمت أن هذا الحدیث یکون له هذا الطلب لاستکثرت منه فإنی أدرکت فی هذا المسجد- یعنی مسجد الکوفة- تسعمائة شیخ کلّ یقول: حدّثنی جعفر بن محمّد علیهما السّلام، علی أن الوشاء لم یدرک من تلک الطبقة إلّا قلیلا.

فهنا تعرف السرّ لما ذا کثرت الروایة عنه علیه السّلام؟ و لما ذا صار منهل العلوم و المعارف و مصدر الأحکام و الحکم؟ و لما ذا صار مذهبا لأهل التشیّع؟

(۱) بحار الأنوار: ۲/ ۷۴/ ۴۵.

(۲) البجلی الکوفی من وجوه الطائفة و من أصحاب الرضا علیه السلام و ثقات رواته، و له کتب، و له مسائل الرضا علیه السلام، ترجم له الرجالیّون کلّهم.

ص: ۹۰

و لما ذا روی عنه حتّی أئمة القوم و أعلامهم، أمثال مالک و أبی حنیفة و السفیانین و أیوب السختیانی و شعبة و ابن جریح و غیرهم؟، کلّ ذلک لما کان علیه من البعد عن مجتمع الناس الذی یجلب التهمة إلیه بطلب الرئاسة و الخلافة، و لتستّره فی نشر العلم و الأخلاق، و لو لا ذلک لما ظهرت علومه و فضائله، و لو لا ذلک لما عرف الناس شأن أهل البیت و حقیقة القرآن و علوم الدین، و لو لا ذلک لما وضح ما کان علیه أرباب السلطتین، و لو لا ذلک لما بادت کثیر من الفرق الباطلة، و قامت الحجّة علیها من ذوی الفقه و الکلام، و لو لا ذلک لما بلغت الشیعة سبعین ملیونا، و حلّت فی کلّ صقع و احتلّت کثیرا من البلاد «۱».

فمن هاهنا تعرف أثر التقیّة فی خدمة الدین و الشریعة، و ردّ عوادی الظلم و الضلالة، و تعریف الناس حقائق الایمان، و بطلان الشبهات و المبتدعات.

فلا أخالک بعد هذا البیان تصغی إلی شیء من الغمز فی التقیّة و نسبة الشیعة إلی الباطنیّة من جرّاء ذلک التکتّم فی الاعتقاد، و التستّر فی المذاهب.

و ما کان هذا الإسهاب إلّا لرفع النقاب عن محیا الحقیقة لمن یزعم أن التقیّة مجهولة المحاسن، لأنها حجاب کثیف و عسی أن یکون ما وراء الحجاب ألف عیب و ألف نقص، و من یتّقی فی عقیدته کیف یعرف الناس ما لدیه و یرون جمال ما یضمره، أ تری یصحّ هذا الغمز و النبز بعد ما ألمسناک فوائدها، و أریناک منافعها؟

علی أن الیوم بفضل المطابع قد انتشرت علوم الشیعة و عقائدهم، فأین الکتمان و أین الاتّقاء؟ و ما کان الاتّقاء إلّا فی ذلک العهد یوم کانت الشیعة

(۱) استوفینا البیان عن الشیعة و عددهم و بلدانهم فی کتابنا «تاریخ الشیعة» و قد أخرجته المطابع فاقرأه ففیه عن ذلک بلغة و متعة.

ص: ۹۱

قليلى العدد و الاهبة، و لو مسحهم السيف لم يبق للبيت و أهله ذكر و علم و حجّة و رواية، و أمّا اليوم فهم فى جنّة واقية من نشر هاتيک الكتب التى ملأت الخافقين، و لم تدع عذرا لكاتب و قارىء يزعمان أن مذهب الاماميّة باطنيّا يتستّر بالتقيّة، لا نعرف مباديه و عقائده، و لا اصوله و فروعه، فإن كتبهم بالأيدى، فى كلّ علم و فن، و مصادرهم مقروّة و مداركهم مبثوثة.

***

ص: ٩٢

الصادق و المحن

كفى فى امتحان أهل الدين هذا التصارع الدائم بين الدين و الدنيا و قلّما ائتلفا فى عصر، و لولاه لما كانت التقيّة، و لما كانت تلک الفوادح النازلة بساحة أهل البيت.

ليس الصراع بين أهل البيت و بين اميّة و العبّاس غريبا ما دام أهل البيت مثال الدين، و اولئک مثال الدنيا.

يعلم المروانيّون و العبّاسيّون أن الصادق عليه السلام زعيم هذا التصارع و لئن صمت عن مصارعتهم بالحراب فلا يكفيهم أمانا من حربه لهم، و لربما كان الصمت نفسه أداة الصراع أو هو الصراع نفسه، فإن السكوت قد يكون جوابا كما يقولون.

فمن ثمّ تجدهم يوجّهون إليه عوادى المحن كلّ حين، و ما كفّهم عن تعاهده بالأذى ذلک الانعزال و الانشغال بالعبادة و العلم، فإن هذا الشغل هو سلاح الحرب، لأنه ظاهرة الدين و به تتّجه الأنظار إليه، و كلّما ارتفع مقام الصادق قويت شوكة الدين، و إذا قوى الدين انصرع أهل الدنيا.

و لو لا تشاغل الامويّين بالفتن بينهم لما أبقوا على الصادق عليه السلام، كما لم يبقوا على آبائه، أجل كأنهم تركوا ذلک إلى أبناء عمّه الأقربين،

ص: ٩٣

«و اولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض»! «١» كانت أيام السفّاح أربع سنين، و هذا الزمن لا يكفى لتطهير الأرض من أميّة، و لبناء اسّ الملک و ترسيخ دعائمه، فلم يشغله ذلک عن الصادق عليه السّلام، فإنه لم يطمئن بعد من أميّة و الروح الموالية لهم، و لم يفرغ من تأسيس ذلک البناء حتّى أرسل على الصادق من المدينة إلى الحيرة، ليفتک به، و لكن كفى بالأجل حارسا.

و لما ذا كان الصادق إحدى شعب همّه، و هو ابن عمّهم الذى اشتغل بالعبادة و التعليم و الارشاد، و الذى أخبرهم بما سيحظون به من الملک دون بنى الحسن، و قد كانوا بأضيق من جحر الضب من بنى أميّة، و أقلق من الريشة فى مهبّ الريح خوفا منهم.

ما كان يدفع السفّاح على ذلک العمل الشائن إلّا ما قلناه من ذلک الصراع حذرا من أن يتّجه الناس إلى الصادق عليه السّلام، و يعرفوا منزلته، و الناس إلى ذلک العهد كانت ترى أن الخلافة مجمع السلطتين الروحيّة و الزمنيّة، و لا تراها سلطانا خالصا لا

علاقة لها بالدين، فلا يصرف الناس عن الصادق أنه رجل الدين الخالص، بل أن هذا ادّعى عند بعض الناس للامامة، ليكونوا منه فى أمان على دنياهم، كما هم فى أمان على دينهم.

و بذلک الحذر وقف المنصور بمرصد للصادق عليه السّلام، فشاهد عليه السّلام منه ضروب الآلام و المكاره، و ما كفّ و لا عفّ عنه حتّى أذاقه السمّ.

و لا عجب ممّا كان يلاقيه أبو عبد اللّه عليه السّلام من تلک المكاره، فإنّ

---

(١) الأنفال: ٧٥.

محن المرء على قدر ما له من فضيلة و كرامة، و على قدر مقامه بين الناس و طموحه إلى الرتب العالية.

كان بين ولاية المنصور و وفاة الصادق عليه السّلام اثنتا عشرة سنة لم يجد الصادق فيها راحة و لا هدوء على ما بينهما من البعد الشاسع، الصادق فى الحجاز، و المنصور فى العراق، و كان يتعاهده بالأذى، كما يتعاهد المحبّ حبيبه بالطرف و التحف.

يقول ابن طاوس أبو القاسم على طاب ثراه «١» فى كتاب «مهج الدعوات» فى باب دعوات الصادق عليه السّلام: إن المنصور دعا الصادق سبع مرّات كان بعضها فى المدينة و الربذة حين حجّ المنصور، و بعضها يرسل إليه إلى الكوفة و بعضها إلى بغداد، و ما كان يرسل عليه مرّة إلّا و يريد فيها قتله، هذا فوق ما يلاقيه فيها من الهوان و سوء القول، و نحن نذكرها بالتفصيل:

الاولى:

روى ابن طاوس عن الربيع حاجب المنصور قال: لما حجّ المنصور «٢» و صار بالمدينة سهر ليلة فدعانى فقال: يا ربيع انطلق فى وقتک هذا على أخفض جناح و ألين مسير، و إن استطعت أن تكون وحدک فافعل حتّى يأتى أبا عبد اللّه جعفر بن محمّد فقل له: هذا ابن عمّک يقرأ عليک السّلام و يقول

---

(١) رضىّ الدين أبو القاسم على بن موسى الحسنى الحلّى من آل طاوس جمع بين العلم و العبادة و الزهادة و بين الشعر و الأدب و الانشاء و البلاغة، تنسب إليه الكرامات العالية، و قيل: إنه كان أعبد أهل زمانه و أزهدهم، و عن العلّامة الحلّى فى بعض إجازاته و هو ممّن روى عنه، يقول عند ذكره: و كان رضىّ الدين على صاحب كرامات حكى بعضها و روى لى والدى البعض الآخر، و كان أزهد أهل زمانه.

(۲) حجّ المنصور أيّام الصادق عليه السلام ثلاث مرّات عام ۱۴۰ و ۱۴۴ و ۱۴۷ و بعد وفاة الصادق مرّتين عام ۱۵۲ و عام ۱۵۸ فلم يتمّ الحجّ، انظر تاريخ اليعقوبى: ۳/ ۱۲۲ طبع النجف، و الذى يظهر أن المنصور فى كلّ مرّة من الثلاث يأمر بجلب الصادق عليه السلام.

ص: ۹۵

لک: إن الدار و إن نأت و الحال و إن اختلفت فإنّا نرجع إلى رحم أمسّ من يمين بشمال، و نعل بقبال «۱» و هو يسألک المصير إليه فى وقتک هذا، فإن سمح بالمصير معک فأوطئه خدّک، و إن امتنع بعذر أو غيره فاردد الأمر إليه فى ذلک، و إن أمرک بالمصير إليه فى تأنّ فيسّر و لا تعسّر، و اقبل العفو و لا تعنف فى قول و لا فعل، قال الربيع: فصرت إلى بابه فوجدته فى دار خلوته فدخلت عليه من غير استئذان، فوجدته معفّرا خدّيه مبتهلا بظهر كفّيه قد أثّر التراب فى وجهه و خدّيه، فأكبرت أن أقول شيئا حتّى فرغ من صلاته و دعائه، ثم انصرف بوجهه فقلت: السّلام عليک يا أبا عبد اللّه فقال: و عليک السّلام يا أخى، ما جاء بک، فقلت: ابن عمّک يقرأ عليک السّلام، حتّى بلغت إلى آخر الكلام، فقال: ويحک يا ربيع «أ لم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر اللّه و ما نزل من الحقّ و لا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم» «۲» ويحک يا ربيع «أ فأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا و هم نائمون، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى و هم يلعبون، أ فأمنوا مكر اللّه فلا يأمن مكر اللّه إلّا القوم الخاسرون» «۳» قرأت على أمير المؤمنين السّلام و رحمة اللّه و بركاته، ثمّ أقبل على صلاته، و انصرف إلى توجّهه، فقلت: هل بعد السّلام من مستعتب أو اجابة، فقال: نعم، قل له: «أ فرأيت الذى تولّى، و أعطى قليلا و اكدى، أ عنده علم الغيب فهو يرى، أم لم ينبّأ بما فى صحف موسى، و إبراهيم الذى وفّى، ألّا تزر وازرة وزر أخرى، و أن ليس للانسان إلا ما سعى، و أنّ سعيه سوف يرى» «۴» إنّا و اللّه

---

(۱) بالكسر زمام بين الاصبع الوسطى و التى يليها.

(۲) الحديد: ۱۵.

(۳) الأعراف: ۹۷- ۹۹.

(۴) النجم: ۳۳- ۴۰، و أن هذه الآيات فيها تذكير و وعظ و تهديد، و أن الانسان مقرون بعمله و لا يؤاخذ

ص: ۹۶

يا أمير المؤمنين قد خفناک و خافت بخوفنا النسوة اللّاتى أنت أعلم بهنّ، و لا بدّ لنا من الايضاح به «۱» فإن كففت و إلّا أجرينا اسمک على اللّه عزّ و جل فى كلّ يوم خمس مرّات «۲» و أنت حدّثتنا عن أبيک عن جدّک أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قال: أربع دعوات لا يحجبن عن اللّه تعالى: دعاء الوالد لولده، و الأخ بظهر الغيب لأخيه، و المخلص ...

قال الربيع: فما استتمّ الكلام حتّى أتت رسل المنصور تقفوا أثرى و تعلم خبرى فرجعت فأخبرته بما كان فبكى، ثمّ قال: ارجع إليه و قل له: الأمر فى لقائک إليک و الجلوس عنّا، و أمّا النسوة اللّاتى ذكرتهنّ فعليهنّ السّلام فقد آمن اللّه روعتهنّ و جلى همّهنّ، قال: فرجعت إليه فأخبرته بما قال المنصور فقال: قل له: وصلت رحما، و جزيت خيرا، ثمّ اغرورقت عيناه حتّى قطر من الدموع فى حجره قطرات.

ثمّ قال: يا ربيع إن هذه الدنيا و ان أمتعت ببهجتها، و غرّت بزبرجها «٣» فقلت: يا أبا عبد اللّه أسألک بكلّ حقّ بينک و بين اللّه جلّ و علا إلّا عرفتنى ما ابتهلت به إلى ربّک تعالى، و جعلته حاجزا بينک و بين حذرک و خوفک فلعلّ اللّه يجبر بدوائک كسيرا، و يغنى به فقيرا، و اللّه ما اعنى غير نفسى، قال الربيع:

فرفع يده و أقبل على مسجده كارها أن يتلو الدعاء صفحا، و لا يحضر ذلک بنيّة، فقال: قل: اللّهمّ إنى أسألک يا مدرک الهاربين، و يا ملجأ الخائفين، الدعاء. «۴»

بغير وزره.

(١) أحسبه يريد أنه لا بدّ من الافصاح بحقيقة الحال.

(٢) يريد أنه يدعو عليه بعد كلّ صلاة، و يكون من دعاء المظلوم الذى لا يحجب.

(٣) سوف نذكرها فى المختار من كلامه فى باب مواعظه.

(۴) ذكرنا هذه الأدعية التى فى هذا الفصل كلّها فيما جمعناه من دعاء الصادق عليه السلام فإنّا لمّا

ليس فى استدعاء المنصور للصادق عليه السّلام فى هذه الدفعة ظاهرة سوء، فما الذى أقلق أبا عبد اللّه و روع نساءه، و جعله يتوسّل إلى اللّه تعالى فى كفّ شرّ المنصور، إن أبا عبد اللّه أبصر بقومه و أدرى بنواياهم، و من الدفعات الآتية تتّضح لک جليّا مقاصد المنصور مع الصادق عليه السّلام، و أنه ما كان يقصد من هذا الإرسال إلّا السوء.

الثانية:

و روى ابن طاوس عن الربيع أيضا، قال حججت مع أبى جعفر المنصور فلمّا صرت فى بعض الطريق قال لى المنصور: يا ربيع إذا نزلت المدينة فاذكر لى جعفر بن محمّد بن على بن الحسين بن على عليهم السّلام فو اللّه العظيم لا يقتله أحد غيرى، احذر أن تدع أن تذكّرنى به، قال: فلمّا صرنا إلى المدينة أنسانى اللّه عزّ و جل ذكره، فلم صرنا إلى مكّة قال لى: يا ربيع أ لم آمرک أن تذكّرنى بجعفر بن محمّد إذا دخلنا المدينة، قال: فقلت: نسيت يا مولاى يا أمير المؤمنين، فقال لى: فاذا رجعنا إلى المدينة

فذكّرنى به فلا بدّ من قتله، فإن لم تفعل لأضربنّ عنقک، قال: فقلت له: نعم يا أمير المؤمنين، ثم قلت لأصحابى و غلمانى: ذكّرونى بجعفر بن محمّد إذا دخلنا المدينة إن شاء اللّه قال: فلم يزل أصحابى و غلمانى يذكّرونى به فى كلّ منزل ندخله و ننزل فيه حتّى قدمنا المدينة، فلمّا نزلنا المدينة دخلت الى المنصور فوقفت بين يديه و قلت: يا أمير المؤمنين جعفر بن محمّد، قال: فضحک و قال لى: نعم اذهب يا ربيع فأتنى به و لا تأتنى به إلّا مسحوبا، قال: فقلت له: يا مولاى حبّا و كرامة، و أنا أفعل ذلک طاعة

رأينا أن أدعيته فى هذا الفصل طويلة و كثيرة آثرنا جمعها مع ما ظفرنا به من أدعيته الأخر و جعلناها كتابا مفردا و سمّيناه دعاء الصادق و قد اجتمع لدينا حتّى اليوم ما يناهز ۴۰۰ صفحة بقطع هذا الكتاب.

لأمرک، قال: ثمّ نهضت و أنا فى حال عظيم من ارتكابى ذلک، قال: فأتيت الامام الصادق جعفر بن محمّد عليهما السّلام و هو جالس فى وسط داره، فقلت له جعلت فداک: إن أمير المؤمنين يدعوک إليه، فقال: السمع و الطاعة، ثمّ نهض و هو معى يمشى، قال: فقلت له: يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله إنه أمرنى ألّا آتيه بک إلّا مسحوبا، قال: فقال الصادق عليه السّلام: امتثل يا ربيع ما أمرک به، قال الربيع: فأخذت بطرف كمّه أسوقه، فلمّا أدخلته عليه رأيته و هو جالس على سريره و فى يده عمود من حديد يريد أن يقتله به، و نظرت الى جعفر بن محمّد يحرّک شفتيه فلم أشکّ أنه قاتله، و لم أفهم الكلام الذى كان جعفر بن محمّد يحرّک به شفتيه، فوقفت أنظر إليهما، قال الربيع: فلمّا قرب منه جعفر بن محمّد قال له المنصور: ادن منى يا ابن عمّى، و تهلّل وجهه، و قرّبه حتّى أجلسه معه على السرير، ثمّ قال: يا غلام ائتنى بالحقّة، فأتاه بالحقّة و فيها قدح الغالية فغلفه «۱» منها، ثمّ حمله على بغلة و أمر له ببدرة و خلعة ثمّ أمره بالانصراف، قال: فلمّا نهض من عنده خرجت بين يديه حتّى وصل الى منزله، فقلت له: بأبى أنت و أمّى يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله إنى لم أشکّ فيه ساعة تدخل عليه أنه يقتلک، و رأيتک تحرّک شفتيک فى وقت دخولک عليه فما قلت؟ قال لى: نعم يا ربيع اعلم أنى قلت: حسبى الربّ من المربوبين، حسبى الخالق من المخلوقين، الدعاء.

الثالثة:

قال ابن طاوس فى استدعائه مرّة ثالثة بالربذة «۲»: يقول مخرمة

---

(۱) أى غطّاه و غشّاه بها مبالغة فى كثرة ما وضع عليه من الغالية.

(۲) أرض بين مكّة و المدينة كان فيها مسكن أبى ذر قبل إسلامه و إليها منفاه، و فيها موته و مدفنه، رضى اللّه عنه.

الكندى: لمّا نزل أبو جعفر المنصور الربذة و جعفر بن محمّد عليه السّلام يومئذ بها، قال: من يعذرنى من جعفر هذا، يقدّم رجلا و يؤخّر أخرى يقول: انتجى «۱» عن محمّد «۲» فإن يظفر فإن الأمر لى و إن تكن الاخرى فكنت قد أحرزت «۳» نفسى، أما و اللّه لأقتلنّه، ثمّ التفت الى إبراهيم بن جبلة فقال: يا ابن جبلة قم إليه فضع فى عنقه ثيابه ثم ائتنى به سحبا، قال إبراهيم: فخرجت حتّى أتيت منزله فلم أصبه، فطلبته فى مسجد أبى ذر فوجدته على باب المسجد، قال: فاستحييت أن أفعل ما امرت به، فأخذت بكمّه فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: إنّا للّه و إنّا إليه راجعون، دعنى حتّى اصلّى ركعتين ثمّ بكى بكاء شديدا و أنا خلفه، ثمّ قال: اللّهمّ أنت ثقتى فى كلّ كرب و رجائى فى كلّ شدّة. الدعاء، ثمّ قال:

اصنع ما امرت به، فقلت: و اللّه لا أفعل و لو ظننت أنى اقتل، فذهبت به لا و اللّه ما أشكّ إلّا أنه يقتله قال: فلمّا انتهيت الى باب الستر قال: يا إله جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل و إله إبراهيم و إسحاق و محمّد صلّى اللّه عليه و آله تولّ فى هذه الغداة عافيتى و لا تسلّط علىّ أحدا من خلقك بشىء لا طاقة لى به، قال إبراهيم:

ثمّ أدخلته عليه، قال: فاستوى جالسا، ثمّ أعاد عليه الكلام، فقال: قدّمت رجلا و أخّرت أخرى، أما و اللّه لأقتلنّک، فقال: يا أمير المؤمنين ما فعلت فارفق بى لقلّما أصحبک، فقال له أبو جعفر: انصرف، قال: ثمّ التفت الى عيسى بن على «۴» فقال: يا أبا العبّاس الحقه فاسأله أبى أم به، قال: فخرج يشتدّ حتّى لحقه،

---

(۱) اتخلّص، و فى نسخة أتنحّى و كلاهما يناسب المقام.

(۲) ابن عبد اللّه بن الحسن و ينبغى أن تكون هذه الحجّة عام ۱۴۴ قبل خروج محمّد، و لعلّ الاولتين كانتا عام ۱۴۰ و ۱۴۷، و لا يلزم من ترتيب بيان الشريف ابن طاوس أن يكون على ترتيب السنين، لا سيّما و هو لم يتعرّض لسنة الحجّ متى كانت.

(۳) حفظت.

(۴) ابن عبد اللّه بن العبّاس و هو عمّ المنصور.

فقال: يا أبا عبد اللّه إن أمير المؤمنين يقول لک: أبک أم به؟ فقال: لا بل بى، فقال أبو جعفر: صدق «۱».

قال إبراهيم بن جبلة: ثمّ خرجت فوجدته قاعدا ينتظرنى يتشكّر لى صنيعى به و اذا به يحمد اللّه و يقول: الحمد للّه الذى أدعوه فيجيبنى و إن كنت بطيئا حين يدعونى، الدعاء.

الرابعة:

يقول الشريف ابن طاوس: إن هذه المرّة الرابعة هى التى استدعاه بها الى الكوفة، قال: يقول الفضل بن الربيع بعد أن ذكر سند الرواية إليه: قال أبى الربيع: بعث المنصور إبراهيم بن جبلة الى المدينة ليشخّص جعفر بن محمّد، فحدّثنى إبراهيم بعد قدومه بجعفر أنه لمّا دخل إليه فخبّره برسالة المنصور سمعته يقول: اللّهمّ أنت ثقتى فى كلّ كرب، و رجائى فى كلّ شدّة، الدعاء.

فلمّا قدّموا راحلته و خرج ليركب سمعته يقول: اللّهمّ بک أستفتح و بک أستنجح، الدعاء، قال: فلمّا دخلنا الكوفة نزل فصلّى ركعتين ثمّ رفع يده الى السماء فقال: اللّهمّ ربّ السموات و ما أظلّت و ربّ الأرضين السبع و ما أقلّت، الدعاء، قال الربيع: فلمّا وافى الى حضرة المنصور دخلت فأخبرته بقدوم جعفر و إبراهيم فدعا المسيّب بن زهير الضبى فدفع إليه سيفا و قال له: اذا دخل جعفر بن محمّد فخاطبته و أومأت إليه فاضرب عنقه و لا تستأمر «٢»، فخرجت إليه و كان صديقا الاقيه و اعاشره اذا حججت فقلت: يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه

---

(١) إن هذا الكلام ظاهر فى أنه بالقرب من وفاة الصادق عليه السلام فتكون الحجّة عام ١۴٧، إلّا أن تصريحه أولا فى أن كلامه كان قبل خروج محمّد يعيّن أن تكون الحجّة عام ١۴۴، و من الغريب أن يصدّق المنصور كلام الصادق بعد أن يسأله أن البدأة بمن، و هو يلاقيه بما يلاقيه من سوء و مكروه.

(٢) بالبناء للفاعل أى لا تشاور.

عليه و آله إن هذا الجبّار قد أمر فيک بأمر اكره أن ألقاک به فإن كان فى نفسک شىء تقوله و توصينى به، فقال: لا يروعک ذلک فلو قد رآنى لزال ذلک كلّه، ثمّ أخذ بمجامع الستر فقال: يا إله جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل، و إله إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب و محمّد صلّى اللّه عليه و آله تولّنى فى هذه الغداة و لا تسلّط علىّ أحدا من خلقک بشىء لا طاقة لى به، ثمّ دخل فحرّک شفتيه بشىء لم أفهمه، فنظرت إلى المنصور فما شبّهته إلّا بنار صبّ عليها ماء فخمدت، ثمّ جعل يسكن غضبه حتّى دنا منه جعفر بن محمّد عليهما السّلام و صار مع سريره، فوثب المنصور، و أخذ بيده و رفعه على سريره، ثمّ قال له يا أبا عبد اللّه يعزّ علىّ تعبک، و إنما أحضرتک لأشكو إليک أهلک قطعوا رحمى، و طعنوا فى دينى، و ألّبوا الناس علىّ، و لو ولّى هذا الأمر غيرى ممّن هو أبعد رحما منى لسمعوا له و أطاعوا، فقال له جعفر عليه السّلام: فأين يعدل بک عن سلفک الصالح أن أيّوب عليه السّلام ابتلى فصبر، و أن يوسف عليه السّلام ظلم فغفر، و أن سليمان عليه السّلام اعطى فشكر، فقال المنصور: قد صبرت و غفرت و شكرت.

ثمّ قال: يا أبا عبد اللّه حدّثنا حديثا كنت سمعته منک فى صلة الأرحام قال: نعم سمعت أبى عن جدّى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قال: البرّ وصلة الأرحام عمارة الديار و زيادة الأعمار، قال: ليس هذا هو، قال: حدّثنى أبى عن جدّى، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: من أحبّ أن ينسأ «١» فى أجله، و يعافى فى بدنه، فليصل رحمه، قال: ليس هذا هو، قال: نعم حدّثنى أبى عن جدّى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قال: رأيت رحما متعلّقة بالعرش تشكو إلى اللّه عزّ و جل قاطعها فقلت: يا جبرئيل و كم بينهم؟ قال: سبعة آباء،

(۱) یؤخّر.

ص: ۱۰۲

فقال: لیس هذا هو، قال: نعم حدّثنی أبی عن جدّی قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله: احتضر رجل بارّ فی جواره رجل عاق، فقال اللّه عزّ و جل لملک الموت: یا ملک الموت کم بقی من أجل العاق؟ قال: ثلاثون سنة قال:

حوّلها إلی هذا البار «۱» فقال المنصور: یا غلام ائتنی بالغالیة، فأتاه بها فجعل یغلفه بیده، ثمّ دفع إلیه أربعة آلاف دینار، و دعا بدابته فأتی بها فجعل یقول: قدّم قدّم، إلی أن أتی بها عند سریره فرکب جعفر بن محمّد علیهما السّلام و غذوت بین یدیه، فسمعته یقول: الحمد للّه الذی أدعوه فیجیبنی. الدعاء، فقلت: یا ابن رسول اللّه إن هذا الجبّار یعرضنی علی السیف کلّ قلیل، و لقد دعا المسیّب بن زهیر فدفع إلیه سیفا و أمره أن یضرب عنقک و أنی رأیتک تحرّک شفتیک حین دخلت بشیء لم أفهمه عنک، فقال: لیس هذا موضعه فرحت إلیه عشیّا، قال: نعم حدّثنی أبی عن جدّی أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله لمّا الّبت علیه الیهود و فزارة و غطفان و هو قوله تبارک و تعالی «إذ جاؤکم من فوقکم و من أسفل منکم و إذ زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر و تظنّون باللّه الظنونا» «۲» و کان ذلک الیوم أغلظ یوم علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله فجعل یدخل و یخرج و ینظر إلی السماء فیقول: ضیقی تتّسعی، ثمّ خرج فی بعض اللیل فرأی شخصا فقال لحذیفة: انظر من هذا، فقال: یا رسول اللّه هذا علیّ بن أبی طالب، فقال له رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله یا أبا الحسن أ ما خشیت أن تقع علیک عین، قال: وهبت نفسی للّه و لرسوله و خرجت حارسا للمسلمین فی هذه اللیلة، فما انقضی کلامهما حتّی نزل جبرئیل، قال: یا محمّد إن اللّه یقرأ علیک السّلام

(۱) لا یخفی علی الصادق علیه السلام الحدیث الذی أراده المنصور، و إنما کثر علیه أحادیث الرحم، لیعرّفه موقفه من ذوی رحمه.

(۲) الأحزاب: ۱۰.

ص: ۱۰۳

و یقول لک: قد رأیت موقف علی منذ اللیلة و أهدیت إلیه من مکنون علمی کلمات لا یتعوّذ بها عند شیطان مارد، و لا سلطان جائر، و لا حرق و لا غرق، و لا هدم و لا ردم، و لا سبع ضار، و لا لصّ، إلّا آمنه اللّه من ذلک، و هو أن یقول: اللّهمّ احرسنا بعینک التی لا تنام ... الدعاء.

الخامسة:

و قد استدعاه بها المنصور إلى بغداد قبل قتل محمّد و إبراهيم ابنى عبد اللّه بن الحسن «۱» روى ذلک الشريف رضىّ الدين بسنده عن محمّد بن الربيع الحاجب، قال: قعد المنصور يوما فى قصره بالقبّة الخضراء، و كانت قبل قتل محمّد و إبراهيم تدعى الحمراء، و كان له يوم يقعد فيه و يسمّى ذلک اليوم يوم الذبح، و قد كان أشخص جعفر بن محمّد من المدينة، فلم يزل فى الحمراء نهاره كلّه حتّى جاء الليل و مضى اكثره قال: ثمّ دعا الربيع فقال له: يا ربيع إنک تعرف موضعک منى و أنه يكون بى الخير و لا تظهر عليه امّهات الأولاد و تكون أنت المعالج له، قال: قلت: يا أمير المؤمنين ذلک فضل اللّه علىّ و فضل أمير المؤمنين و ما فوقى فى النصح غاية، قال: كذلک أنت صر الساعة إلى جعفر بن محمّد بن فاطمة فائتنى به على الحال التى تجده فيها لا تغيّر شيئا ممّا عليه، فقلت: إنا للّه و إنا إليه راجعون، هذا و اللّه هو العطب، إن أتيت به على ما أراه من غضبه قتله و ذهبت الآخرة، و إن لم أذهب فى أمره قتلنى و قتل نسلى و أخذ أموالى، فميّزت بين الدنيا و الآخرة فمالت نفسى إلى الدنيا، قال محمّد بن الربيع: فدعانى أبى و كنت أفظّ ولده و أغلظهم قلبا، فقال لى: امض إلى

(۱) كان قتلهما عام ۱۴۵، و انتقال المنصور إلى بغداد عام ۱۴۶، فلا وجه لأن يكون استدعاؤه إلى بغداد قبل قتلهما، فإما أن يكون إلى الكوفة و الغلط من النسّاخ أو الراوى، أو الاستدعاء بعد قتلهما.

جعفر بن محمّد فتسلّق عليه حائطه و لا تستفتح عليه بابه فيغيّر بعض ما هو عليه و لكن انزل عليه نزلا، فأت به على الحال التى هو فيها، قال: فأتيته و قد ذهب الليل إلّا أقلّه، فأمرت بنصب السلاليم و تسلّقت عليه الحائط و نزلت داره فوجدته قائما يصلّى و عليه قميص و منديل و قد ائتزر به، فلما سلّم من صلاته قلت: أجب أمير المؤمنين فقال: دعنى أدعو و ألبس ثيابى، فقلت: ليس إلى ذلک من سبيل، قال لى: فأدخل المغتسل فأتطهّر، قال: قلت: و ليس إلى ذلک أيضا سبيل، فلا تشغل نفسک فإنى لا أدعک تغيّر شيئا، قال: فأخرجته حافيا حاسرا فى قميصه و منديله، و كان قد جاوز السبعين «۱» فلمّا مضى بعض الطريق ضعف الشيخ فرحمته فقلت له: اركب، فركب بغل شاكرى «۲» كان معنا، ثمّ صرنا إلى الربيع فسمعته و هو يقول: ويلک يا ربيع قد أبطأ الرجل و يستحثّه استحثاثا شديدا، فلمّا أن وقعت عين الربيع على جعفر و هو بتلک الحال بكى، و كان الربيع يتشيّع، فقال له جعفر عليه السّلام: يا ربيع أنا أعلم ميلک إلينا فدعنى أصلّى ركعتين و أدعوا، قال: شأنک و ما تشاء، فصلّى ركعتين خفّفهما ثمّ دعا بعدهما بدعاء لم أفهمه إلّا أنه دعاء طويل، و المنصور فى ذلک كلّه يستحثّ الربيع، فلمّا فرغ من دعائه على طوله أخذ الربيع بذراعه فأدخله على المنصور فلمّا صار فى صحن الايوان وقف ثمّ حرّک شفتيه بشىء ما أدرى ما هو، ثمّ أدخلته فوقف بين يديه، فلمّا نظر إليه قال: و أنت يا جعفر ما تدع حسدک و بغيک و فسادک على أهل هذا البيت من بنى العبّاس و ما يزيدک اللّه بذلک إلّا شدّة حسد و نكد، ما تبلغ به ما تقدره، فقال له: و اللّه يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئا من

(۱) لم يتجاوز الصادق السبعين عاما و إنما كان حدسا من محمّد، و أحسبه لما كان يشاهده من ضعفه.

(۲) أجير و مستخدم.

ذلک، هذا و لقد کنت فی ولایة بنی امیّة و أنت تعلم أنهم أعدی الخلق لنا و لکم، و أنهم لا حقّ لهم فی هذا الأمر فو اللّه ما بغیت علیهم، و لا بلغهم عنّی مع جفائهم الذی کان لی، و کیف یا أمیر المؤمنین أصنع الآن هذا و أنت ابن عمّی و أمسّ الخلق بی رحما، و اکثرهم عطاء و برّا، فکیف أفعل هذا، فأطرق المنصور ساعة، و کان علی لبد «۱» و عن یساره مرفقة خز معانیّة «۲» و تحت لبده سیف ذو الفقار «۳» کان لا یفارقه إذا قعد فی القبّة، فقال: أبطلت و أثمت، ثمّ رفع ثنیّ الوسادة فأخرج منها إضبارة کتب فرمی بها إلیه، و قال: هذه کتبک إلی أهل خراسان تدعوهم إلی نقض بیعتی و أن یبایعوک دونی، فقال: و اللّه یا أمیر المؤمنین ما فعلت و لا أستحلّ ذلک و لا هو من مذهبی، و انی ممّن یعتقد طاعتک فی کلّ حال، و قد بلغت من السنّ ما قد أضعفنی عن ذلک لو أردته فصیّرنی فی بعض حبوسک حتّی یأتینی الموت فهو منّی قریب، فقال: لا و لا کرامة، ثمّ أطرق و ضرب یده علی السیف فسلّ منه مقدار شبر و أخذ بمقبضه، فقلت: انّا للّه ذهب و اللّه الرجل، ثمّ ردّ السّیف و قال: یا جعفر أ ما تستحی مع هذه الشیبة و مع هذا النسب أن تنطق بالباطل و تشقّ عصی المسلمین، ترید أن تریق الدماء و تطرح الفتنة بین الرعیّة و الأولیاء، فقال: لا و اللّه یا أمیر المؤمنین ما فعلت و لا هذه کتبی و لا خطّی و لا خاتمی، فانتضی من السیف ذراعا، فقلت: إنا للّه مضی الرجل و جعلت فی نفسی إن أمرنی فیه بأمر أن أعصیه، لأنی ظننت أنه یأمرنی أن آخذ السیف فأضرب به جعفرا، فقلت إن أمرنی ضربت المنصور و إن أتی ذلک علیّ و علی ولدی و تبت إلی اللّه عزّ و جل ممّا کنت نویت فیه أولا، فما

---

(۱) لعلّه بساط من صوف.

(۲) ظاهر فی النسبة إلی معان.

(۳) الفقار خرزات الظهر، و یسمّی السیف بذی الفقار اذا کان فی متنه حزوز تشبه فقار الظهر.

زال یعاتبه و جعفر یعتذر إلیه، ثمّ انتضی السیف کلّه إلّا شیئا یسیرا منه، فقلت: إنا للّه مضی و اللّه الرجل، ثمّ أغمد السیف و أطرق ساعة، ثمّ رفع رأسه و قال له: اظنّک صادقا، یا ربیع هات العیبة من موضع فیه فی القبّة، فأتیت بها، فقال: ادخل یدک فیها و کانت مملوءة غالیة وضعها فی لحیته، و کانت بیضاء فاسودّت، و قال لی: احمله علی فاره من دوابی التی أرکبها و اعطه عشرة آلاف درهم و شیّعه إلی منزله مکرّما و خیّره إذا أتیت به المنزل بین المقام عندنا فنکرمه، أو الانصراف إلی مدینة جدّه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله، فخرجنا من عنده و أنا مسرور فرح لسلامة جعفر علیه السّلام و متعجّب ممّا أراده المنصور و ما صار إلیه من کفایته و دفاعه، و لا عجب من أمر اللّه عزّ و جل فلمّا صرنا فی الصحن قلت: یا ابن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله لا عجب ممّا عمل علیه هذا فی بابک، و ما أصارک اللّه إلیه من کفایته و دفاعه، و لا عجب من أمر اللّه عزّ و جل، و قد سمعتک تدعو عقیب الرکعتین بدعاء لم أدر ما هو إلّا أنه طویل، و رأیتک حرّکت شفتیک هاهنا اعنی الصحن بشیء لم أدر ما هو، فقال لی: أمّا الأوّل فدعاء الکرب و الشدائد، لم أدع به علی أحد قبل یومئذ، جعلته عوضا، من دعاء کثیر أدعو به إذا

قضيت صلاتى، لأنى لم أترک أن أدعو ما كنت أدعو به، و أمّا الذى حرّكت به شفتى فهو دعاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله يوم الأحزاب، حدّثنى أبى عن أبيه عن جدّه عن أمير المؤمنين صلوات اللّه عليهم عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قال: لمّا كان يوم الأحزاب كانت المدينة كالاكليل من جنود المشركين و كانوا كما قال اللّه عزّ و جل: «إذ جاءوكم من فوقكم و من أسفل منكم» «١» ثمّ ذكر الدعاء، ثمّ قال: لو لا الخوف من أمير المؤمنين

---

(١) الأحزاب: ١٠.

لرفعت إليک هذا المال، و لكن قد كنت طلبت منّى أرضى بالمدينة و أعطيتنى بها عشرة آلاف دينار فلم أبعک و قد وهبتها لک، قلت: يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله إنما رغبتى فى الدعاء الأوّل و الثانى، فاذا فعلت هذا فهو البرّ و لا حاجة لى الآن فى الأرض، فقال لى: إنّا أهل بيت لا نرجع فى معروفنا، نحن ننسخک الدعاء و نسلم إليک الأرض صر معى إلى المنزل فصرت معه كما تقدّم المنصور به، و كتب لى بعهد الأرض و أملى علىّ دعاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و أملى علىّ الذى دعاه بعد الركعتين ثمّ قال: فقلت: يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله لقد كثر استحثاث المنصور و استعجاله إيّاى و أنت تدعو بهذا الدعاء الطويل متمهّلا كأنّک لم تخفه، قال: فقال لى: نعم قد كنت أدعو بعد صلاة الفجر بدعاء لا بدّ منه، فأمّا الركعتان فهما صلاة الغداة خفّفتهما و دعوت بذلک الدعاء بعدهما، فقلت له: ما خفت أبا جعفر و قد أعدّ لک ما أعدّ، قال: ما أعدّ! خيفة اللّه دون خيفته، و كان اللّه عزّ و جل فى صدرى أعظم. منه، قال الربيع: كان فى قلبى ما رأيت من المنصور و من غضبه و حنقه على جعفر و من الجلالة فى اتساعه ما لم أظنّه يكون فى بشر، فلمّا وجدت منه خلوة و طيب نفس قلت: يا أمير المؤمنين رأيت منک عجبا، قال: ما هو؟ قلت: يا أمير المؤمنين رأيت غضبک على جعفر غضبا لم أرک غضبته على أحد قط، و لا على عبد اللّه بن الحسن و لا على غيره من كلّ الناس حتّى بلغ بک الأمر أن تقتله بالسيف و حتّى أنک أخرجت من سيفک شبرا ثمّ أغمدته، ثمّ عاتبته ثمّ أخرجت منه ذراعا، ثمّ عاتبته ثمّ أخرجته كلّه إلّا شيئا يسيرا، فلم أشكّ فى قتلک له، ثمّ انحلّ ذلک كلّه، فعاد رضى حتّى أمرتنى فسوّدت لحيته بالغالية التى لا يتغلّف منها إلّا أنت و لا تغلّف منها ولدک المهدى و لا من ولّيته عهدک، و لا عمومتک، و أجزته و حملته و أمرتنى بتشييعه مكرما، فقال: ويحک يا ربيع، ليس هو ممّا ينبغى أن

تحدّث به و ستره أولى، و لا أحبّ أن يبلغ ولد فاطمة فيفخرون و يتيهون بذلک علينا، حسبنا ما نحن فيه و لكن لا اكتمک شيئا، انظر إلى من فى الدار فنحّهم، قال: فنحّيت كلّ من فى الدار، ثمّ قال لى: ارجع و لا تبق أحدا، ففعلت، ثمّ قال: ليس إلّا أنا و أنت، و اللّه لئن سمعت ما ألقيه عليک من أحد لأقتلنّک و ولدک و أهلک أجمعين، و لآخذنّ مالک، قال: قلت: يا أمير المؤمنين أعيذک باللّه، قال: يا ربيع كنت مصرّا على قتل جعفر، و لا أسمع له قولا، و لا أقبل له عذرا، فلمّا هممت به فى المرّة الاولى تمثّل لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فإذا هو حائل بينى و بينه باسط كفّيه حاسر عن ذراعيه قد عبس و قطب فى وجهى، فصرفت وجهى عنه، ثمّ هممت به فى المرّة الثانية و انتضيت من السيف اكثر ممّا انتضيت منه فى المرّة الاولى فإذا أنا

برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قد قرب منّى و دنا شديدا و همّ بى لو فعلت لفعل فأمسكت، ثمّ تجاسرت و قلت: هذا من فعل الربيء «١» ثمّ انتضيت السيف فى الثالثة فتمثّل لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله باسطا ذراعيه قد تشمّر و احمرّ و عبس و قطب، حتّى كاد أن يضع يده علىّ فخفت و اللّه لو فعلت لفعل، و كان منّى ما رأيت، هؤلاء من بنى فاطمة لا يجهل حقّهم إلّا جاهل لا حظّ له فى الشريعة، فإيّاک أن يسمع هذا منک أحد، قال محمّد بن الربيع: فما حدّثنى به حتّى مات المنصور، و ما حدّثت به حتّى مات المهدى، و موسى «٢» و هارون «٣» و قتل محمّد «٤».

---

(١) كفعيل التابع للجن.

(٢) الهادى.

(٣) الرشيد.

(٤) الأمين.

السادسة:

يقول الشريف رضىّ الدين ابن طاوس: و قد استدعاه بها المنصور إلى بغداد مرّة ثانية بعد قتل محمّد و إبراهيم ابنى عبد اللّه بن الحسن «١» و قد روى ذلک عن صفوان بن مهران الجمّال «٢» قال: رفع رجل من قريش المدينة من بنى مخزوم إلى أبى جعفر المنصور، و ذلک بعد قتله لمحمّد و إبراهيم ابنى عبد اللّه بن الحسن، إن جعفر بن محمّد بعث مولاه المعلّى بن خنيس «٣» لجباية الأموال من شيعته، و أنه كان يمدّ بها محمّد بن عبد اللّه، فكاد المنصور أن يأكل كفّه على جعفر بن محمّد غيظا، و كتب إلى عمّه داود بن على، و داود أمير المدينة «٤» أن يسيّر إليه جعفر بن محمّد لا يرخص له فى التلوم «٥» و البقاء فبعث إليه داود بكتاب المنصور، و قال له: اعمل فى المسير إلى أمير المؤمنين فى غد و لا تتأخّر، قال صفوان: و كنت بالمدينة يومئذ فأنفذ إلى جعفر عليه السّلام فصرت إليه فقال لى:

تعهّد راحلتنا فإنا غادون فى غد إن شاء اللّه إلى العراق، و نهض من وقته و أنا معه إلى مسجد النبى صلّى اللّه عليه و آله و كان ذلک بين الاولى و العصر فركع فيه ركعات، ثمّ رفع يديه فحفظت يومئذ من دعائه: «يا من ليس له ابتداء و لا انتهاء «٦» يا من ليس له أمد و لا نهاية» الدعاء.

---

(١) و كان قتلهما عام ١۴۵، و قد عرفت من تعليقتنا على المرّة الخامسة أن تلک الدفعة لا تصحّ أن تكون إلى بغداد إلّا أن تكون بعد قتلهما، و أن بين انتقال المنصور إلى بغداد و بين وفاة الصادق سنتين و بعيد أن يرسل إليه فى هاتين السنتين مرّات عديدة.

(۲) سيأتى فى المشاهير من ثقات الرواة لأبى عبد اللّه عليه السلام.

(۳) سيأتى فى ثقات المشاهير أيضا.

(۴) و داود هذا هو الذى قتل المعلّى بن خنيس و استلب أمواله، و همّ بالصادق عليه السلام، فدعا عليه الصادق فعاجله اللّه بالهلاک، كما سيأتى فى باب استجابة دعائه.

(۵) التمكّث.

(۶) و لا انقضاء فى نسخة.

ص: ۱۱۰

قال صفوان: فلمّا أصبح أبو عبد اللّه عليه السّلام رحلت له الناقة و سار متوجّها إلى العراق حتّى قدم مدينة أبى جعفر «۱» و أقبل حتّى استأذن فأذن له، قال صفوان: فأخبرنى بعض من شهده عند أبى جعفر، قال: فلما رآه قرّبه و أدناه، ثمّ استدعى قصّة الرافع على أبى عبد اللّه عليه السّلام، يقول فى قصّته:

إن المعلّى بن خنيس مولى جعفر بن محمّد يجبى له الأموال من جميع الآفاق، و إنه مدّ بها محمّد بن عبد اللّه، فدفع إليه القصّة فقرأها أبو عبد اللّه فأقبل عليه المنصور فقال: يا جعفر بن محمّد ما هذه الأموال التى يجبيها لک المعلّى بن خنيس؟ فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام: معاذ اللّه من ذلک يا أمير المؤمنين، قال له: أ لا تحلف على براءتک من ذلک بالطلاق و العتاق، قال: نعم أحلف باللّه إنه ما كان من ذلک شيء، قال أبو جعفر: لا بل تحلف بالطلاق و العتاق فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام: أ ما ترضى بيمينى باللّه الذى لا إله إلّا هو، قال له أبو جعفر: لا تتفقّه علىّ، فقال أبو عبد اللّه: و أين يذهب بالفقه منى يا أمير المؤمنين «۲» قال له:

دع عنک هذا فإننى أجمع الساعة بينک و بين الرجل الذى رفع عليک حتّى يواجهک، فأتوا بالرجل و سألوه بحضرة جعفر عليه السّلام فقال: نعم هذا صحيح، و هذا جعفر بن محمّد، و الذى قلت فيه كما قلت، فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام: تحلف أيها الرجل إن هذا الذى رفعته صحيح، قال: نعم، ثمّ ابتدأ الرجل باليمين فقال: و اللّه الذى لا إله إلّا هو الطالب الغالب الحىّ القيوم، فقال

---

(۱) و هى بغداد، و كانت تسمّى مدينة أبى جعفر لأنه هو الذى بناها و كان انتقاله إليها عام ۱۴۶، و لعلّه فى هذه السنة دعا الصادق إليها.

(۲) ما كان ليخفى على المنصور ما عليه أهل البيت فى اليمين بالطلاق و العتاق و أنه لا يحنث الحالف كاذبا، أى لا تطلق نساؤه، و لا تعتق مماليكه، و لكنه حاول أن يحطّ من كرامة الصادق و ألّا يثبت له فقه خاص.

له جعفر علیه السّلام: لا تعجل فی یمینک، فإننی أستحلفک، قال المنصور: ما أنکرت من هذه الیمین؟ قال: إن اللّه تعالی حیّ کریم یستحی من عبده إذا أثنی علیه أن یعاجله بالعقوبة لمدحه له، و لکن قل أیها الرجل: أبرأ إلی اللّه من حوله و قوّته و ألجأ إلی حولی و قوّتی إنی لصادق برّ فیما أقول، فقال المنصور للقرشی:

احلف بما استحلفک به أبو عبد اللّه فحلف الرجل بهذه الیمین فلم یستتمّ الکلام حتّی أجذم و خرّ میّتا، فراع أبا جعفر ذلک و ارتعدت فرائصه، فقال: یا أبا عبد اللّه: سر من غد إلی حرم جدّک إن اخترت ذلک، و إن اخترت المقام عندنا لم نأل فی إکرامک و برّک، فو اللّه لا قبلت قول أحد بعدها أبدا» «۱».

السابعة:

ذکر الشریف أبو القاسم فی المرّة السابعة روایة عن محمّد بن عبد اللّه الاسکندری «۲» و أنه کان من ندماء المنصور و خواصّه، یقول محمّد، دخلت علیه یوما فرأیته مغتمّا و هو یتنفّس نفسا باردا، فقلت: ما هذه الفکرة یا أمیر المؤمنین، فقال لی: یا محمّد لقد هلک من أولاد فاطمة مقدار مائة أو یزیدون «۳» و قد بقی سیّدهم و إمامهم، فقلت له: من ذلک؟ قال: جعفر بن محمّد الصادق، فقلت: یا أمیر المؤمنین إنه رجل أنحلته العبادة و اشتغل باللّه عن طلب الملک و الخلافة، فقال: یا محمّد لقد علمت أنک تقول به و بإمامته و لکن الملک

---

(۱) و ذکر هذه الکرامة لأبی عبد اللّه علیه السلام جملة من علماء أهل السنّة عند استطرادهم لحیاة الصادق، منهم الشبلنجی فی نور الأبصار، و السبط فی التذکرة، و ابن طلحة فی مطالب السؤل، و ابن الصبّاغ فی الفصول، و ابن حجر فی الصواعق و غیرهم.

(۲) لیس له ذکر فی کتب رجالنا، و لم نعرف عنه روایة غیر هذه، و بها ذکره المتأخّرون، و الروایة صریحة فی تشیّعه.

(۳) أحسب أن هذه القصّة کانت بعد مقتل محمّد و إبراهیم لأن الحرب بالمدینة و بباخمری و السجون فی الهاشمیّة أهلکت العدد الکثیر من العلویّین هذا سوی من قتله صبرا، و لعلّ إرساله علیه کان إلی بغداد أیضا.

عقیم، و قد آلیت علی نفسی ألّا امسی عشیّتی هذه أو أفرغ منه، قال محمّد:

فو اللّه لقد ضاقت علیّ الأرض برحبها، ثمّ دعا سیّافا و قال له: إذا انا أحضرت أبا عبد اللّه الصادق و شغلته بالحدیث و وضعت قلنسوتی عن رأسی فهی العلامة بینی و بینک فاضرب عنقه، ثمّ أحضر أبا عبد اللّه علیه السّلام فی تلک الساعة و لحقته فی الدار و هو یحرّک شفتیه فلم أدر ما الذی قرأ، فرأیت القصر یموج کأنه سفینة فی لجج البحار، و رأیت أبا جعفر المنصور و هو یمشی بین یدیه حافی القدمین مکشوف الرأس قد اصطکت أسنانه و ارتعدت فرائصه، یحمرّ ساعة و یصفرّ اخری، و أخذ بعضد

أبى عبد اللّه و أجلسه على سرير ملكه و جثا بين يديه كما يجثو العبد بين يدى مولاه، ثمّ قال: يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله ما الذى جاء بک فى هذه الساعة؟ قال: جئتک يا أمير المؤمنين طاعة للّه و لرسوله صلّى اللّه عليه و آله و لأمير المؤمنين أدام اللّه عزّه «۱».

قال: ما دعوتک، و الغلط من الرسول، ثمّ قال: سل حاجتک، فقال:

أسألک ألّا تدعونى لغير شغل، قال: لک ذلک و غير ذلک، ثمّ انصرف أبو عبد اللّه عليه السّلام سريعا، و حمدت اللّه عزّ و جل كثيرا، و دعا أبو جعفر المنصور بالدواويج «۲» و نام و لم ينتبه إلّا فى نصف الليل، فلمّا انتبه كنت عند رأسه جالسا فسرّه ذلک، و قال: لا تخرج حتّى أقضى ما فاتنى من صلاتى فاحدّثک بحديث، فلمّا قضى صلاته أقبل على محمّد و حدّثه بما شاهده من الأهوال التى افزعته عند مجىء الصادق، و كان ذلک سببا لانصرافه عن قتله و داعيا لاحترامه و الاحسان إليه.

يقول محمّد: قلت له: ليس هذا بعجيب يا أمير المؤمنين، فإن أبا عبد اللّه

---

(۱) لا بدع لو قال له: طاعة للّه و لرسوله و لأمير المؤمنين، و إن لم تكن للمنصور طاعة، لأن الخوف على النفس و النفيس يلزمه بالمجىء، فتكون المحافظة عليهما واجبة و التخلّف إلقاء بالتهلكة.

(۲) بالجيم المعجمة جمع دواج كرمان و كغراب: اللحاف الذى يلبس.

وارث علم النبى صلّى اللّه عليه و آله و جدّه أمير المؤمنين عليه السّلام و عنده من الأسماء و سائر الدعوات التى لو قرأها على الليل لأنار، و لو قرأها على النهار لأظلم، و لو قرأها على الأمواج فى البحور لسكنت «۱».

قال محمّد: فقلت له بعد أيام: أ تأذن لى يا أمير المؤمنين أن أخرج إلى زيارة أبى عبد اللّه الصادق؟ فأجاب و لم يأب، فدخلت عليه و سلّمت و قلت له: أسألک يا مولاى بحقّ جدّک محمّد رسول ربّ العزّة صلّى اللّه عليه و آله أن تعلّمنى الدعاء الذى كنت تقرأه عند دخولک على أبى جعفر المنصور، قال: لک ذلک، ثمّ أخذ الصادق يصف لمحمّد شأن الدعاء قبل أن يورده له، ثم ذكر الدعاء و هو طويل «۲».

هذه بعض المحن التى شاهدها الصادق عليه السّلام من المنصور و تخلّص فيها ممّا أراده فيه بدعائه، و قد ذكر ابن طاوس طاب ثراه دفعتين اخريين يهمّ بهما المنصور فى قتل الصادق فيدفع اللّه عنه فيهما سوءه.

و ذكر بعض هذه المحن و سلامة الصادق من القتل فيها بدعائه جملة من أرباب التأليف عند استطرادهم لأحوال الصادق عليه السّلام، أمثال الشبلنجى فى نور الأبصار، و السبط فى التذكرة، و ابن طلحة فى مطالب السؤل، و ابن الصبّاغ فى الفصول المهمّة،

و ابن حجر فی الصواعق، و الشیخ سلیمان فی الینابیع، و الکلینی فی الکافی فی کتاب الدعاء، و المجلسی فی البحار ج ۱۱، و ابن شهرآشوب فی المناقب، و الشیخ المفید فی الإرشاد، و غیرهم.

---

(۱) هذا الکلام یدلّنا علی معرفة محمّد فوق تشیّعه، و العجب کیف یصارح المنصور بهذا، و لا عجب فإن المنصور أعلم من محمّد بشأن الصادق علیه السلام.

(۲) لم یفتنا ذکر هذه الأدعیة إلّا لأننا جمعناها فی صحائف اخری مع ما ظفرنا به من أدعیته الاخری فکان ما اجتمع عندنا کما أشرنا إلیه ما یناهز ۴۰۰ صحیفة بقطع هذا الکتاب مع علمنا أنه قد فاتنا الشیء الکثیر من دعائه.

مواقفه مع المنصور و ولاته

رزق أهل البیت فیما رزقوا الحکمة و کفی بها فضیلة، و لربما تعجب من مواقف الصادق مع المنصور و رجاله فإنک تارة تجده یلین بالقول و یجهد فی براءته و اخری یلاقیهم بالشدّة و العنف دون أن یعترف بشیء و إن أساءهم موقفه.

و الصادق أعرف بما یقول و یفعل، فقد یلین اذا عرف أن اللین أسلم، و قد یخشن إذا عرف أن الخشونة ألزم، و لیس اللین محمودا فی جمیع الأوقات و الحالات، غیر أن التمییز بین المواقف یحتاج إلی حکمة و عرفان، فبینا تجده یخاطب المنصور بقوله: «و اللّه ما فعلت و لا أستحلّ ذلک و لا هو من مذهبی و إنی ممّن یعتقد طاعتک فی کلّ حال و قد بلغت من السنّ ما قد أضعفنی عن ذلک لو أردته فصیّرنی فی بعض حبوسک حتّی یأتینی الموت فهو منّی قریب» و اذا به یقول للمنصور علی لسان الرسول: «فإن کففت و إلّا أجریت اسمک علی اللّه عزّ و جل فی کلّ یوم خمس مرّات» إلی کثیر من الموقفین، کما عرفت کثیرا من مواقف اللین، و ستعرف الآن بعض المواقف من الشدّة.

إنّا و إن غبنا عن ذلک العهد لکننا لم نغب عن معرفة نفسیّة الامام الصادق علیه السّلام و نفسیّة الدوانیقی، کما لم نغب عن تأریخ الحوادث فی ذلک العهد.

إن المنصور و إن ملک البلاد باسم الخلافة لکنه یعلم أن صاحبها حقا هو الصادق علیه السّلام، و أنه صاحب کلّ فضیلة و أنه لو أراد الأمر لم یطق المنصور

أن یحول دونه، فمن ثمّ تراه أحیانا یصفح عن و خزات الصادق علیه السّلام لا یرید أن تزداد الملاحاة فی الکلام فتثیر کوامن النفوس فتهیج ما یخافه من وثبة و ثورة، غیر أن شدّة الحبّ للملک و الملک عقیم، و الحبّ یعمی و یصمّ، تبعث المنصور علی

الاساءة للصادق و السعى لإهلاكه، فاذا عرف الصادق أن الموقف من الأوّل انبعث لإظهار الحقّ، و أن الموقف من الثانى قابله بلين ليكفّ بغيه و عدوانه.

و ها نحن أوّلا نورد بعض ما كان من الصادق مع المنصور و ولاته من المواقف التى يعلن فيها بالحقّ غير مكترث بما له من سطوة و لولاته من قسوة.

سأل المنصور الصادق عليه السّلام يوما عن الذباب و هو يتطايح على وجهه حتّى أضجره فقال له: يا أبا عبد اللّه لم خلق اللّه الذباب؟ فقال الصادق عليه السّلام: ليذلّ به الجبابرة «١» فسكت المنصور علما منه أنّه لو ردّ عليه لوخزه بما هو أمضّ جرحا، و أنفذ طعنا.

و كتب إليه المنصور مرّة: لم لا تغشانا كما تغشانا الناس؟ فأجابه الصادق عليه السّلام: «ليس لنا ما نخافک من أجله، و لا عندک من أمر الآخرة ما نرجوک له، و لا أنت فى نعمة فنهنّيک، و لا تراها نقمة فنعزّيک، فما نصنع عندک» فكتب إليه: تصحبنا لتنصحنا، فأجابه: «من أراد الدنيا لا ينصحک، و من أراد الآخرة لا يصحبک» فقال المنصور: و اللّه لقد ميز عندى منازل من يريد الدنيا ممّن يريد الآخرة، و انه ممّن يريد الآخرة لا الدنيا «٢».

أقول: إن المنصور ما أراد النصيحة لما يصلحه، و لو أراد صلاح نفسه

---

(١) نور الأبصار للشبلنجىّ: ص ١۴١.

(٢) كشف الغمّة فى أحوال الصادق عليه السلام عن تذكرة ابن حمدون: ٢/ ٢٠٨.

لاعتزل الأمر لئلّا يبوء بإثم هذه الامّة، و لكنه أراد أن يستصفى الصادق و يجعله من أتباعه، فيعلم الناس أنه الامام غير مدافع، و تنقطع الشيعة عن مراجعة الصادق، و يظهر لهم أنه تبع للمنصور، و الامام لا يكون تبعا لأرباب السلطان باختياره، و الصادق لا يخفى عليه قصد المنصور.

و كلمته هذه تعطينا درسا بليغا عن مواقف الناس مع الملوک و الامراء و عن منازل المتزلّفين إليهم، و كيف يجب أن تكون مواقف رجال الدين معهم.

و استقدمه المنصور مرّة و هو غضبان عليه، فلمّا دخل عليه الصادق عليه السّلام، قال له: يا جعفر قد علمت أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قال.

لأبیک علیّ بن أبی طالب علیه السّلام: لو لا أن تقول فیک طوائف من أمّتی ما قالت النصاری فی المسیح لقلت فیک قولا لا تمرّ بملإ إلّا أخذوا من تراب قدمیک یستشفون به، و قال علی علیه السّلام: یهلک فیّ اثنان و لا ذنب لی:

محبّ غال و مبغض مفرط، قال ذلک اعتذارا منه أنه لا یرضی بما یقول فیه الغالی و المفرط، و لعمری أن عیسی بن مریم علیه السّلام لو سکت عمّا قالت النصاری فیه لعذبه اللّه، و لقد تعلم ما یقال فیک من الزور و البهتان، و إمساکک عن ذلک و رضاک به سخط الدیّان، زعم أوغاد الحجاز و رعاع الناس أنک حبر الدهر و ناموسه، و حجّة المعبود و ترجمانه، و عیبة علمه و میزان قسطه، و مصباحه الذی یقطع به الطالب عرض الظلمة إلی ضیاء النور، و أن اللّه لا یقبل من عامل جهل حدّک فی الدنیا عملا، و لا یرفع له یوم القیامة وزنا، فنسبوک إلی غیر حدّک، و قالوا فیک ما لیس فیک، فقل فإن أوّل من قال الحقّ جدّک، و أوّل من صدقه علیه أبوک، و أنت حریّ أن تقتصّ آثارهما، و تسلک سبیلهما.

فقال علیه السّلام: أنا فرع من فروع الزیتونة، و قندیل من قنادیل بیت

النبوّة، و أدیب السفرة، و ربیب الکرام البررة، و مصباح من مصابیح المشکاة التی فیها نور النور، و صفوة الکلمة الباقیة فی عقب المصطفین إلی یوم الحشر.

فالتفت المنصور إلی جلسائه فقال: هذا قد حالنی علی بحر مواج لا یدرک طرفه و لا یبلغ عمقه، تحار فیه العلماء، و یغرق فیه السبحاء «۱» و یضیق بالسابح عرض الفضاء، هذا الشجی المعترض فی حلوق الخلفاء، الّذی لا یجوز نفیه، و لا یحلّ قتله، و لو لا ما تجمعنی و إیّاه شجرة طاب أصلها و بسق فرعها، و عذب ثمرها، و بورکت فی الذر، و قدّست فی الزبر، لکان منّی ما لا یحمد فی العواقب، لما یبلغنی عنه من شدّة عیبه لنا و سوء القول فینا.

فقال الصادق علیه السّلام: لا تقبل فی ذی رحمک و أهل الرعایة من أهل بیتک قول من حرّم اللّه علیه الجنّة، و جعل مأواه النار، فإن النمّام شاهد زور، و شریک إبلیس فی الإغراء بین الناس فقد قال اللّه تعالی: «یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ جاءَکُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَیَّنُوا أَنْ تُصِیبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلی ما فَعَلْتُمْ نادِمِینَ» «۲» و نحن لک أنصار و أعوان، و لملکک دعائم و أرکان، ما أمرت بالمعروف و الاحسان، و أمضیت فی الرعیّة أحکام القرآن، و أرغمت بطاعتک للّه أنف الشیطان، و إن کان یجب علیک فی سعة فهمک، و کثرة علمک، و معرفتک بآداب اللّه أن تصل من قطعک، و تعطی من حرمک، و تعفو عمّن ظلمک، فإن المکافی لیس بالواصل، إنما الواصل من إذا قطعته رحمه وصلها، فصل رحمک یزد اللّه فی عمرک، و یخفّف عنک الحساب یوم حشرک، فقال المنصور: قد صفحت عنک لقدرک، و تجاوزت عنک لصدقک، فحدّثنی عن نفسک بحدیث

---

(۱) جمع سابح.

(۲) الحجرات: ۶.

أتعظ به و يكون لى زاجر صدق عن الموبقات، فقال الصادق عليه السّلام:

عليک بالحلم فإنه ركن العلم، و املک نفسک عند أسباب القدرة فإنک إن تفعل ما تقدر عليه كنت كمن شفى غيظا، أو تداوى حقدا أو يحبّ أن يذكر بالصولة، و اعلم بأنک إن عاقبت مستحقّا لم تكن غاية ما توصف به إلّا العدل، و الحال التى توجب الشكر أفضل من الحال التى توجب الصبر، فقال المنصور:

وعظت فأحسنت، و قلت فأوجزت «۱».

أقول: إن أمثال هذه المواقف تعطيک دروسا وافيه عمّا كان عليه أهل ذلک العصر من سياسة و علم و اعتقاد و غيرها، و هنا نستطيع أن نتعرّف عدّة امور.

۱- إن المنصور يريد ألّا يظهر الصادق بمظهر الامامة فحاول أن يخدعه أمام الناس بتلک الكلمات الليّنة، و هنا تعرف دهاء المنصور، لأن العبّاسيّين إنما تربّعوا على الدست باسم الامامة و الخلافة، فلو كان هناک إمام آخر يرى شطر من الامّة أنه صاحب المنبر و التاج لا يتمّ لهم أمر، و هو يريد ألّا يعارضه أحد فى سلطانهم، فكان المنصور يدفع عن عرشه بالشدّة مرّة و باللين اخرى فكان من سياسته أن جابه الصادق أمام ملأ من الناس بهذا القول و حسب أنّ الصادق سوف يبطل ما يقوله الناس فيه، و به يحصل ما يريد، و هو يعلم أنّ الصادق لا يجبهه بالردّ، حذرا من سطوته.

۲- إن الصادق إمام بجعل إلهى كما يرى ذلک و يراه الشيعة فيه، و الامامة فى أهل البيت و فى الصادق ليست وليدة عصر المنصور، و إنما هى من عهد صاحب الرسالة، فالامام الصادق عليه السّلام وقع بين لحيى لهذم فإنه إن

---

(۱) بحار الأنوار: ۴۷/ ۱۶۸ فى أحوال الصادق عليه السلام.

جارى المنصور فقد أبطل إمامة إلهية، و إن عارضه لا يأمن من شرّه، ثمّ أجابه بكلمات مجملة لا تصرّح بالامامة و لا تبطل قول الناس فيه، و لذا قال المنصور «هذا قد حالنى على بحر موّاج لا يدرک طرفه».

۳- إن قول الشيعة فى الامام من ذلک اليوم على ما هو عليه اليوم، و هذا ما تقتضيه اصول المذهب، و تدلّ عليه أخبار أهل البيت و آثارهم.

۴- إن سكوت الامام الصادق و عدم إبطاله لأن يكون كما يقول الناس برهان على أن حقيقة الامامة كما يحكيها المنصور عن الناس، و لو كانت حقيقتها غير هذا لقال الصادق: إن هذا الرأى و القول باطل، بل لوجب عليه إعلام الناس ببطلانه و ردعهم عن هذا المعتقد.

۵- إن القائل بإمامة الصادق عليه السّلام خلق كثير من الناس، ممّا جعل المنصور يفكّر فيه و يخشى من اتساعه و من عقباه، فحاول أن يتذرّع بالصادق لمكافحته.

۶- إن المرء بأصغريه، فالامام الصادق لو لم تسبق الأخبار و الآثار عن منزلته، لكان فى مثل كلامه و مثل موقفه هذا دلالة على ما له من مقام، أ تراه كيف حاد عن جواب المنصور بما حيّره، دون أن يصرّح بخلاف ما حكاه عن الشيعة، و دون أن يصرّح بصحّة ما يرون، و كيف وعيت ذلک البيان منه عن نفسه، ببليغ من القول، و جليل من المعنى، و كيف وعظ المنصور بما يوافق شأن الملوک، و ما يتفق و ابتلاءهم كثيرا؟

و هذا بعض ما يمكن استنباطه من هذا الموقف و فهم حال الناس ذلک اليوم، و كفى به عن سواه.

و دخل على المنصور فى إحدى جيئاته فاستقبله الربيع بالباب و قال له: يا أبا عبد اللّه ما أشدّ تلظّيه عليک لقد سمعته يقول: و اللّه لا تركت له نخلا إلّا

عقرته، و لا مالا إلّا نهبته، و لا نهبته، و لا ذرّية إلّا سبيتها، فلمّا دخل و سلّم و قعد قال له المنصور: أما و اللّه لقد هممت ألّا أترک لكم نخلا إلّا عقرته، و لا مالا إلّا أخذته، فقال له الصادق عليه السّلام: يا أمير المؤمنين إن اللّه عزّ و جل ابتلى أيوب فصبر، و أعطى داود فشكر، و قدر «۱» يوسف فغفر، و أنت من ذلک النسل و لا يأتى ذلک النسل إلّا بما يشبهه، فقال: صدقت قد عفوت عنكم، فقال الصادق: إنه لم ينل أحد منّا أهل البيت دما إلّا سلبه اللّه ملكه، فغضب لذلک و استشاط، فقال: على رسلک إن هذا الملک كان فى آل أبى سفيان فلمّا قتل يزيد حسينا عليه السّلام سلبه اللّه ملكه، فورثه آل مروان فلمّا قتل هشام زيدا سلبه اللّه ملكه فورثه مروان بن محمّد، فلمّا قتل مروان إبراهيم الامام سلبه اللّه ملكه و أعطاكموه فقال: صدقت. «۲»

أقول: إن الصادق عليه السّلام ما اعتذر عن قوله الأول، و إنما جاء بالشواهد عليه، سوى إنه استعرض ذكر أخيه إبراهيم ليكفّ بذلک شرّه.

و للصادق عليه السّلام مواقف كثيرة على غرار ما ذكرناه اجتزينا عنها بما أوردناه.

و كانت للصادق عليه السّلام مواقف مع بعض ولاة المنصور رجاله تشبه مواقفه مع المنصور فى الشدّة، جاء إلى المدينة واليا من قبل المنصور بعد مقتل محمّد و إبراهيم رجل يقال له شيبة بن عفال، يقول عبد اللّه بن سليمان التميمى: فلمّا حضرت الجمعة

صار إلى مسجد الرسول صلّى اللّه عليه و آله فرقى المنبر و حمد اللّه و أثنى عليه، ثمّ قال: أمّا بعد فإن علىّ بن أبى طالب شقّ عصا

---

(١) أى جعله قادرا على الانتقام من اخوته.

(٢) الكافى: كتاب الدعاء، باب الدعاء للكرب و الهمّ و الحزن: ٢/ ٥٦٣.

المسلمين و حارب المؤمنين، و أراد الأمر لنفسه، و منعه أهله، فحرّمه اللّه عليه، و أماته بغصّته، و هؤلاء ولده يتبعون أثره فى الفساد و طلب الأمر بغير استحقاق له فهم فى نواحى الأرض مقتولون، و بالدماء مضرّجون.

فعظم هذا الكلام منه على الناس، و لم يجسر أحد منهم أن ينطق بحرف فقام إليه رجل فقال: و نحمد اللّه و نصلّى على محمّد خاتم النبيين و سيّد المرسلين و على رسل اللّه و أنبيائه أجمعين، أمّا ما قلت من خير فنحن أهله، و أمّا ما قلت من سوء فأنت و صاحبک به أولى، فاختبر يا من ركب غير راحلته و اكل غير زاده ارجع مأزورا.

ثمّ أقبل على الناس فقال: أ لا أنبئكم بأخلى الناس ميزانا يوم القيامة و أبينهم خسرانا، من باع آخرته بدنيا غيره، و هو هذا الفاسق، فأسكت الناس و خرج الوالى من المسجد لم ينطق بحرف، فسألت عن الرجل، فقيل لى: هذا جعفر بن محمّد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب صلوات اللّه عليهم أجمعين «١».

و عن الصادق عليه السّلام أنه قال: كنت عند زياد بن عبد اللّه و جماعة من أهل بيتى، فقال: يا بنى فاطمة ما فضلكم على الناس؟ فسكتوا، فقلت: إن من فضلنا على الناس إنّا لا نحبّ أن نكون من أحد سوانا، و ليس أحد من الناس لا يحبّ أن يكون منّا. «٢».

أقول: لقد جاءه بالمسكت و هذه الكلمة على اختصارها جمعت الفضائل و اغنت عن الدلائل.

---

(١) مجالس الشيخ الطوسى طاب ثراه، المجلس الثانى.

(٢) بحار الأنوار: ٤٧/ ١٦٦/ ٨ فى أحوال الصادق عليه السلام.

و كان داود بن على بن عبد اللّه بن العبّاس واليا على المدينة من قبل المنصور، فأرسل خلف المعلّى بن خنيس مولى الصادق عليه السّلام، و أراد أن يدلّه على أصحاب الصادق عليه السّلام و خواصّه، فتجاهل عليه المعلّى بمعرفتهم، فألحّ عليه ثمّ هدّده

بالقتل، فقال له المعلّى: أ بالقتل تهدّدنى و اللّه لو كانوا تحت قدمى ما رفعت قدمى عنهم، و إن أنت قتلتنى تسعدنى و أشقيتک، فلمّا رأى داود شدّة امتناع المعلّى قتله و استلب أمواله و كانت للصادق عليه السّلام.

فلما بلغ الصادق ذلک قام مغضبا يجرّ رداءه و دخل على داود و قال له:

قتلت مولاى و أخذت مالى، أ ما علمت أن الرجل ينام على الثكل و لا ينام على الحرب.

ثمّ أن الصادق عليه السّلام طلب منه القود، فقدّم له قاتله فقتله به، و هو صاحب شرطته، و لمّا قدّموه ليقتل اقتصاصا جعل يصيح: يأمرونى أن أقتل لهم الناس ثمّ يقتلوننى.

ثمّ أن داود بعد ذلک أرسل خمسة من الحرس خلف الصادق عليه السّلام و قال لهم: ائتونى به فإن أبى فائتونى برأسه، فدخلوا عليه و هو يصلّى فقالوا: أجب داود، قال: فإن لم اجب، قالوا: امرنا بأمر، قال: فانصرفوا فإنه خير لكم فى دنياكم و آخرتكم، فأبوا إلّا خروجه، فرفع يديه فوضعهما على منكبيه ثمّ بسطهما، ثمّ دعى بسبابته فسمع يقول: الساعة الساعة، حتّى سمع صراخ عال، فقال لهم: إن صاحبكم قد مات فانصرفوا.

أقول: هذه بعض مواقفه من رجال المنصور دعاه إلى الشدّة فيها الغضب للحق، حين وجد أن الكلام أولى من السكوت، و إن أبدى فيها صفحته للسيف.

ص: ١٢٣

الصادق فى العراق

قضت السياسة العبّاسيّة و حذق رجالها العاملين- و القدر من ورائهم- بتقويض ملک بنى مروان، و الحيلولة دون نجاح الحسنيين، و انتشار روح الامامة.

فى الناس للحسينيين، بيد أنهم أخطئوا فى سياسة الإرهاق و الإرهاب مع الصادق عليه السّلام، و حملهم إيّاه إلى العراق عدّة مرّات، لأنهم بهذا خدموا الإمامة و أظهروا أمر أهل البيت اكثر ممّا لو تركوه و ادعى فى مكانه.

ما زجت تربة العراق مودّة أهل البيت من بدء دخول الاسلام فيه، لا سيّما و قد صار برهة عاصمة سلطانهم، و به مدفن عدّة من أعاظم رجالهم، و به حوادث لهم لا ينساها الناس و التأريخ ما دام بشر على وجه الأرض، و ما دام تأريخ مسطور، كحادثة الطفّ و حادثة زيد.

و إن للنظر و المشاهدة أثرا لا يبلغه السماع، فإن الجمال اذا اجتذب الأرواح الشفّافة، و العواطف الرقيقة، فبالعيان لا بالآذان، نعم ربّ شىء يكون لسماعه أثر- و الاذن تعشق قبل العين أحيانا- إلّا أنّ السماع لا يماثل المشاهدة مهما بلغ تصويره مبلغا يجذب القلوب و المشاعر.

كما أن للمظلوميّة عاطفة فى القلوب، و رحمة فى النفوس، لا سيّما اذا كان المظلوم من أماثل الناس، و أعاظم العلماء.

فإذا غلب على القلوب حبّ الصادق عليه السّلام بالسماع، و اعتقد الناس

ص: ١٢۴

إمامته بالبرهان، فأين ذلک من مبلغ العيان، و مشاهدة البرهان، و سماع البيان، فكان لقدوم الصادق العراق بلاد الولاء للعترة، و لمشاهدة شمائله و فضائله، و لسماع عظاته و نوادر آياته أثر بليغ فى ميل النفوس إليه، و انعطافهم عليه، فوق ما يجدونه من السماع عنه، و ما كان الناس كلّهم يذهب للحجّ فيجتمع به، فكانت جملة من الأحاديث أخذوها عنه فى جيئاته إلى العراق.

و ربت على هذا كلّه مظلوميّته، فإن الناس كلّهم أو جلّهم يعلمون بأن الصادق مظلوم مقهور على هذا المجىء، و يعلمون بما ينالون منه من سوء أذى فى مجيئه، هذا فوق ما يعتقدونه من غضب مقامه و التضييق عليه، و الحيلولة دون نشر علومه و معارفه.

و ما كان حتّى الشيعة يعرفون عن الإمام من الشأن و القدر و العلم و الكرامة مثلما عرفوه عنه بعد مجيئه، لأن التقيّة و عداء السلطة حواجز دون نشر فضائله و الصادق عليه السّلام كما يقول عمرو بن أبى المقدام: كنت إذا نظرت إليه علمت أنه من سلالة النبيين، و كما يقول ابن طلحة فى مطالب السؤل: رؤيته تذكّر الآخرة، و استماع حديثه يزهد فى الدنيا، و الاقتداء بهديه يورث الجنّة، نور قسماته شاهد أنه من سلالة النبوّة، و طهارة أفعاله تصدع بأنه من ذوى الرسالة.

و من ثمّ تجد هشام بن الحكم و كان جهميا يعدل إلى القول بالإمامة لمحاورة الصادق له و نظره إليه، ذلک النظر الذى امتلأت نفسه منه جلالا و هيبة فأحسّ أن ذلک لشأن لا يكون إلّا للأنبياء و الأوصياء، فكان من آثار مجيئه إلى العراق هداية هشام، و أنت تعرف من هشام، و ما آثاره فى خدمة أهل البيت، و خدمة الدين «١».

---

(١) كتبت رسالة عن هشام بن الحكم استقصيت فيها قدر الامكان أخباره و آثاره.

ص: ١٢۵

و من آثار مجيئه إلى العراق إشادته لموضع قبر أمير المؤمنين عليه السّلام و دلالته خواصّ الشيعة عليه، و كان اكثرهم لا يعلمون موضعه على اليقين، سوى أنه على ظهر الكوفة فى النجف لأن أولاده جهدوا فى إخفائه خوفا من أعدائه فصارت الشيعة تقصده زائرين، و كان الصادق عليه السّلام يصحب فى كلّ زيارة بعض خواصّ أصحابه، و هو الذى أمر صفوان بن مهران الجمّال بالبناء عليه.

و قد ذكر شيخ الطائفة محمّد بن الحسن الطوسى فى كتابه التهذيب، فى كتاب المزار منه، فى باب فصل الكوفة عدّة زيارات للصادق عليه السّلام.

كما ذكر مثل ذلک الشيخ الكلينى طاب ثراه فى الكافى، و السيد ابن طاوس فى فرحة الغرى، و المجلسى فى مزار البحار و هو الجزء الثانى و العشرون، و الشيخ الحرّ العاملى فى وسائل الشيعة فى كتاب المزار الجزء الثانى إلى كثير غيرهم.

و نحن نورد لک بعض تلک الزيارات و الدلالات منه، قال الشيخ أبو جعفر الطوسى: إن الصادق عليه السّلام زار قبر أمير المؤمنين عليه السّلام عدّة مرات، منها يوم أقدمه السفّاح الحيرة، و منها ما يرويه عبد اللّه بن طلحة النهدى «١» يقول: دخلت على أبى عبد اللّه عليه السلام- ثمّ قال- فمضينا معه حتّى انتهينا إلى الغرى فأتى موضعا فصلّى فيه.

و ذكر أيضا مجيئه مرّة اخرى من الحيرة و معه يونس بن ظبيان «٢» و دعا عند القبر و صلّى و أعلم يونس أنه قبر أمير المؤمنين عليه السّلام بعد أن كان يونس لا يدرى أين هو سوى أنه فى الصحراء.

---

(١) عربى كوفى روى عن الصادق عليه السلام، و روى عنه جماعة من الثقات مثل على بن إسماعيل الميثمى و محمّد بن سنان و ابن محبوب.

(٢) الكوفى ممّن روى عن الصادق عليه السلام و جاءت فيه روايات قادحة و اخرى مادحة، و لكن روى عنه جماعة كثيرة من الثقات، و بعضهم من أصحاب الاجماع.

و روى الكلينى طاب ثراه عن يزيد بن عمرو بن طلحة «١» قال: قال أبو عبد اللّه عليه السّلام و هو بالحيرة: أ ما تريد ما وعدتک، قلت: بلى، يعنى الذهاب إلى قبر امير المؤمنين عليه السلام، قال: فركب و ركب إسماعيل و ركبت معهما حتّى اذا جاء الثوية و كان بين الحيرة و النجف عند ذكوات بيض «٢» نزل و نزل إسماعيل و نزلت معهما فصلّى و صلّى إسماعيل و صلّيت.

و روى عن أبان بن تغلب «٣» قال: كنت مع أبى عبد اللّه عليه السّلام فمرّ بظهر الكوفة فنزل فصلّى ركعتين، ثمّ تقدّم قليلا فصلّى ركعتين، ثمّ سار قليلا فنزل فصلّى ركعتين، ثمّ أخبر أبان أن الصّلاة الاولى عند قبر أمير المؤمنين عليه السّلام، و الثانية عند موضع رأس الحسين عليه السلام، و الثالثة عند منزل القائم.

و ذكر الشيخ الحرّ أن الصادق عليه السّلام زار قبر أمير المؤمنين نوبا عديدة منها ما عن الصدوق رحمه اللّه عن صفوان بن مهران الجمّال قال: سار الصادق عليه السّلام و أنا معه فى القادسيّة حتّى أشرف على النجف فلم يزل سائرا حتّى أتى الغرى فوقف به حتّى أتى القبر، فساق السّلام من آدم على كلّ نبى و أنا أسوق معه السّلام حتّى وصل السّلام إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله ثمّ خرّ على القبر فسلّم عليه و علا نحيبه، فقلت: يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: ما هذا القبر، فقال: قبر جدّى علىّ بن أبى طالب.

و ذكر المجلسى زيادة على ما سبق زيارات أخر، و ذكر زيارة صفوان معه بصورة أخرى، و فيها أن الصادق شمّ تربة أمير المؤمنين فشهق شهقة ظننت أنه

(۱) الكوفى، و لم نعرف عنه غير هذه الرواية، و كفى فى شأنه رواية الكلينى عنه.

(۲) جمع ذكوة، و هى الجمرة الملتهبة، و المأسدة، و لا يناسبان المقام و لعلّه أراد منها الربوات التى تحوط القبر، و شبّهها بالذكوات لبريقها، لأن أرض الغرى ذات رمل و حصى فيكون لها بريق و لمعان.

(۳) سوف نذكره فى المشاهير من ثقات الأصحاب للصادق عليه السلام.

فارق الدنيا، فلمّا أفاق قال: هاهنا و اللّه مشهد أمير المؤمنين، ثمّ خطّ تخطيطا، فقلت يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: ما منع الأبرار من أهل البيت من إظهار مشهده؟ قال: حذرا من بنى مروان و الخوارج أن تحتال فى أذاه.

و روى عن عمر بن يزيد «۱» انّه أتى عبد اللّه بن سنان «۲» فركب معه فمضيا حتّى أتيا منزل حفص الكناسى «۳» فاستخرجه و ركب معهما فمضوا حتّى أتوا الغرى، فانتهوا إلى قبر، فقال: انزلوا هذا قبر أمير المؤمنين، فقال له عبد اللّه: من أين علمت هذا؟ قال: أتيته مع أبى عبد اللّه عليه السّلام حيث كان بالحيرة غير مرّة، و خبّرنى أنه قبره.

و روى عن يونس بن ظبيان أنه كان عند الصادق عليه السّلام بالحيرة أيام مقدمه على أبى جعفر فى ليلة صحيانة مقمرة، إلى أن قال: فركب و ركبت معه و سار حتّى انتهينا إلى الذكوات الحمر، قال: ثمّ دنا من اكمة فصلّى عندها ثمّ مال عليها و بكى، إلى أن قال: قال: هو قبر أمير المؤمنين عليه السّلام و لعلّ هذه الرواية رواية يونس الاولى.

و روى عن أبى الفرج السندى «۴» أنه جاء من الحيرة مع الصادق عليه السّلام إلى الغرى و زار قبر أمير المؤمنين عليه السّلام.

و روى مثل ذلک عن عبد اللّه بن عبيد بن زيد «۵» و ذكر انّ عبد اللّه بن

(۱) ذكر أرباب الرجال أن عمر بن يزيد اثنان: أحدهما بيّاع السابرى و الآخر الصيقل، و قد رويا معا عن الصادق عليه السلام و لا يبعد أن يكونا معا ثقتين.

(۲) سنذكره فى ثقات المشاهير.

(۳) هو ابن عبد ربّه الكوفى و عداده فى أصحاب الصادق و استظهر الرجاليّون أنه إمامى.

(۴) و اسمه عيسى و عداده فى أصحاب الصادق و رواته.

(۵) لم يأت له ذكر فى كتب الرجال بهذا العنوان نعم جاء فى أصحاب الصادق رجال كثيرون

الحسن كان معه، و أن عبد اللّه أذّن و أقام و صلّى مع الصادق عليه السّلام.

و ظاهر هذا أن الزيارة كانت فى عهد السفّاح، لأنه استقدم عبد اللّه بن الحسن كما استقدم الصادق عليه السّلام.

و روى أيضا عن أبى العلاء الطائى «۱» حديثا طويلا يذكر فيه مجىء الصادق الى الحيرة، و ذيوع الخبر بالكوفة، و قعوده لانتظاره، و سؤاله عن القبر الذى فى الظهر عندهم و أنه قبر أمير المؤمنين عليه السّلام و قول الصادق: اى و اللّه يا شيخ حقّا و روى عن صفوان أنه كان يأتى القبر بعد ما عرّفه به الصادق عليه السّلام و يصلّى عنده مدّة عشرين سنة.

و قد ذكر السيّد الجليل عبد الكريم بن طاوس فى فرحة الغرى ما تقدم ذكره من الزيارات و غيرها شيئا كثيرا، و ليس القصد أن نوافيک بكلّ زيارة رويت له، و إنما كان القصد أن نوقفک على تلک السياسة الخرقاء التى صنعها العبّاسيّون مع أبى عبد اللّه عليه السّلام و ما كان لتلک الجيئات من آثار أظهرت أمر أهل البيت.

كان الصادق عليه السّلام يصحب فى كلّ زيارة واحدا أو اكثر من أصحابه ليدلّهم على القبر، و يصحب غيرهم فى الزيارة الاخرى ليكثر عارفوه و زائروه، فروى كثير من رجاله هذه الزيارات منهم صفوان الجمّال و محمّد بن مسلم الثقفى، و أبو بصير، و عبد اللّه بن عبيد بن زيد، و أبو الفرج السندى، و أبان بن تغلب، و مبارک الخبّاز «۲» و محمّد بن معروف الهلالى «۳» و أبو العلاء الطائى،

اسمهم عبد اللّه بن عبيد.

(۱) لم أقف على حاله.

(۲) لم تعرف عنه غير هذه الرواية.

(۳) له روايات عن الصادق عليه السلام.

و المعلّى بن خنيس، و زيد بن طلحة، و عمر بن يزيد، و يزيد بن عمرو، و عبد اللّه بن طلحة النهدى، و يونس بن ظبيان، الى غير هؤلاء.

و قد أعطى الصادق عليه السّلام صفوان الجمّال دراهم لتجديد بنائه و كان قد جرفه السيل، فمن هذا تعرف أن القبر كان ظاهرا و إنما كانوا يتكتّمون فى زيارته و الاشارة إليه ليبقى مخفيّا على الخوارج و بنى مروان، و من هاهنا يسأله أبو العلاء عن القبر

الذى عندهم بالظهر أ هو قبر أمير المؤمنين عليه السّلام؟ فلو لم يكن عندهم قبر ظاهر لما كان وجه لسؤاله، و يسأله صفوان حين خرّ على القبر، قائلا: يا ابن رسول اللّه ما هذا القبر؟

و فى عهد الصادق عليه السّلام عرف الناس القبر و دلّوه من تلك الزيارات و صاروا لا يسألونه عنه و إنما يسألون عن الآداب فى زيارته، كما سأله محمّد بن مسلم و صفوان و يونس بن ظبيان و غيرهم.

و من آثار الصادق عليه السّلام فى العراق من تلك الجيئات محرابه فى مسجد الكوفة، و يقع شرقىّ المسجد قريبا من سوره، بالقرب من قبر مسلم عليه السّلام و هو بيّن معروف فى المسجد ليس فى جواره محراب سواه و له صلاة و دعاء و محرابه فى مسجد سهيل (السهلة) و يقع فى وسط المسجد و له صلاة و دعاء و السبب فى ذلك معروف، و هو أن الصادق عليه السّلام كان فى الكوفة و دخل عليه بشّار المكارى «١» فأعلم الصادق أن جلوازا «٢» يضرب رأس امرأة يسوقها الى الحبس و هى تنادى بأعلى صوتها: المستغاث باللّه و رسوله، و لا يغيثها أحد، و قال: و لم فعل بها ذلك؟ قال: سمعت الناس يقولون: إنها عثرت فقالت:

لعن اللّه ظالميک يا فاطمة، فارتكب منها ما ارتكب، فقطع الصادق الأكل،

---

(١) لم أقف على ترجمته.

(٢) الجلواز- بالكسر- الشرطى.

و كان بين يديه رطب طبرزد «١» و لم يزل يبكى حتّى ابتلّ منديله و لحيته و صدره بالدموع، ثمّ ذهب الصادق من فوره و معه بشّار الى مسجد السهلة، فصلّى ركعتين و دعا «٢» فلمّا خرج جاء الرسول فأعلمه أنها اطلق سراحها، فاستّر لذلك، و بعث لها بصلة، و كانت قد أبت أن تقبل من الوالى شيئا و قد أعطاها مائتى درهم و كانت محتاجة «٣» و ما زال الناس يقصدون المسجد و المحراب و يدعون بذلك الدعاء فى طلب الحوائج.

و على ضفة نهر الحسينيّة فى كربلاء محراب و عليه بنية ينسب إلى الصادق و لعلّه صلّى فى هذا المكان يوم زار الحسين عليه السّلام و قد ذكر زيارته للحسين عليه السّلام الحسين ابن أبى العلاء الطائى فى خبره الطويل الذى أشرنا إليه و قد ذكره ابن طاوس فى الفرحة، و المجلسى فى البحار فى مزاره، و فى الحديث، فقلت له: جعلت فداک بأبى و امّى هذا القبر الذى أقبلت منه قبر الحسين؟ قال: اى و اللّه يا شيخ حقّا.

و فى الجانب الغربى من بغداد على ضفة النهر شمال جسره الغربى اليوم المعروف بالجسر القديم مكان يعرفه الناس بمدرسة الصادق و ليس فيه اليوم أثر بيّن و لعلّه أفاد بعض الناس فيه عند مجيئه الى بغداد على عهد المنصور.

و من الغريب أن الخطيب فى تأريخه لم يذكر الصادق عليه السّلام فيمن قدم بغداد، مع أنه ذكر ابنه الكاظم و حفيده الجواد عليهما السّلام.

و كفى ما ذكرناه من آثار الصادق فى مجيئه الى العراق عند إرسال السفّاح و المنصور عليه و ازدياد شأن أهل البيت به، و العود يذكو بالاحراق.

---

(١) قال فى القاموس: السكّر معرّب، و قال الأصمعى: طبرزن و طبرزل.

أقول: و لعلّ هذا الرطب سمّى بالطبرزد لشدّة حلاوته أو لتشابه الطعم بالسكر، و لعلّه ما يسمى اليوم عندنا بالطبرزل و هو من جيد الرطب.

(٢) ذكرنا هذا الدعاء فيما جمعناه من دعائه.

(٣) بحار الأنوار: ١٠٠/ ٤٤٠/ ٢١، مزار البحار: ٢٢/ ١٠٣

علمه إلهامى:

لا فضيلة كالعلم، فإن به حياة الامم و سعادتها، و رقيّها و خلودها، و به نباهة المرء و علوّ مقامه و شرف نفسه.

و لا غرابة لو كان العلم أفضل من العبادة أضعافا مضاعفه، لأنّ العابد صالح على طريق نجاة قد استخلص نفسه فحسب، و لكن العالم مصلح يستطيع أن يستخرج عوالم كبيرة من غياهب الضلال، و صالح فى نفسه أيضا، و قد فتح عينيه فى طريقه، و من فتح عينه أبصر الطريق و ليس فى الفضائل ما يصلح الناس و ينفعهم و يبقى أثره فى الوجود مثل العلم، فإن العبادة و الشجاعة و الكرم و غيرها اذا نفعت الناس فإنما نفعها ما دام صاحبها فى الوجود، و ليس له بعد الموت إلّا حسن الاحدوثة، و لكن العالم يبقى نفعه ما دام علمه باقيا، و أثره خالدا.

و قد جاء فى السنّة الثناء العاطر على العلم و أهله، كما جاء فى الكتاب آيات جمّة فى مدحه و مدح ذويه، و هذا أمر مفروغ عنه، لا يحتاج الى استشهاد و استدلال.

نعم إنما الشأن فى أن هذا الثناء خاصّ بالعلم الدينى و علمائه، أو عامّ لكلّ علم و عالم؟ إخال أن الاختصاص بعلم الدين و علمائه لا ينبغى الريب فيه

فإن الأحاديث صرّحت به، و كفى من الكتاب قوله تعالى: «إنما يخشى اللّه من عباده العلماء» «۱» و قد لا تجد خشية عند علماء الصنعة و ما سواهم غير علماء الدين، بل إن بعضهم قد لا تجده يعترف بالوجود أو بالوحدانيّة.

و ما استحق علماء الدين هذا الثناء إلّا لأنهم يريدون الخير للناس و يسعون له ما وجدوا سبيلا و متى كانوا وجدتهم أدلّاء مرشدين هداة منقذين.

و علم الدين إلهامى و كسبى، و الكسبى يقع فيه الخطأ و الصواب و الصحّة و الغلط، و غلط العالم و خطأه يعود على العالم كلّه بالخطإ و الغلط، لأن النّاس أتباع العلماء فى الأحكام و الحلال و الحرام، و اللّه جلّ شأنه لا يريد للناس إلّا العمل بالشريعة التى أنزلها، و الأحكام التى شرّعها، فلا بدّ إذن من أن يكون فى الناس عالم لا يخطأ و لا يغلط، و لا يسهو و لا ينسى، ليرشد الناس الى تلك الشريعة المنزلة منه جلّ شأنه، و الأحكام المشرّعة من لدنه سبحانه، فلا تقع الامّة فى أشراك الأخطاء و حبائل الأغلاط، و لا يكون ذلك إلّا اذا كان علم العالم وحيا أو إلهاما.

فمن هنا كان حتما أن يكون علم الأنبياء و أوصياءهم من العلم الإيحائى أو الإلهامى صونا لهم و للامم من الوقوع فى المخالفة خطأ.

و اللّه تعالى قد أنزل شريعة واحدة لا شرائع، و فى كلّ قضيّة حكما لا أحكاما، و نصب للامّة فى كلّ عهد مرشدا لا مرشدين، و نجدها اليوم شرائع و لها مشرّعون لا شريعة واحدة و مشرّعا واحدا، و نرى فى كلّ قضيّة أحكاما لا حكما واحدا، و فى كلّ زمن مرشدين متخالفين متنابذين بل يكفر بعضهم بعضا، و يبرأ بعضهم من بعض لا مرشدا واحدا، و ليس هذا ما جاء به المصلح

---

(۱) فاطر: ۲۸.

الأكبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و لا ما أراده لامّته.

فلا غرابة لو حكم العقل بأن الواجب عليه سبحانه أن ينصب فى كلّ عهد عالما يدلّ الناس على الشريعة كما جاءت، و يأتيهم بالأحكام كما نزلت، و هل يجوز ذلك على أحد سوى علىّ و بنيه؟ و هذه آثارهم العلميّة بين يديك فاستقرئها، لعلّك تجد على النور هدى، و لو لم يكن لدنيا أثر أو دليل إلّا قوله صلّى اللّه عليه و آله: «أنا مدينة العلم و علىّ بابها «۱»»، و قوله: «إنى تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه و عترتى أهل بيتى» «۲»، لكفى فى كون أهل البيت علماء الشريعة و الكتاب، الذين أخذوا العلم من معدنه، و استقوه من ينبوعه، و لو كان علمهم بالاكتساب لما جعلهم الرسول علماء الكتاب عمر الدهر دون الناس، و ما الذى ميّزهم على الناس اذا كانوا و الناس فى العلم سواء.

و ممّا يسترعى الانتباه أن الناس كانوا محتاجين الى علمهم أبدا، و كلّما رجعوا إليهم فى أمر وجدوا علمه عندهم، و ما احتاجوا إلى علم الناس أبدا.

و لا نريد أن نلمسک هذه الحقيقة بالأخبار دون الآثار، فإن فى الآثار ما به غنى للبصر، و هذه آثارهم شاهدة على صدق ما ادّعوه و ادعى فيهم، و أمر حقيق بأن تنتبه إليه، و هو أن الجواد عليه السّلام انتهت إليه الامامة و هو ابن سبع، و نهض بأعبائها، و قام بما قام به آباؤه من التعليم و الإرشاد، و أخذ منه العلماء خاضعين مستفيدين، و ما وجدت فيه نقصا عن علوم آياته و هذا علىّ بن جعفر شيخ العلويّين فى عهده سنّا و فضلا اذا أقبل الجواد يقوم فيقبّل يده، و إذا خرج يسوّى له نعله، و سئل عن الناطق بعد الرضا عليه السّلام فقال: أبو جعفر ابنه

---

(١) تاريخ بغداد: ٢/ ٣٧٧، و كنز العمال: ۶/ ١۵۶.

(٢) مسند أحمد بن حنبل: ۴/ ٣۶۶، و صحيح الترمذى: ٢/ ٣٠٨.

فقيل له: أنت فى سنّک و قدرک و أبوک جعفر بن محمّد تقول هذا القول فى هذا الغلام، فقال ما أراک إلّا شيطانا ثمّ أخذ بلحيته و قال: فما حيلتى إن كان اللّه رآه أهلا لهذا و لم ير هذه الشيبة لها أهلا «١» هذا و علىّ بن جعفر أخ الكاظم عليه السّلام و الكاظم جدّ الجواد، فما ذا ترى بينهما من السن، و على أخذ العلم من أبيه الصادق و أخيه الكاظم و ابن أخيه الرضا، فلو كان علمهم بالتحصيل لكان على اكثر تحصيلا، أو الإمامة بالسنّ لكان على اكبر العلويّين سنّا.

على أن الجواد قد فارقه أبوه يوم سافر الى خراسان و هو ابن خمس، فمن الذى كان يؤدّبه و يثقّفه بعد أبيه حتّى جعله بتلک المنزلة العليّة لو كان ما عندهم عن تعلّم و تأدّب؟ و لم لا يكون المعلّم و المثقف هو صاحب المنزلة دونه.

و مات الجواد و هو ابن خمس و عشرين سنة و أنت تعلم أن ابن هذا السنّ لم يبلغ شيئا من العلم لو أنفق عمره هذا كلّه فى الطلب فكيف يكون عالم الامّة و مرشدها، و معلّم العلماء و مثقّفهم، و قد رجعت إليه الشيعة و علماؤها من يوم وفاة أبيه الرضا عليه السلام؟

و هكذا الشأن فى ابنه علىّ الهادى عليه السّلام، فقد قضى الجواد و ابنه الهادى ابن ست أو ثمان، فمن الذى ثقّفه و جعله بذلک المحلّ الأرفع؟ و كيف رجعت إليه العلماء و الشيعة و هو ابن هذا السن؟ و ما ذا يحسن من كان هذا عمره لو كان علمه بالكسب؟

فالصادق كسائر الأئمة لم يكن علمه كسيبا و أخذا من أفواه الرجال و مدارستهم، و لو كان فممّن أخذ و على من تخرّج؟ و ليس فى تأريخ واحد من الأئمة عليهم السّلام أنه تلمذ أو قرأ على واحد من الناس حتّى فى سنّ الطفولة فلم

(۱) رجال الكشى ۲۶۹ و ۲۷۰.

ص: ۱۳۵

يذكر فى تأريخ طفولتهم أنه دخلوا الكتاتيب أو تعلّموا القرآن على المقرئين كسائر الأطفال من الناس، فما علم الامام إلّا وراثة عن أبيه عن جدّه عن الرسول عن جبرئيل عن الجليل تعالى، و سوف نشير الى بعض آثاره العلميّة و الى تعليمه لتلامذته، و ما سواها ممّا هو دخيل فى حياته العلميّة.

مدرسته العلميّة:

ما كان أخذ العلم عنه على الطراز الذى تجده اليوم من الحوزات العلميّة و النقاش فى الدليل و المأخذ، بل كان تلامذته يرون إمامته عدا قليل منهم، و الاماميّة كما تقدّم ترى أن علم الامام لا يدخل فيه الرأى و الاجتهاد فيحاسب الامام على المصدر و المستند، و إنما علمه إلهى موروث، نعم ربّما يسأله السائل عن علّة الحكم سؤال تعلّم و استفاده لا سؤال ردّ و جدل.

على أن من أخذوا عنه العلم من غير الاماميّة كانوا يرون جلالته و سيادته و إمامته «۱» و قد عدّوا أخذهم عنه منقبة شرفوا بها و فضيلة اكتسبوها «۲».

و هذا ابن أبى الحديد قد أرجع علم المذاهب الأربعة إليه فى الفقه «۳».

فكان السائل يأتى إليه و يستعلمه عمّا أشكل عليه، و كان الكثير منهم قد استحضر الدواة و القرطاس ليكتب ما يمليه عليه الامام ليرويه عنه عن تثبّت.

و إذا أردت أن تعرف مبلغ علمه فانظر إلى كثرة من استقى منه العلم فقد بلغ من عرفوه منهم أربعة آلاف أو يزيدون، و لما ذا روى هؤلاء كلّهم عنه و لم يرووا عن غيره، مع وفرة العلماء فى عصره، و لما ذا إذا روى أحد منهم عنه وقف

(۱) تهذيب الأسماء و اللغات و ينابيع المودّة.

(۲) مطالب السؤل.

(۳) شرح النهج: ۱/ ۶.

ص: ۱۳۶

عليه، و لا يسأل عمّن يروى ما أملاه، إلّا أن يخبر هو أن ما أملاه عن آبائه عن جدّه الرسول صلّى اللّه عليه و آله.

و ما كانت تلک المدرسة التی خرّجت ذلک العدد الجم مدرسة ترید أن تعلّم العلوم للذکر و الصیت و الفخر و الشرف، و ما کانت غایة تلامذتها إلّا أن یتعلّموا العلم للعلم و خدمة الدین و الشریعة، و من خالف هذه السیرة أبعده الامام عن حوزته، فکم طرد اناسا و لعن قوما خالفوه فی سیرته و سریرته و ما زالت عظاته و ارشاداته تسبق تعالیمه، أو تطّرد مع بیانه.

تعالیمه لتلامیذه:

ما اکثر تعالیمه و اکثر عظاته و نصائحه، و ستأتی لها فصول خاصّة، و إنما نذکر منها هاهنا ما یخصّ طلب العلم.

قال عمرو بن أبی المقدام «۱»: قال لی أبو عبد اللّه علیه السّلام فی أوّل مرّة دخلت علیه: تعلّموا الصدق قبل الحدیث «۲».

أقول: ما أثمنها نصیحة، و ما زال یوصی کلّ من دخل علیه من أولیائه بالصدق و أداء الأمانة، و لا بدع فإن بهما سعادة المرء فی هذه الحیاة، و وفرة المال و الجاه، و الطمأنینة إلیه، و الرضی به للحکومة بین الناس.

و أما إرشاده الی طلب العلم فما اکثر قوله فیه، فتارة یقول علیه السّلام:

لست أحبّ أن أری الشاب منکم إلّا غادیا فی حالین، إما عالما أو متعلّما، فان لم یفعل فرط، و إن فرط ضیّع، و إن ضیّع أثم «۳».

---

(۱) سیأتی فی ثقات المشاهیر من رجاله.

(۲) الکافی: باب الصدق و أداء الأمانة.

(۳) مجالس الشیخ الصدوق رحمه اللّه، المجلس/ ۱۱.

و اخری یقول: اطلبوا العلم و تزیّنوا معه بالحلم و الوقار «۱» و ما اقتصر علی حثهم علی طلب العلم، بل حثّهم علی ما یزدان به من الحلم و الوقار، بل و التواضع کما فی قوله علیه السّلام: «و تواضعوا لمن تعلّمونه العلم، و تواضعوا لمن طلبتم منه العلم، و لا تکونوا علماء جبّارین، فیذهب باطلکم بحقکم» «۲».

أقول: ما أدقّها نصیحة، و أسماه تعلیما، فإن العلم لا ینفع صاحبه و لا الناس ما لم یکن مقرونا بالتواضع، سواء کان المتحلّی به معلّما أو متعلّما، و أن الناس لتنفر من ذی الکبریاء، فیکون الجبروت ذاهبا بما عنده من حق.

و یقول علیه السّلام فی إرشاده لطالب العلم: و لا تطلب العلم لثلاث:

لترائى به، و لا لتباهى به، و لا لتمارى به، و لا تدعه لثلاث: رغبة فى الجهل و زهادة فى العلم، و استحياء من الناس، و العلم المصون كالسراج المطبق عليه «٣».

أقول: إن الصادق عليه السّلام يريد أن يكون طلب العلم للعلم و لنفع الامّة، فلو طلبه المرء للرياء أو المباهاة أو المجادلة لما انتفع و نفع، بل لتضرّر و أضرّ، كما أن تركه للرغبة فى الجهل و الزهد فى العلم كاشف عن الحمق، و لا خير فى حياء يقيمک على الرذيلة و يبعد عنک الفضيلة، و لا يكون انتفاع الناس بالعلم إلّا بنشره، و ما فائدة السراج اذا اطبق عليه.

و لنفاسة العلم حضّ على طلبه و إن كلّف غاليا، فقال: اطلبوا العلم و لو بخوض المهج و شقّ اللجج «۴».

---

(١) الكافى: ١/ ٣۶/ ١.

(٢) مجالس الشيخ الصدوق، المجلس/ ١٧، بحار الأنوار: ٢/ ۴١/ ٢.

(٣) بحار الأنوار: ١٧/ ٢٧٠.

(۴) الكافى: ١/ ٣۵/ ۵.

و لمّا كان للعلم أوعية و معادن نهاهم عن أخذ العلم من غير أهله فقال عليه السلام: اطلبوا العلم من معدن العلم و إيّاكم و الولائج فهم الصادّون عن اللّه «١».

أقول: إننا لنجد عيانا أن المتعلّم يتغذّى بروح معلّمه، و يتشبّع بتعاليمه، فالتلميذ الى الضلالة أدنى إن كان المعلّم ضالّا، و الى الهداية أقرب إن كان هاديا، لأن غريزة المحاكاة تقوى عند التلميذ بالقياس الى معلّمه.

و ما حثّ على طلب العلم فحسب، بل أراد منهم اذا تعلّموه أن يعملوا به فقال عليه السّلام: تعلّموا العلم ما شئتم أن تعلموا فلن ينفعكم اللّه بالعلم حتّى تعملوا به، لأن العلماء همّهم الرعاية، و السفهاء همّهم الرواية «٢» و قال: العلم الذى لا يعمل به كالكنز الذى لا ينفق منه أتعب نفسه فى جمعه و لم يصل الى نفعه «٣» و قال: مثل الذى يعلم الخير و لا يعمل به مثل السراج يضىء للناس و يحرق نفسه «۴» و قال: إن العالم اذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظته عن القلوب كما يزلّ المطر عن الصفا «۵».

و قد دلّهم على ما يحفظون به ما يتعلّمونه فقال عليه السّلام: اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتّى تكتبوا «۶».

و ممّا قاله للمفضّل بن عمر: اكتب و بثّ علمک فى إخوانک فإن متّ

(۱) کتاب زید الزراد و هو من الاصول المعتبرة.

(۲) بحار الأنوار: ۲/ ۳۷/ ۵۴.

(۳) بحار الأنوار: ۲/ ۳۷/ ۵۵.

(۴) بحار الأنوار: ۲/ ۳۸/ ۵۶.

(۵) بحار الأنوار: ۲/ ۳۹/ ۶۸.

(۶) الکافی: ۱/ ۵۲/ ۹.

فورّث کتبک بنیک، فإنّه یأتی زمان هرج ما یأنسون فیه إلّا بکتبهم «۱».

و قال: احتفظوا بکتبکم فإنکم سوف تحتاجون إلیها. «۲»

إنه علیه السّلام ما أراد فضیلة العلم لأهل زمانه فحسب، بل أرادها لکلّ جیل و عصر، کما أنه ما أوصاهم بالتعلّم إلّا لأن یجمعوا کلّ فضیلة معه کما ستعرفه من وصایاه، و کما تعرفه من قوله علیه السّلام.

فإن الرجل منکم اذا ورع فی دینه و صدق الحدیث، و أدّی الأمانة و حسن خلقه مع الناس، قیل هذا جعفری، و یسرّنی ذلک و یدخل علیّ منه السرور، و إن کان علی غیر ذلک دخل علیّ بلاؤه و عاره، و قیل هذا أدب جعفر «۳».

إن الصادق و آباءه من قبل و أبناءه من بعد جاهدوا فی حسن تربیة الامّة و توجیههم الی الفضائل، و ردعهم عن الرذائل بشتّی الوسائل، و لکن ما حیلتهم اذا کان الناس یأبون أن یسیروا بنهج الحقّ، و أن یتنکّبوا عن جادة الباطل.

و ما حضّ علی طلب العلم إلّا و حضّ علی العنایة بشأن العلماء و العطف علیهم، فقال علیه السّلام: إنی لأرحم ثلاثة، و حقّ لهم أن یرحموا: عزیز أصابته ذلّة، و غنیّ أصابته حاجة، و عالم یستخفّ به أهله و الجهلة «۴».

و قال علیه السّلام: ثلاثة یشکون الی اللّه عزّ و جل: مسجد خراب لا یصلّی به أهله، و عالم بین جهّال، و مصحف معلّق قد وقع علیه غبار لا یقرأ فیه «۵».

و قال إسحاق بن عمّار الصیرفی «۶»: قلت للصادق علیه السّلام: من قام من

(۱) الكافى: ۱/ ۵۲/ ۱۱.

(۲) الكافى: ۱/ ۵۲/ ۱۰.

(۳) الكافى: ۲/ ۶۳۶.

(۴) خصال الصدوق: ص ۸۷.

(۵) بحار الأنوار: ۹۲/ ۱۹۵.

(۶) سيأتى فى ثقات المشاهير من أصحابه عليه السلام.

ص: ۱۴۰

مجلسه تعظيما لرجل، قال عليه السّلام: مكروه إلّا لرجل فى الدين. و قال عليه السّلام: من اكرم فقيها مسلما لقى اللّه يوم القيامة و هو عنه راض، و من أهان فقيها مسلما لقى اللّه يوم القيامة و هو عليه غضبان «۱».

و ما اكثر ما جاء عنه عليه السّلام فى رعاية أهل العلم و تقديرهم، و اكرام العلماء و توقيرهم، و هكذا كان مجاهدا فى تثقيف أتباعه و تهذيبهم و تعليمهم الأخلاق الفاضلة.

الحديث:

عرفت أن الذى روى عنه الحديث أربعة آلاف راوية أو يزيدون و كان التدوين قبل عهده و كثر فى أوانه، و كان الحديث المدوّن عنه فى كلّ علم.

و كان الشيعة يأخذون عنه الحديث كمن يتلقّاه عن سيّد الرسل صلّى اللّه عليه و آله، لأنهم يعتقدون أن ما عنده عن الرسول من دون تصرّف و اجتهاد منه، و لذا كانوا يأخذون منه مسلّمين من دون شكّ و اعتراض، و يسألونه عن كلّ شىء يحتاجون إليه فكان حديثه المروى يجمع كلّ شىء.

و اذا كان الرواة أربعة آلاف أو اكثر، فما كان عدد الرواية؟ و لقد ذكر أرباب الرجال أن أبان بن تغلب وحده روى عنه ثلاثين ألف حديث، و محمّد بن مسلم ستة عشر ألف حديث و عن الباقر ثلاثين ألفا، و لا تسل عن مقدار ما رواه جابر الجعفى، فهل يحصى إذن عدد الرواية، و الفنون المرويّة عنه؟

و لقد بقى بالأيدى من تلك الرواية بعد ضياع الكثير و إهمال البعض ما ملأ الصحف و الطوامير.

(۱) بحار الأنوار: ۴۷/ ۴۴/ ۱۳.

ص: ۱۴۱

و قد جمعت شطرا من تلک الأحادیث التی رویت عنه و عن آبائه و أبنائه فی الأخلاق و الآداب و الأحکام فحسب، الکتب الأربعة (الکافی، و من لا یحضره الفقیه، و التهذیب، و الاستبصار) ثمّ جمعها الملّا محسن الفیض الکاشانی «۱» فی کتاب (الوافی)، و لمّا وجد الحرّ العاملی «۲» کتبا اخری تصلح لأن تکون مصدرا للأحکام خاصّة ضمّها الی ما فی الکتب الأربعة فألّف کتابه (تفصیل وسائل الشیعة) فکان ما روی عنه بلا واسطة ثمانین کتابا و بواسطة سبعین کتابا.

ثمّ جاء أخیرا العلّامة النوری میرزا حسین «۳» و قد وقف علی عدّة کتب اخری صالحة لأن تکون مصدرا، فجمع منها الشیء الوافر فی الأحکام خاصّة، و ألّفه علی نهج کتاب الوسائل للحرّ و سماه (مستدرک الوسائل).

هذا ما کان فی الأحکام خاصّة، و أما فی الأخلاق و الآداب، فلم یجمع فیهما من الکتب الأربعة إلّا الکافی، و اکثر ما روی فیها کان عنه علیه السّلام خاصّة، و لو شئت أن تحصی الکتب التی روت عنهم و عنه لأعیاک العدّ، فهذا الشیخ الصدوق محمّد بن علی بن بابویه وحده قد ألّف عشرات الکتب التی اشتملت علی أحادیثهم.

(۱) صاحب التآلیف القیّمة الکثیرة، و قیل إنها قریب من مائة مؤلّف منها کتاب الوافی و فیه شروح جمّة علی الأحادیث، و کتاب الصافی فی التفسیر، و الشافی مختصره، و المحجّة البیضاء فی إحیاء الأحیاء، و الحقائق ملخّصه، و مفاتیح الشرائع فی الفقه، و علم الیقین، و عین الیقین و غیرها توفی عام ۱۰۹۱.

(۲) هو محمّد بن الحسن بن علی الحرّ العاملی، و کتابه الوسائل من أنفس الکتب فی ترتیبه و تبویبه، و کان فراغه من تألیفه فی منتصف رجب عام ۱۰۸۲، و له کتاب أمل الآمل فی علماء جبل عامل، و کانت ولادته عام ۱۰۳۳ ثامن رجب فی قریة مشغرة من جبل عامل و وفاته فی خراسان ۲۱ من شهر رمضان عام ۱۱۰۴.

(۳) صاحب التآلیف الجمّة القیّمة، و کان دأبه الجمع و التألیف توفی عام ۱۳۲۰.

ص: ۱۴۲

و کفی فی وفرة الحدیث عنهم ما جمعه بحار الأنوار للعلّامة المجلسی «۱».

و إن اشتمل علی الغثّ و السمین شأن المؤلّفات الواسعة، غیر أنک اذا استقریت بعض کتبه عرفت وفرة ما فیه، و من الغریب أن یکون هذا الکتاب الجامع الذی لم یؤلّف مثله حتّی الیوم قد فاته الشیء الکثیر من حدیثهم، فتصدّی بعض علماء العصر وفّقه اللّه «۲» لجمع کتاب مستدرک للبحار و قد جمع الی الیوم فیه الشیء الکثیر.

و كان الصادق عليه السّلام يرغّب أصحابه فى رواية الحديث فيقول لمعاوية بن وهب «٣» الراوية للحديث: المتفقّه فى الدين أفضل من ألف عابد لا فقه له و لا رواية.

أقول: و لا إخالک تستغرب من هذا التفضيل، لأن اللّه تعالى يريد من عباده أن ينفع بعضهم بعضا، و يصلح بعضهم بعضا، و العابد صالح، و المحدّث المتفقّه مصلح و صالح.

الفقه:

إن الفقه هو معرفة الأحكام الفرعيّة من الطهارات الى الديات، و هذه الأحكام مأخوذة من الأدلّة الأربعة و اكثرها شرحا و بسطا- السنّة- و هى

---

(١) هو شيخ الاسلام الشيخ محمّد باقر ابن الشيخ محمد تقى المجلسى طاب ثراه و كان فى أيّامه صاحب النفوذ فى دولة الشاه حسين الصفوى و كانت حوزته العلميّة تجمع ألف تلميذ، و له مؤلّفات أخرى جليلة سوى البحار، و كانت ولادته عام ١٠٣٧، و وفاته عام ١١١٠ أو ١١١١ فى اصفهان، و بها اليوم مرقده معروف يزار.

(٢) هو العلّامة الجليل الكبير سنّا و أخلاقا ميرزا محمّد الطهرانى نزيل سامراء اليوم.

(٣) الظاهر أنه البجلى الكوفى، الثقة الجليل، و قد روى عن الصادق و الكاظم عليهما السلام، و له كتاب رواه عنه جماعة من أجلّاء الرواة.

حديث الرسول و أهل بيته عند الشيعة، فكتب الشيعة فى الفقه مأخوذة من هذه الأدلّة الأربعة، و اكثر السنّة حديثا هو الحديث الصادقى، و لو لا حديثه لأشكل على العلماء استنباط اكثر تلک الأحكام.

و ما كان فقهاء الشيعة عيالا عليه فحسب، بل أخذ كثير من فقهاء السنّة الذين عاصروه الفقه عنه، أمثال مالک و أبى حنيفة و السفيانين و أيوب و غيرهم، كما ستعرفه فى بابه، بل ان ابن أبى الحديد فى شرح النهج (١: ٦) أرجع فقه المذاهب الأربعة إليه، و هذا الآلوسى فى مختصر التحفة الاثنى عشريّة ص ٨ يقول: و هذا أبو حنيفة و هو بين أهل السنّة كان يفتخر و يقول بأفصح لسان: لو لا السنّتان لهلک النعمان، يريد السنّتين اللتين صحب فيها الامام جعفر الصادق عليه السّلام لأخذ العلم.

فكان الحقّ أن يصبح أبو عبد اللّه عليه السّلام فقيه الاسلام الوحيد، و كفى من فقهه كثرة الرواية و الرواة عنه، و من سبر كتب الحديث عرف كثرة الحديث الصادقى، و كثرة رواته و قد عاصره فقهاء كثيرون، فما بلغ رواة أحدهم ما بلغه رواته، و ما أنفق فى هذه السوق أحد مثلما أنفقه من علم وفقه، و ما سئل عن شيء فتوقّف فى جوابه.

إن الفقه النظام العامّ للناس، و لا يعرف الدين بسواه، و من هنا أمر الصادق رجاله بالتفقّه فى الدين فقال عليه السّلام:

«حديث فى حلال و حرام تأخذه من صادق خير من الدنيا و ما فيها من ذهب أو فضّة».

و قال عليه السّلام: «لا يشغلک طلب دنياک عن طلب دينک فان طالب الدنيا ربّما أدرک و ربّما فاتته فهلک بما فاته منها».

و قال حرصا على التفقّه فى الدين: «ليت السياط على رءوس أصحابى

حتى يتفقّهوا فى الحلال و الحرام».

و قال عليه السّلام: «تفقّهوا فى الدين، فإنه من لم يتفقّه منكم فهو اعرابى» «۱».

و سئل عن الحكمة فى قوله تعالى: «و من اوتى الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا» «۲» فقال: «إن الحكمة المعرفة و التفقّه فى الدين» «۳».

و الفقيه عنده العارف بالحديث، فقال عليه السّلام: «اعرفوا منازل شيعتنا بقدر ما يحسنون من رواياتهم عنّا، فإنّا لا نعدّ الفقيه منهم فقيها حتّى يكون محدّثا». «۴»

الأخلاق:

إن علم الأخلاق لم يكن بدء الأمر مبوّبا، و إنما كانت الأخلاق تلتقط من تلک الآيات الكريمة التى جاء بها الكتاب الحكيم «۵» و من كلام سيّد الأنبياء و سيّد الأوصياء و أبنائهما الحكماء عليهم جميعا سلام اللّه، و إنما ابتدأ التأليف فيه عند الشيعة فى أخريات القرن الثانى من إسماعيل بن مهران بن أبى نصر السكونى و كان من أصحاب الرضا عليه السّلام و ثقات الرواة و له كتاب صفة المؤمن و الفاجر، ثمّ ألّف فيه من رجال القرن الثالث أبو جعفر أحمد بن محمّد بن خالد البرقى، و كان من ثقات الرواة و أبوه محمّد من أصحاب الرضا عليه السّلام

---

(۱) بحار الأنوار: ۱/ ۲۱۵/ ۱۹.

(۲) البقرة: ۲۶۹.

(۳) بحار الأنوار: ۱/ ۲۱۵/ ۲۵.

(۴) بحار الأنوار: ۲/ ۸۲/ ۱.

(۵) جمعت الشیء الکثیر من الآیات الأخلاقیّة و علّقت علیها موجزا من البیان و سمّیته: القرآن تعلیمه و إرشاده.

ص: ۱۴۵

و ثقات رواته، و کتاب أبی جعفر (المحاسن) من محاسن الکتب، و کانت وفاته عام ۲۷۴ أو ۲۸۰ فی قم، و من رجال هذا القرن المؤلّفین فی الأخلاق الحسن ابن علی بن شعبة، و کتابه تحف العقول و هو کتاب نفیس یشتمل علی الحکم و المواعظ و الأخلاق لکل إمام إمام، ثمّ اتّسع التألیف فی الأخلاق فکان من أفضله اصول الکافی لثقة الاسلام الکلینی طاب ثراه المتوفی عام ۳۲۹، الذی جاهد طوال السنین فی تألیف هذا الکتاب حتّی جعله منتخبا فی أحادیثه و أسانیده، و لو ألقیت نظرة علی کتبه و أبوابه لعرفت ما هی الأخلاق و ما علم الصادق و أهل البیت فی الأخلاق.

و لو أمعن الناظر فی هذا الکتاب لعرف أن أفضل مصدر لعلم الأخلاق بعد الکتاب الحکیم کلام من کان علی خلق عظیم، و کلام من ورثوا عنه کلّ علم و فضل، و سوف تجد صدق ذلک اذا قرأت المختار من کلام الصادق علیه السّلام فی هذا الکتاب.

التفسیر:

کان فی الحدیث عن أهل البیت الذی أشرنا إلیه موارد جمّة للتفسیر حتّی أن بعض المفسّرین جعلوا تفسیرهم کلّه مبنیّا علی الحدیث، و اذا شئت أن تعرف شیئا من کلام الصادق علیه السّلام فی التفسیر فدونک (مجمع البیان) فإنه قد أورد شیئا من أحادیثه فی تفسیره، و قد یشیر الی رأی أهل البیت مستظهرا ذلک من حدیثهم.

و أن هناک مؤلّفات عدیدة فی آیات الأحکام، و قد علّق علیهما المؤلّفون ما جاء فی تفسیرها و الاشارة الی مفادها من طریق أهل البیت و أحادیثهم، و الحدیث الوارد عن سیّد الرسل فی عدّة مقامات و من عدّة طرق: «إنی تارک

ص: ۱۴۶

فیکم الثقلین کتاب اللّه و عترتی أهل بیتی، ما إن تمسّکتم بهما لن تضلّوا بعدی أبدا فإنهما لن یفترقا حتّی یردا علیّ الحوض» یعرّفنا مبلغ علمهم بالقرآن، و ان فی کلّ زمن عالما منهم بالقرآن، و تشفع لهذا الحدیث الأخبار الکثیرة الواردة عن أهل البیت فی شأن علمهم بالقرآن، و الصادق نفسه یقول: و اللّه إنی لأعلم کتاب اللّه من أوّله الی آخره کأنه فی کفّی، فیه خبر السماء و خبر الأرض، و خبر ما کان و خبر ما هو کائن، قال اللّه عزّ و جل «فیه تبیان کلّ شیء» «۱».

و یفرج أصابعه مرّة اخری فیضعها علی صدره و یقول: «و عندنا و اللّه علم الکتاب کلّه» «۲» الی کثیر أمثال ذلک.

و لا بدّ فی کلّ زمن من عالم بالقرآن الکریم علی ما نزل، کما یشهد لذلک حدیث الثقلین، و لأن القرآن إمام صامت و فیه المحکم و المتشابه، و المجمل و المبیّن، و الناسخ و المنسوخ، و العامّ و الخاصّ، و المطلق و المقیّد، الی غیر ذلک ممّا خفی علی الناس علمه، و کلّ فرقة من الاسلام تدّعی أن القرآن مصدر اعتقادها و تزعم أنها وصلت الی معانیه و اهتدت الی مقاصده و تأتی علی ذلک بالشواهد، فالقرآن مصدر الفرق بزعم أهل الفرق، فمن هو الحکم الفصل لیردّ قوله و تفسیره شبه هاتیک

الفرق، و مزاعم هذه المذاهب؟ و قد دلّ حديث الثقلين على أن علماء القرآن هم العترة أهل البيت خاصّة و منهم يكون العالم به فى كلّ عصر.

و فى عصره عليه السّلام اذا لم يكن هو العالم بالقرآن فمن غيره؟ ليس فى الناس من يدّعى أن فى أهل البيت أعلم من الصادق فى عهده فى التفسير أو فى

---

(١) يريد الاشارة الى قوله «وَ نَزَّلْنا عَلَيْکَ الْکِتابَ تِبْياناً لِکُلِّ شَيْءٍ».

(٢) الكافى: ١/ ٢٢٩/ ٥.

سواه من العلوم.

علم الكلام:

نعنى من علم الكلام العلم الذى يبحث عن الوجود و الوحدانيّة و الصفات و ما يلزم هذه المباحث من نبوّة و إمامة و معاد، بالأدلّة العقليّة المبتنية على اسس منطقيّة صحيحة، و لا نعنى به علم الجدل الذى تاه فيه كثير من الناس لاعتمادهم فيه على خواطر توحيها إليهم نفوس ساقها الى الكلام حبّ الغلبة فى المجادلة،، دون أن يستندوا الى ركن وثيق أو يأخذوا هذا العلم من معدنه الصحيح.

و إن جاء ذمّ على ألسنة الأحاديث للمتكلّمين فيعنى بهم الذين تعلّموا الجدل للظهور و الغلبة و لم يستقوا الماء من منبعه، و لم يعبئوا بما يجرّهم إليه الكلام من لوازم فاسدة، و أمّا الذين انتهلوه من مورده الروى و بنوه على اسس صحيحة و دعائم وجدانيّة فإنهم ألسنة الحقّ و هداته و دعاة الايمان و أدلاؤه.

و إن أوّل من برهن على الوجود و لوازم الوجود بالأدلّة العقليّة و الآثار المحسوسة أمير المؤمنين عليه السّلام حتّى كاد أن يشكّ فى تلك الخطب بعض من يجهل أو يتجاهل مقام أبى الحسن من العلم الربّانى بدعوى أن العلم على تلك الاصول لم يكن معهودا فى ذلک الزمن، و ليت شعرى إن لم يعترف هذا الجاهل بأن علم أبى الحسن إلهامى يستقيه من المنبع الفيّاض فإنه لا يجهل ما قاله النبى صلّى اللّه عليه و آله فيه: أنا مدينة العلم و علىّ بابها.

و نسج على منوال أبى الحسن بنوه فى هذا العلم فإنهم ما زالوا يفيضون على الناس من علمهم الزاخر عن الوجود و لوازمه، و كيف يعبد الناس ربّا لا يعرفونه و يطيعون نبيّا يجهلونه و يتّبعون إماما لا يفقهون مقامه، فالمعرفة قبل كلّ علم

و أفضل كلّ علم، يقول الصادق عليه السّلام: أفضل العبادة العلم باللّه «۱».

و ليس للسمع فى تلك القواعد و الاصول مدخل، لأن التقليد فى العقليّات لا يصحّ عند أرباب العقول.

بلى قد يجىء النقل دليل و لكنه من الارشاد الى حكم العقل، أو الاشارة الى الفطرة كما فى قوله تعالى: «أ فى اللّه شكّ فاطر السموات و الأرض» «۲» و أمثاله من القرآن المجيد، فإن هذه الآية الكريمة لم تحمّلک على القول بالوجود حتما، بل لفتتک إليه من جهة الأثر و مشاهدته.

فاذا جاء عن الرسول و عترته أدلّة على هذه الاصول فما كلامهم فى هذا إلّا إرشاد الى حكم العقل، فإنهم ما زالوا يدلّون على العقل و يهدون الى دلالته، و هذا الصادق نفسه يقول: العقل دليل المؤمن، و يقول: دعامة الانسان العقل، و يقول: لا يفلح من لا يعقل «۳»، و لو قرأت ما أملاه الكاظم عليه السّلام على هشام بن الحكم فى شأن العقل و العقلاء «۴» لعرفت كيف عرفوا حقيقة العقل، و دلّوا عليه و حثّوا على الاستضاءة بنوره.

و لقد جاء فى كلامهم الشىء الكثير من الاستدلال على هذه الاصول، و هذا نهج البلاغة قد جمع من البراهين ما أبهر العقول و حيّر الألباب، كما جمعت كتب الحديث و الكلام كثيرا من تلك الحجج، و من تلك الكتب احتجاج الطبرسى، و اصول الكافى، و توحيد الصدوق، و الأوّل و الثّانى من البحار، و فى كتبه الاخرى التى يترجم فيها الأئمة عليهم السّلام و يذكر كلامهم طىّ

---

(۱) بحار الأنوار: ۲۱۵/ ۲۱.

(۲) إبراهيم: ۱۰.

(۳) الكافى: ۱/ ۲۶/ ۲۹.

(۴) الكافى: ۱/ ۱۳/ ۱۲.

تراجمهم، الى نظائر هذه الكتب الجليلة.

و نحن الآن نوافيک بشىء ممّا جاء عن الصادق عليه السّلام فى بعض هذه الاصول.

الوجود و التوحيد:

إن للصادق عليه السّلام فصولا جمّة فى التدليل على وجوده و وحدانيّته تعالى، منها توحيد المفضّل، و هو الدروس التى ألقاها على المفضّل بن عمر الجعفى الكوفى أحد أصحابه الذين جمعوا بين العلم و العمل، و رسالته المسمّاة بالاهليلجة، المرويّة عن

المفضّل أيضا، غير أن التوحيد أخذه منه شفاها، و الرسالة رواها مكاتبة و هاتان الرسالتان و إن كانتا مقطوعتى السند غير أن البيان يفصح لک عن صدق النسبة، و لو لا أن نخرج عن خطّتنا المرسومة لأتينا بهما جميعا مع بعض التعاليق الوجيزة، غير أننا نأتى بشىء منهما لئلّا يخلو هذا السفر من تلک العقود النفيسة.

توحيد المفضّل:

سمع المفضّل ابن أبى العوجاء و الى جانبه رجل من أصحابه فى مسجد النبى صلّى اللّه عليه و آله و هما يتناجيان فى ذكر النبى صلّى اللّه عليه و آله و يستغربان من حكمته و حظوته، ثمّ انتقلا الى ذكر الأصل فأنكر وجوده ابن أبى العوجاء و زعم أن الاشياء ابتدأت بإهمال، فأزعج ذلک المفضّل فلم يملک نفسه غضبا و غيظا، ثمّ أنحى عليه يسبّه، و بعد مناظرة جرت بينهما قام المفضّل و دخل على الصادق عليه السّلام، و الحزن لائح على شمائله، يفكّر فيما ابتلى به الاسلام و أهله من كفر هذه العصابة و تعطيلها، فسأله الصادق عليه السّلام عن شأنه

ص: ۱۵۰

حين رأى الانكسار باديا على وجهه، فأخبره بما سمعه من الدهرتين، و بما ردّ عليهما به، فقال الصادق عليه السّلام: لألقينّ إليک من حكمة البارى جلّ و علا فى خلق العالم و السباع و البهائم و الطير و الهوام و كلّ ذى روح من الأنعام، و النبات و الشجرة المثمرة و غير ذات الثمر و الحبوب و البقول المأكول و غير المأكول ما يعتبر به المعتبرون، و يسكن إلى معرفته المؤمنون و يتحيّر فيه الملحدون فبكّر علىّ غدا.

حقّا لقد ألقى الصادق عليه السّلام على المفضّل من البيان ما أنار به الحجّة و أوضح الشبهة، و لم يدع للشكّ مجالا، و للشبهة سبيلا، و أبدى من الكلام عن بدائع خلائقه، و غرائب صنائعه، ما تحار منه الألباب، و تندهش منه العقول، و أظهر من خفايا حكمه ما لا يهتدى إلّا أمثاله ممّن اوتى الحكمة و فصل الخطاب.

و كلّما حاولت أن أنتخب فصولا خاصّة من تلک البدائع لم أطق، لأنى أجدها كلّها منتخبة، و أن أقتطف من كلّ روضة زهرتها اليانعة لم أستطع لأنى أراها كلّها وردة واحدة فى اللون و العرف، فما رأيت إلّا أن أذكر من كلّ فصل أوّله، و اشير إلى شىء منه، و الفصول أربعة:

- ۱ -

قال عليه السّلام- بعد أن ذكر عمى الملحدين و أسباب شكّهم و تهيئة هذا العالم و تأليف أجزائه و انتظامها-: نبتدئ يا مفضّل بذكر خلق الانسان فاعتبر به، فأوّل ذلک ما يدبر به الجنين فى الرحم و هو محجوب فى ظلمات ثلاث:

ظلمة البطن و ظلمة الرحم، و ظلمة المشيمة «۱» حيث لا حيلة عنده فى طلب

(۱) الثوب الذى يكون فيه الجنين.

ص: ۱۵۱

غذاه، و لا دفع أذى، و لا استجلاب منفعة، و لا دفع مضرّة، فإنّه يجرى إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النبات، فلا يزال ذلک غذاءه حتّى اذا كمل خلقه و استحكم بدنه، و قوى أديمه «۱» على مباشرة الهواء و بصره على ملاقاة الضياء هاج الطلق بامّه فأزعجه أشدّ إزعاج و أعنفه حتّى يولد، و اذا ولد صرف ذلک الدم الذى كان يغذوه من دم امّه الى ثديها، فانقلب الطعم و اللون الى ضرب آخر من الغذاء، و هو أشدّ موافقة للمولود من الدم، فيوافيه فى وقت حاجته إليه، فحين يولد قد تلمّظ و حرّک شفتيه طلبا للرضاع، فهو يجد ثدى أمّه كالأداوتين «۲» المعلّقتين لحاجته إليه، فلا يزال يغتذى باللبن ما دام رطب البدن رقيق الأمعاء ليّن الأعضاء، حتّى اذا تحرّک و احتاج الى غذاء فيه صلابة ليشتدّ و يقوى بدنه طلعت له الطواحن من الأسنان و الأضراس، ليمضغ بها الطعام فيلين عليه و تسهل له إساغته، فلا يزال كذلک حتّى يدرک، فاذا أدرک و كان ذكرا طلع الشعر فى وجهه فكان ذلک علامة الذكر و عزّ الرجل الذى يخرج به من حدّ الصبى و شبه النساء، و إن كانت انثى يبقى وجهها نقيّا من الشعر لتبقى لها البهجة و النضارة التى تحرّک الرجال لما فيه دوام النسل و بقاؤه.

اعتبر يا مفضّل فيما يدبر الانسان فى هذه الأحوال المختلفة، هل ترى يمكن أن يكون بالإهمال؟ أ فرأيت لو لم يجر إليه ذلک الدم و هو فى الرحم، أ لم يكن سيذوى و يجفّ كما يجفّ النبات اذا فقد الماء؟ و لو لم يزعجه المخاض عند استحكامه، أ لم يكن سيبقى فى الرحم كالموؤد فى الأرض؟ و لو لم يوافقه اللبن مع ولادته، أ لم يكن سيموت جوعا أو يغتذى بغذاء لا يلائمه و لا يصلح عليه بدنه؟

(۱) جلده.

(۲) تثنية أداوة- بالكسر- إناء صغير من جلد يتّخذ للماء.

ص: ۱۵۲

و لو لم تطلع عليه الأسنان فى وقتها، أ لم يكن سيمتنع عليه مضغ الطعام و إساغته، أو يقيمه على الرضاع فلا يشدّ بدنه و لا يصلح لعمل، ثمّ كان تشتغل امّه بنفسه عن تربية غيره من الأولاد؟ و لو لم يخرج الشعر فى وجهه فى وقته، أ لم يكن سيبقى فى هيئة الصبيان و النساء، فلا ترى له جلالا و لا وقارا؟ فمن هذا الذى يرصده حتّى يوافيه بكلّ شىء من هذه المآرب إلّا الذى أنشأه خلقا بعد أن لم يكن، ثمّ توكّل له بمصلحته بعد أن كان، فإن كان الإهمال يأتى بمثل هذا التدبير فقد يجب أن يكون العمد و التقدير يأتيان بالخطإ و المحال لأنهما ضدّ الإهمال، و هذا فظيع من القول و جهل من قائله، لأن الإهمال لا يأتى بالصواب، و التضادّ لا يأتى بالنظام، تعالى اللّه عمّا يقول الملحدون علوّا كبيرا.

أقول: إن الإهمال دوما يأتى بالخطإ كما نشاهده عيانا، أ رأيت لو وجّهت الماء الى الزرع و أهملت تقسيمه على الألواح أ يسقى الألواح كلّها من دون خلل، أو إذا نثرت البذر فى الأرض من دون مناسبة أ يخرج الزرع بانتظام، أو إذا جمعت قطعا من خشب و واصلتها بمسامير أ تكون كرسيّا أو بابا من دون تنسيق.

ثمّ قال عليه السّلام: و لو كان المولود يولد فهما عاقلا لأنكر العالم عند ولادته، و لبقى حيران تائه العقل إذا رأى ما لم يعرف، و ورد عليه ما لم ير مثله من اختلاف صور العالم من البهائم و الطير إلى غير ذلک ممّا يشاهده ساعة بعد ساعة و يوما بعد يوم، و اعتبر ذلک بأن من سبى من بلد إلى بلد و هو عاقل يكون كالواله الحيران فلا يسرع فى تعلّم الكلام و قبول الأدب كما يسرع الذى يسبى صغيرا غير عاقل، ثم لو ولد عاقلا كان يجد غضاضة إذا رأى نفسه محمولا مرضعا معصّبا بالخرق مسجّى فى المهد، لأنه لا يستغنى عن هذا كلّه لرقّة بدنه و رطوبته حين يولد، ثمّ كان لا يوجد له من الحلاوة و الوقع من القلوب ما يوجد للطفل، فصار يخرج الى الدنيا غبيّا غافلا عمّا فيه أهله فيلقى الأشياء بذهن ضعيف

و معرفة ناقصة ثمّ لا يزال يتزايد فى المعرفة قليلا قليلا و شيئا بعد شىء و حالا بعد حال، حتّى يألف الأشياء و يتمرّن و يستمرّ عليها، فيخرج من حدّ التأمّل لها و الحيرة فيها الى التصرّف و الاضطراب فى المعاش بعقله و حيلته و الى الاعتبار و الطاعة و السهو و الغفلة و المعصية، و فى هذا أيضا وجوه أخر فإنه لو كان يولد تامّ العقل مستقلّا بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد، و ما قدر أن يكون للوالدين فى الاشتغال بالولد من المصلحة، و ما يوجب التربية للآباء على الأبناء من المكافاة بالبرّ و العطف عليهم عند حاجتهم الى ذلک منهم، ثمّ كان الأولاد لا يألفون آباءهم و لا يألف الآباء أبناءهم، لأن الأولاد كانوا يستغنون عن تربية الآباء و حياطتهم فيتفرّقون عنهم حين يولدون، فلا يعرف الرجل أباه و أمّه و لا يمتنع من نكاح امّه و اخته و ذوات المحارم منه إذ لا يعرفهنّ، و أقلّ ما فى ذلک من القباحة، بل هو أشنع و أعظم و أفظع و أقبح و أبشع لو خرج المولود من بطن امّه و هو يعقل أن يرى منها ما لا يحلّ له، و لا يحسر به أن يراه، أ فلا ترى كيف اقيم كلّ شىء من الخلقة على غاية الصواب و خلا من الخطأ دقيقه و جليله.

أقول: إن بعض هذا البيان البديع من الامام عن تدرج الانسان فى نموّه، و نموّه فى أوقاته كاف فى حكم العقل بأنّ له صانعا صنعه عن علم و حكمة و تقدير و تدبير.

ثمّ أن الصادق عليه السّلام جعل يذكر فوائد البكاء للأطفال من التجفيف لرطوبة الدماغ و أن فى بقاء الرطوبة خطرا على البصر و البدن.

ثمّ ساق البيان الى جعل آلات الجماع فى الذكر و الانثى على ما يشاكل أحدهما الآخر، ثمّ ذكر أعضاء البدن و الحكمة فى جعل كلّ منها على الشكل الموجود، و هاهنا يقول له المفضّل: يا مولاى إن قوما يزعمون أن هذا من فعل

الطبيعة، فيقول له الامام: سلهم عن هذه الطبيعة أ هى شىء له علم و قدرة على مثل هذه الأفعال، أم ليست كذلک؟ فإن أوجبوا لها العلم و القدرة فما يمنعهم من إثبات الخالق، فإن هذه صفته، و إن زعموا أنها تفعل هذه الأفعال بغير علم و لا عمد و كان فى أفعالها ما قد تراه من الصواب و الحكمة علم أن هذا الفعل للخالق الحكيم و أن الذى سمّوه طبيعة هو سنّة فى خلقه الجارية على ما أجراه عليه.

أقول: انظر إلى قول أهل الطبيعة فإنهم جروا على نسق واحد من عهد الصادق عليه السّلام إلى اليوم، و كأنهم لم يتعقّلوا هذا الجواب القاطع لحججهم أو أغضوا عنه إصرارا على العناد و الجحود.

إن الامام حصر الطبيعة بين اثنين لا ثالث لهما، و ذلک لأنها إمّا أن تكون ذات علم و حكمة و قدرة، أو تكون خالية عن ذلک كلّه، فإن كان الأوّل فهى ما نثبته للخالق، و لا فارق إذن بينهم و بيننا إلّا التسمية، و إن كان الثانى كان اللازم أن تكون آثارها مضطربة لا تقدير فيها و لا تدبير شأن من لا يعقل و يبصر و يسمع فى أفعاله، و لكننا نشاهد الآثار مبنيّة على العلم و الحكمة و القدرة و التقدير، فلا تكون إذن من فعل الطبيعة العمياء الصمّاء و كانت الطبيعة غير اللّه العالم القادر المدبّر و لا تكون الطبيعة إذن إلّا سنّته فى خلقه، لا شىء آخر له كيان مستقلّ عن خالق الكون.

ثمّ أن الامام عليه السّلام عاد الى كلامه الأول فتكلّم عن وصول الغذاء الى البدن و كيفيّة انتقال صفوه من المعدة الى الكبد فى عروق رقاق واشجة بينها قد جعلت كالمصفى للغذاء، ثمّ صيرورته دما و نفوذه الى البدن كلّه فى مجار مهيّأة لذلک، ثمّ كيفيّة تقسيمه فى البدن و بروز الفضلة منه، فكأنما الامام كان الطبيب النطاسى الذى لم يماثله أحد فى الطب، و العالم الماهر فى التشريح الذى

قضى عمره فى عملية التشريح، بل كشف الامام فى هذا البيان (الدورة الدموية) التى يتغنّى الغربيّون باكتشافها و قد سبقهم إليها بما يقارب اثنى عشر قرنا.

ثمّ ساق كلامه الى نشوء الأبدان و نموّها حالا بعد حال، و ما شرّف اللّه به الانسان من الميزة فى الخلقة على البهائم، ثمّ استطرد الكلام الى الحواسّ التى خصّ اللّه بها الانسان و فوائد جعلها على النحو الموجود، و اختصاص كلّ منها بأثر لا تؤدّيه الثانية، و هكذا يفيض فى بيانه عن الأعضاء المفردة و المزدوجة و الأسباب التى من أجلها جعلها على هذا التركيب، إلى أن يطّرد فى بيانه عمّا منحه الجليل من النعم فى المطعم و المشرب، و ما جعل فيه من التمايز فى الخلقة حتّى لا يشبه أحد الآخر.

إلى أن يقول عليه السّلام: لو رأيت تمثال الانسان مصوّرا على حائط فقال لک قائل: إن هذا ظهر هاهنا من تلقاء نفسه لم يصنعه صانع، أ كنت تقبل ذلک؟ بل كنت تستهزئ به، فكيف تنكر هذا فى تمثال مصوّر جماد و لا تنكر فى الانسان الحىّ الناطق.

أقول: ما أقواها حجّة، و أسماه بيانا، و أن كلّ ناظر فيه من أهل كلّ قرن يكاد أن يقول: إنه أتى به لأهل زمانه و قرنه فى الحجّة و الاسلوب لما يجده من ملائمة البيان و البرهان.

- ٢ -

ثمّ أنه فى اليوم الثانى أورد على المفضّل الفصل الثانى و هو فى خلقة الحيوان فقال عليه السّلام: أبتدئ لک بذكر الحيوان ليتّضح لک من أمره ما وضح لک

من غيره، فكّر فى أبنية أبدان الحيوان و تهيئتها على ما هى عليه، فلا هى صلاب كالحجارة، و لو كانت كذلک لا تثنى و لا تتصرّف فى الأعمال و لا هى على غاية اللين و الرخاوة، فكانت لا تتحامل و لا تستقلّ بأنفسها، فجعلت من لحم رخو ينثنى تتداخله عظام صلاب يمسكه عصب و عروق تشدّه و تضمّ بعضه الى بعض، و عليت «١» فوق ذلک بجلد يشتمل على البدن كلّه.

و من أشباه ذلک هذه التماثيل التى تعمل من العيدان و تلفّ بالخرق و تشدّ بالخيوط و يطلى فوق ذلک بالصمغ، فتكون العيدان بمنزلة العظام و الخرق بمنزلة اللحم، و الخيوط بمنزلة العصب و العروق، و الطلاء بمنزلة الجلد، فإن جاز أن يكون الحيوان المتحرّک حدث بالإهمال من غير صانع، جاز أن يكون ذلک فى هذه التماثيل المیّتة، فإن كان هذا غير جائز فى التماثيل فبالحرىّ ألّا يجوز فى الحيوان.

و فكّر بعد هذا فى أجساد الأنعام فإنها خلقت على أبدان الإنس من اللحم و العظم و العصب اعطيت أيضا السمع و البصر، ليبلغ الانسان حاجياته منها، و لو كانت عميا صمّا لما انتفع بها الانسان، و لا تصرّفت فى شىء من مآربه، ثمّ منعت الذهن و العقل لتذلّ للانسان، فلا تمتنع عليه إذا كدّها الكدّ الشديد، و حملها الحمل الثقيل، فإن قال قائل: إنه قد يكون للانسان عبيد من الإنس يذلّون و يذعنون بالكدّ الشديد و هم مع ذلک غير عديمى العقل و الذهن، فيقال فى جواب ذلک: إن هذا الصنف من الناس قليل، فأمّا اكثر البشر فلا يذعنون بما تذعن به الدواب من الحمل و الطحن و ما أشبه ذلک، و لا يقومون بما يحتاجون إليه منه، ثمّ لو كان الناس يزاولون مثل هذه الأعمال بأبدانهم لشغلوا بذلک عن

---

(١) غلفت فى نسخة.

سائر الأعمال، لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد و البغل الواحد الى عدّة اناسى، فكان هذا العمل يستفرغ الناس حتّى لا يكون فيهم عنه فضل لشىء من الصناعات، مع ما يلحقه من التعب الفادح فى أبدانهم و الضيق و الكدّ فى معاشهم.

ثمّ أنه عليه السّلام أخذ يذكر المميّزات، لكلّ نوع من الأنواع الثلاثة للحيوان و هى: الانسان، و آكلات اللحوم، و آكلات النبات، و ما يقتضى كلّ نوع منها حاجته من كيفيّة الأعضاء و الجوارح، فيأتيک بلطائف الحكمة، و بدائع القدرة، و محاسن الطبيعة.

و يدلّک على الحكمة فى جعل العينين فى وجه الدابّة شاخصتين و الفم مشقوقا شقا فى أسفل الخطم «١» و لم يجعل كفم الانسان، الى غير ذلک من خصوصيّات الأعضاء و الجوارح.

و يرشدک الى الفطنة فى بعضها اهتداء لمصلحته كامتناع الايل «٢» الآكل للحيّات عن شرب الماء، لأن شرب الماء يقتله، و استلقاء الثعلب على ظهره و نفخ بطنه اذا جاع، حتّى تحسبه الطير ميّتا، فإذا وقعت عليه لتنهشه وثب عليها، الى غيرهما من الحيوانات، فيقول الصادق عليه السّلام: من جعل هذه الحيلة طبعا فى هذه البهيمة لبعض المصلحة؟

ثمّ أنه عليه السّلام تعرّض فى كلامه للذرة و النملة و الليث، و تسمّيه العامّة أسد الذباب و تمام خلقة الذرة مع صغر حجمها، و النملة و ما تهتدى إليه لاقتناء قوتها، و الليث و ما يهتدى إليه فى اصطياد الذباب، ثمّ يقول: فانظر الى هذه

---

(١) بفتح و سكون، من الطائر منقاره و من الدابة مقدم أنفها و فمها.

(٢) كقنب و خلب و سيد: الوعل.

الدويبة كيف جعل فى طبعها ما لا يبلغه الانسان إلّا بالحيلة و استعمال الآلات، فلا تزدر بالشىء اذا كانت العبرة فيه واضحة كالذرة و النملة و ما أشبه ذلک، فإن المعنى النفيس قد يمثل بالشىء الحقير فلا يضع منه ذلک، كما لا يضع من الدينار و هو ذهب أن يوزن بمثقال من حديد.

ثمّ أنه عليه السّلام استطرد ذكر الطائر و كيف خفّف جسمه و أدمج خلقه و جعل له جؤجؤا ليسهل عليه أن يخرق الهواء الى غير ذلک من خصوصيّات خلقته، و الحكمة فى خلق تلک الخصوصيّات، و هكذا يستطرد الحكمة فى خصوصيّات خلقة الدجاجة، ثمّ العصفور، ثمّ الخفّاش، ثمّ النحل، ثمّ الجراد، و غيرها من صغار الطيور، و ما جعله اللّه فيها من الطبائع و الفطن و الهداية لطلب الرزق، و ما سوى ذلک ممّا فيها من بدائع الخلقة.

ثمّ استعرض خلق السمک و مشاكلته للأمر الذى قدر أن يكون عليه، ثمّ يقول عليه السّلام: فاذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق و قصر علم المخلوقين، فانظر الى ما فى البحار من ضروب السمک و دواب الماء و الاصداف و الأصناف التى لا تحصى و لا تعرف منافعها إلّا الشىء بعد الشىء يدركه الناس بأسباب تحدث ... إلى آخر كلامه، و به انتهى هذا الفصل.

أقول: ليس العجب من خالق أمثال هذه الذرة و الدودة و أصناف الأسماک الغريبة، التى اختلفت اشكالها، و تنوّعت الحكمة فيها و ليس العجب ممّن يهتدى الى الحكمة فى كلّ واحد من تلک المصنوعات بعد وجودها و تكوينها، و إنما العجب ممّن ينكر

فاطر السموات و الأرضين و ما فيهنّ و بينهنّ مع اتقان الصنعة، و إحكام الخلقة، و بداعة التركيب، و لو نظر الجاحد الى نفسه مع غريب الصنع و تمام الخلق لكان اكبر برهان على الوجود و وحدانيّة الموجود.

ص: ۱۵۹

-۳-

ثمّ بكّر المفضّل فى اليوم الثالث فقال له الصادق عليه السّلام: قد شرحت لک يا مفضّل خلق الانسان و ما دبر به و تنقّله فى أحواله و ما فيه من الاعتبار و شرحت لک أمر الحيوان، و أنا ابتدئ الآن بذكر السماء و الشمس و القمر و النجوم و الفلک و الليل و النهار و الحرّ و البرد و الرياح و المطر و الصخر و الجبال و الطين و الحجارة و المعادن و النبات و النخل و الشجر و ما فى ذلک من الأدلّة و العبر.

فكّر فى لون السماء و ما فيه من صواب التدبير، فإن هذا اللون أشدّ الألوان موافقة و تقوية للبصر، حتّى أن من و صفات الأطباء لمن أصابه شيء أضرّ ببصره إدمان النظر الى الخضرة، و ما قرب منها الى السواد، و قد وصف الحذّاق منهم لمن كلّ بصره الاطلاع فى إجانة «۱» خضراء مملوءة ماء، فانظر كيف جعل اللّه جلّ و تعالى أديم السماء بهذا اللون الأخضر الى السواد، ليمسک الأبصار المنقلبة «۲» عليه، فلا تنكأ «۳» فيها بطول مباشرتها له، فصار هذا الذى أدركه الناس بالفكر و الرويّة و التجارب يوجد مفروغا عنه فى الخلقة، حكمة بالغة ليعتبر بها المعتبرون، و يفكّر فيها الملحدون قاتلهم اللّه أنّى يؤفكون.

فكّر يا مفضّل فى طلوع الشمس و غروبها لإقامة دولتى الليل و النهار فلو لا طلوعها لبطل أمر العالم كلّه، فلم يكن الناس يسعون فى معايشهم، و ينصرفون

---

(۱) بكسر و تشديد.

(۲) المتقلّبة فى نسخة.

(۳) أى لا يحصل فيها جرح و تضرّر.

ص: ۱۶۰

فى أمورهم و الدنيا مظلمة عليهم و لم يكن يتهنّئون بالعيش مع فقدهم لذّة النور و روحه، و الارب فى طلوعها ظاهر مستغن بظهوره عن الاطناب فى ذكره، و الزيادة فى شرحه، بل تأمّل المنفعة فى غروبها، فلو لا غروبها لم يكن للناس هدوء و لا قرار مع عظم حاجتهم الى الهدوء و الراحة لسكون أبدانهم، و وجوم «۱» حواسهم، و انبعاث القوّة الهاضمة لهضم الطعام و تنفيذ الغذاء الى الأعضاء، ثمّ كان الحرص يستحملهم من مداومة العمل و مطاولته على ما يعظم نكايته فى أبدانهم، فإن كثيرا من الناس لو لا جثوم «۲» هذا الليل لظلمته عليهم لم يكن لهم هدوء و لا قرار حرصا على الكسب و الجمع و الادّخار، ثمّ كانت

الأرض تستحمى «۳» بدوام الشمس ضياءها، و تحمى كلّ ما عليها من حيوان و نبات فقدّرها اللّه بحكمته و تدبيره تطلع وقتا و تغرب وقتا، بمنزلة سراج يرفع لأهل البيت تارة ليقضوا حوائجهم ثمّ يغيب عنهم مثل ذلک ليهدءوا و يقرّوا، فصار النور و الظلمة مع تضادّهما منقادين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم و قوامه.

إلى أن يقول عليه السّلام فى آخر هذا الفصل: فكّر فى هذه العقاقير و ما خصّ بها كلّ واحد منها من العمل فى بعض الأدواء، فهذا يغور فى المفاصل فيستخرج الفضول مثل الشيطرج «۴» و هذا ينزف المرّة السوداء مثل الافتيمون «۵» و هذا ينفى الرياح مثل السكبينج «۶» و هذا يحلّل الأورام و أشباه هذا من أفعالها،

---

(۱) سكوت.

(۲) جثوم الليل: انتصافه.

(۳) تشتدّ حرارتها.

(۴) بكسر الشين و فتح الطاء، انظر شرحه فى تذكرة الأنطاكى ۱/ ۱۵۳.

(۵) يقول الأنطاكى فى التذكرة ۱/ ۴۵: يونانى معناه دواء الجنون.

(۶) بفتح السين و سكون الكاف، انظره فى التذكرة: ۱/ ۱۷۳.

فمن جعل هذه القوى فيها إلّا من خلقها للمنفعة، و من فطن الناس بها إلّا من جعل هذا فيها.

إلى أن يقول: و اعلم أنه ليس منزلة الشىء على حسب قيمته بل هما قيمتان مختلفتان بسوقين، و ربّما كان الخسيس فى سوق المكتسب نفيسا فى سوق العلم، فلا تستصغر العبرة فى الشىء لصغر قيمته، فلو فطن طالبو الكيمياء لما فى العذرة لاشتروها بأنفس الأثمان و غالوا بها.

- ۴ -

ثمّ أن المفضّل بكّر إليه فى اليوم الرابع، فقال له الصادق عليه السّلام:

يا مفضّل قد شرحت لک من الأدلّة على الخلق و الشواهد على صواب التدبير و العمد فى الانسان و الحيوان و النبات و الشجر و غير ذلک ما فيه عبرة لمن اعتبر، و أنا أشرح لک الآن الآفات الحادثة فى بعض الأزمان التى اتخذها أناس من الجهّال ذريعة إلى جحود الخالق و الخلق و العمد و التدبير، و ما انكرت المعطّلة و المانويّة من المكاره و المصائب، و ما أنكروه من الموت و

الفناء، و ما قاله أصحاب الطبائع، و من زعم أن كون الأشياء بالعرض و الاتفاق ليتّسع ذلک القول فی الردّ علیهم، قاتلهم اللّه أنّی یؤفکون.

اتّخذ أناس من الجهّال هذه الآفات الحادثة فی بعض الأزمان کمثل الوباء و الیرقان و البرد و الجراد ذریعة الی جحود الخلق و التدبیر و الخالق، فیقال فی جواب ذلک: إنه إن لم یکن خالق و مدبّر فلم لا یکون ما هو اکثر من هذا و أفظع؟ فمن ذلک أن تسقط السماء علی الأرض و تهوی الأرض فتذهب سفلا، و تتخلّف الشمس عن الطلوع أصلا، و تجفّ الأنهار و العیون حتّی لا یوجد ماء

ص: ۱۶۲

للشفة، و ترکد الریح حتّی تحمّ الأشیاء و تفسد، و یفیض ماء البحر علی الأرض فیغرقها.

ثمّ هذه الآفات التی ذکرناها من الوباء و الجراد و ما أشبه ذلک ما بالها لا تدوم و تمتدّ حتّی تجتاح کلّ ما فی العالم بل تحدث فی الأحایین ثمّ لا تلبث أن ترفع؟ أ فلا تری أن العالم یصان و یحفظ من تلک الأحداث الجلیلة، التی لو حدث علیه شیء منها کان فیه بواره، و یلدغ أحیانا بهذه الآفات الیسیرة لتأدیب الناس و تقویمهم، ثمّ لا تدوم هذه الآفات بل تکشف عنهم عند القنوط منهم، فیکون وقوعها بهم موعظة، و کشفها عنهم رحمة؟ و قد أنکرت المعطّلة ما انکرت المانویّة من المکاره و المصائب التی تصیب الناس فکلاهما یقول إن کان للعالم خالق رءوف رحیم فلم یحدث فیه هذه الامور المکروهة؟ و القائل بهذا القول یذهب به الی أنه ینبغی أن یکون عیش الانسان فی هذه الدنیا صافیا من کلّ کدر، و لو کان هکذا کان الانسان یخرج من الأشرّ و العتوّ الی ما لا یصلح فی دین و دنیا، کالذی تری کثیرا من المترفین و من نشأ فی الجدة و الأمن یخرجون إلیه، حتّی أن أحدهم ینسی أنه بشر أو أنه مربوب أو أن ضررا یمسّه أو أن مکروها ینزل به أو أنه یجب علیه أن یرحم ضعیفا أو یواسی فقیرا أو یرثی لمبتلی أو یتحنّن علی ضعیف أو یتعطّف علی مکروب، فاذا عضّته المکاره و وجد مضضها اتّعظ و أبصر کثیرا ممّا کان جهله و غفل عنه، و رجع الی کثیر ممّا کان یجب علیه، و المنکرون لهذه الأدویة المؤذیة بمنزلة الصبیان الذین یذمّون الأدویة المرّة البشعة، و یتسخّطون من المنع من الأطعمة الضارّة و یتکرّهون الأدب و العمل، و یحبّون أن یتفرغوا للّهو و البطالة و ینالوا کلّ مطعم و مشرب، و لا یعرفون ما تؤدّیهم إلیه البطالة من سوء النشو و العادة، و ما تعقبهم الأطعمة اللذیذة الضارّة من الأدواء و الأسقام، و ما لهم فی الأدب من الصلاح،

ص: ۱۶۳

و فی الأدویة من المنفعة، و إن شاب ذلک بعض المکاره.

أقول: و علی هذا و مثله مثّل الصادق علیه السّلام أقوال اولئک الملحدین فی شأن الآفات و أجاب عنها بنیر البرهان، الی أن انتهی فی البیان إلی ذات الخالق تعالی فی شبه الملحدین، فقال: و أنه کیف یکلّف العبد الضعیف معرفته بالعقل اللطیف و لا یحیط به.

فيقول فى الجواب: إنما كلّف العباد من ذلک ما فى طاقتهم أن يبلغوه و هو أن يوقنوا به و يقفوا عند أمره و نهيه، و لم يكلّفوا الإحاطة بصفته، كما أن الملک لا يكلّف رعيّته أن يعلموا أ طويل هو أم قصير، أبيض هو أم أسمر و إنما يكلّفهم الإذعان بسلطانه و الانتهاء الى أمره، أ لا ترى أن رجلا لو أتى الى باب الملک فقال: اعرض علىّ نفسک حتّى أتقصّى معرفتک و إلّا لم أسمع لک، كان قد أحلّ نفسه العقوبة، فكذا القائل أنه لا يقرّ بالخالق سبحانه حتّى يحيط بكنهه متعرّض لسخطه.

أقول: و على مثل هذا البديع من البيان، و الساطع من البرهان، أتمّ الصادق عليه السّلام دروسه التى ألقاها على المفضّل بن عمر، فقال فى آخر كلامه: يا مفضّل خذ ما أتيتک و كن من الشاكرين، و لآلائه من الحامدين، و لأوليائه من المطيعين، فقد شرحت لک من الأدلّة على الخلق و الشواهد على صواب التدبير و العمد قليلا من كثير و جزء من كلّ، فتدبّره و فكّر فيه و اعتبر به.

يقول المفضّل: فانصرفت من عند مولاى بما لم ينصرف أحد بمثله «١».

---

(١) طبع هذا التوحيد المعروف بتوحيد المفضّل عدّة مرّات و رواه فى بحار الأنوار ٢٠/ ١٧- ٤٧ و كانت الطبعات كلّها غير خالية من الغلط المطبعى، فكان النقل عنه بعد التدبّر و التطبيق، و أصحّها طبعا ما طبع

أقول: حقيق بأن يغتنم أرباب المعارف جلائل هذه الحكم كما اغتنمها المفضّل، فقد أوضح فيها أبو عبد اللّه من حكم الأسرار و أسرار الحكم ما خفى على الكثير علمه و صعب على الناس فهمه.

و هذه الدروس كما دلّتنا على الحكيم فى صنائعه تعالى أرشدتنا الى إحاطته عليه السّلام بفلسفة الخلقة، بل تراه فى هذه الدروس فيلسوفا إلهيّا، و عالما كلاميا، و طبيبا نطاسيّا، و محلّلا كيمياويّا، و مشرّحا فنّيّا، و فنّانا فى الزراعة و الغرس، و عالما بما بين السماء و الأرض من مخلوقاته، و قادرا على التعبير عن أسرار الحكم فى ذلک الخلق.

الإهليلجة:

سمىّ هذا التوحيد بالاهليلجة لأن الصادق عليه السّلام كان مناظرا فيه لطبيب هندى فى إهليلجة كانت بيد الطبيب، و ذلک أن المفضّل بن عمر كتب الى الصادق عليه السّلام يخبره أن أقواما ظهروا من أهل هذه الملّة يجحدون الربوبيّة و يجادلون على ذلک، و يسأله أن يردّ عليهم قولهم و يحتجّ عليهم فيما ادّعوا بحسب ما احتجّ به على غيرهم.

فكتب إليه الصادق فيما كتب: و قد وافانى كتابک و رسمت لک كتابا كنت نازعت فيه بعض أهل الأديان من أهل الإنكار، و ذلک أنه كان يحضرنى طبيب من بلاد الهند، و كان لا يزال ينازعنى فى رأيه و يجادلنى عن ضلالته، فبينا هو يوما يدقّ إهليلجة ليخلطها دواء احتجت إليه من أدويته إذ عرض له شىء

فی المطبعة الحیدریّة فی عام ۱۳۶۹ ه. و الشواهد علی نسبة هذا التوحید الی الصادق علیه السّلام کثیرة لیس هذا محلّ ذکرها.

ص: ۱۶۵

من کلامه الذی لم یزل ینازعنی فیه، من ادّعائه أن الدنیا لم تزل و لا تزال شجرة تنبت و اخری تسقط، و نفس تولد و أخری تتلف، و زعم أن انتحالی المعرفة للّه دعوی لا بیّنة علیها و لا حجّة لی فیها، و أن ذلک أمر أخذه الآخر عن الأول و الأصغر عن الأکبر، و أن الأشیاء المختلفة و المؤتلفة و الباطنة و الظاهرة إنما تعرف بالحواسّ الخمس: النظر و السمع و الشمّ و الذوق و اللمس، ثمّ قاد منطقه علی الأصل الذی وضعه، فقال: لم یقع شیء من حواسّی علی خالق یؤدّی الی قلبی إنکار اللّه تعالی.

ثمّ قال: أخبرنی بم تحتجّ فی معرفة ربّک الذی تصف قدرته و ربوبیّته و إنما یعرف القلب الأشیاء کلّها بالدلالات التی وصفت لک؟

قلت: بالعقل الذی فی قلبی، و الدلیل الذی أحتجّ فی معرفته، قال: فأنّی یکون ما تقول و أنت تعرف أن القلب لا یعرف شیئا بغیر الحواس، فهل عاینت ربّک ببصر، أو سمعت صوته بإذن، أو شممته بنسیم، أو ذقته بفم، أو مسسته بید، فأدّی ذلک المعرفة الی قلبک؟

قلت: أ رأیت اذا أنکرت اللّه و جحدته لأنک زعمت أنک لا تحسّه بحواسک التی تعرف بها الأشیاء و أقررت أنا به هل بدّ من أن یکون أحدنا صادقا، و الآخر کاذبا، قال: لا، قلت: أ رأیت إن کان القول قولک، فهل تخاف علیّ شیء ممّا اخوّفک به من عقاب اللّه، قال: لا، قلت: أ فرأیت إن کان کما أقول و الحقّ فی یدی، أ لست قد أخذت فیما کنت أحاذر من عقاب اللّه بالثقة، و إنک قد وقعت بجحودک و إنکارک فی الهلکة، قال: بلی، قلت: فأیّنا أولی بالحزم و أقرب من النجاة، قال: أنت، إلّا أنک من أمرک علی ادّعاء و شبهة و أنا علی یقین و ثقة، لأنی لا أری حواسّی الخمس أدرکته، و ما لم تدرکه حواسّی فلیس عندی بموجود، قلت: إنه لمّا عجزت حواسّک عن إدراک اللّه أنکرته، و أنا لمّا

ص: ۱۶۶

عجزت حواسّی عن إدراک اللّه صدّقت به، قال: و کیف ذلک؟ قلت: لأن کلّ شیء جری فیه أثر الترکیب لجسم أو وقع علیه بصر للون «۱» فما أدرکته الأبصار و نالته الحواس فهو غیر اللّه سبحانه لأنه لا یشبه الخلق و لا یشبهه الخلق، و أن هذا الخلق ینتقل بتغییر و زوال، و کلّ شیء أشبه التغییر و الزوال فهو مثله، و لیس المخلوق کالخالق، و لا المحدث کالمحدث «۲».

ثمّ أن الصادق علیه السّلام قال: قلت له: أخبرنی هل أحطت بالجهات کلّها و بلغت منتهاها؟ قال: لا، قلت: فهل رقیت الی السماء التی تری، أو انحدرت الی الأرض السفلی فجلت فی أقطارها؟ أو هل خضت فی غمرات البحور و اخترقت نواحی الهواء فیما فوق السماء أو تحتها إلی الأرض و ما أسفل منها، فوجدت ذلک خلاء من مدبّر حکیم عالم بصیر؟ قال: لا، قلت:

فما يدرک لعلّ الذی انکره قلبک هو فی بعض ما لم تدرکه حواسّک و لم یحط به علمک، قال: لا أدری لعلّ فی بعض ما ذکرت مدبّرا و ما أدری لعلّه لیس فی شیء من ذلک شیء.

أقول: ربّما یتوهّم بأن فی کلام الصادق هذا إشعارا بالتجسیم لأنه جوّز أن یکون فی جهة معیّنة و هو من شئون الجسم، و لکن ذلک کان منه إنکارا علی الطبیب الذی یرید أن یستدلّ علی عدم الوجود بعد الوجدان، و إنما أراد الصادق أن یکذّب دعواه بعدم الوجدان فیورد علیه احتمال وجوده فی جهة لم یصل إلیها الطبیب، و أن احتمال وجوده فی جهة کاف فی ردّ دعواه بعدم الوجدان، و هذا من باب الإلزام للخصم و إبطال حجّته لا من باب إثبات وجوده فی جهة، و قد

---

(۱) اللام فی لجسم و للون لام الابتداء المفتوحة و جسم و لون خبر أن.

(۲) الأول اسم مفعول و هو بفتح الدال و الثانی بکسره و هو اسم فاعل.

سبق من کلامه إنکار إدراکه بالحواس، و المثبت فی جهة خاصّة مدرک بالحواس.

ثمّ قال الصادق علیه السّلام: قلت: أما إذ خرجت من حدّ الإنکار الی منزلة الشکّ فإنی أرجو أن تخرج الی المعرفة، قال: فإنما دخل علیّ الشکّ لسؤالک إیّای عمّا لم یحط به علمی، و لکن من أین یدخل علیّ الیقین بما لم تدرکه حواسّی؟ قلت: من قبل إهلیلجتک هذه، قال: ذاک إذن أثبت للحجّة، لأنها من آداب الطبّ الذی اذعن بمعرفته.

ثمّ أن الصادق علیه السّلام صار یلقی علیه الأسئلة عمّا یخصّ الاهلیلجة من کیفیّة صنعتها، و من وجود أمثالها فی الدنیا، و الطبیب یراوغ فی الجواب حذرا من الالتزام بالصنعة الدالّة علی الصانع، الی أن ألزمه بما لا یجد محیصا من الاعتراف به و هو أنها خرجت من شجرة.

ثمّ قال الصادق: أ رأیت الاهلیلجة قبل أن تعقد، إذ هی فی قمعها ماء بغیر نواة و لا لحم و لا قشر و لا لون و لا طعم و لا شدّة، قال: نعم، قال الصادق علیه السّلام: قلت له: أ رأیت لو لم یرقق الخالق ذلک الماء الضعیف الذی هو مثل الخردلة فی القلّة و الذلّة و لم یقوّه بقوّته و یصوّره بحکمته و یقدّره بقدرته، هل کان ذلک الماء یزید علی أن یکون فی قمعه غیر مجموع بجسم و لا قمع و لا تفصیل، فإن زاد زاد ماء متراکبا غیر مصوّر و لا مخطّط و لا مدبّر بزیادة أجزاء و لا تألیف أطباق.

قال: أریتنی من تصویر شجرتها و تألیف خلقتها و حمل ثمرتها و زیادة أجزائها و تفصیل ترکیبها أوضح الدلالات و أظهر البیّنات علی معرفة الصانع، و لقد صدقت بأن الأشیاء مصنوعة، و لکنی لا أدری لعلّ الاهلیلجة و الأشیاء صنعت نفسها.

ثمّ أن الصادق عليه السّلام أثبت له أنها مصنوعة لغيرها، لسبقها بالعدم و لأن صنعتها تدلّ على أن صانعها حكيم عالم، الى غير ذلک من البراهين.

ثمّ ما زال الصادق يسايره فى الكلام، و محور الكلام الاهليلجة، إلى أن أرغمه الدليل على الاعتراف بالصانع الواحد، بعد أن صار كلامهما إلى النجوم و المنجّمين.

ثمّ صار الصادق يدلى عليه بالبيان عن تلک العلامات على ذلک الصانع الواحد، و الدلالات على ذلک الحكيم القدير و العالم البصير، من مصنوعاته من السماء و الأرض و الشجر و النبات و الأنعام و غيرها و كيفيّة دلالتها عليه.

ثمّ أخذ فى بيان صفاته من اللطف و العلم و القوّة و السمع و البصر و الرأفة و الرحمة و الإرادة «١».

أقول: و ما حدانى على الاشارة الى مواضع هذه الرسالة دون إيرادها إلّا رعاية الإيجاز، على أن هذه الرسالة جمعت فنونا من العلم الى قوّة الحجّة و جودة البيان، و ما كان محور المناظرة فيها إلّا اهليلجة، و هى من أضعف المصنوعات، و أصغرها جرما و شأنا.

موجز براهينه على الوجود و الوحدانيّة:

تعرف المواهب الغزيرة من المقدرة فى البيان، فبينا تجده يطنب فى الدليل كما فى توحيد المفضل و غيره إذ تراه يأتى بأوجز بيان فى البرهان مع الوفاء بالقصد، و ذلک حين يسأل عن الدليل على الخالق فيقول عليه السلام: ما بالناس من حاجة «٢».

---

(١) بحار الأنوار: ٣/ ١٥٢- ١٧٠.

(٢) تحف العقول.

أقول: ما أوجزها كلمة، و اكبرها حجّة، فإنّا نجد الناس فى حاجة مستمرّة فى كلّ شأن من شئون الحياة، و هذه الحاجة تدلّ على وجود مآل لهم فى حوائجهم غنىّ عنهم بذاته، و أن ذلک المآل واحد، إلّا لاختلف السير و النظام.

و يسأله مرّة هشام بن الحكم بقوله: ما الدليل على أن اللّه تعالى واحد؟

فيقول عليه السّلام: اتّصال التدبير، و تمام الصنع «١».

أقول: إن كلّ واحدة من هاتين الكلمتين تصلح لأن تكون دليلا برأسه، و ذلک لأن اتّصال التدبير شاهد على وحدانيّة المدبّر، إذ لو كان اثنين أو اكثر لكان الخلاف بينهما سببا لحدوث فترة أو تضارب، فلا يكون التدبير متّصلا، و التقدير دائما، كما أن تمام

الصنعة فى الخلقة دائما شاهد آخر على الوحدانيّة، لأن استمرار الاتفاق فى الاثنين مع التكافؤ فى كلّ شأن لا يكون أبدا، كما نشاهده فى الذين يديرون دولاب البلاد، فإن حصل اختلاف و لو برهة فسد المخلوق، فأين تمام الصنع؟ فالتمام دليل الوحدة أيضا.

و يسأله أبو شاكر الديصانى بقوله: ما الدليل على أن لک صانعا؟ فيقول عليه السّلام: وجدت نفسى لا تخلو من إحدى جهتين إمّا اكون صنعتها أنا أو صنعها غيرى، فإن كنت صنعتها فلا أخلو من إحدى معنيين، إمّا أن أكون صنعتها و كانت موجودة فقد استغنت بوجودها عن صنعتها، و إن كانت معدومة فإنک تعلم أن المعدوم لا يحدث شيئا، فقد ثبت المعنى الثالث أن لى صانعا و هو ربّ العالمين، فقام و ما أحار جوابا «٢».

و سأل الصادق مرّة ابن أبى العوجاء فقال له: أ مصنوع أنت أم غير مصنوع؟

---

(١) توحيد الصدوق: باب الردّ على الثنويّة و الزنادقة ص ٢۴٣.

(٢) التوحيد: باب أنه عزّ و جل لا يعرف إلّا به.

فقال له ابن أبى العوجاء: أنا غير مصنوع، فقال له الصادق عليه السلام: فصف لى لو كنت مصنوعا كيف كنت تكون؟ فبقى مليّا لا يحير جوابا و ولع بخشبة كانت بين يديه و هو يقول: طويل عريض عميق قصير متحرّک ساكن، كلّ ذلک من صفة خلقه، فقال له الصادق عليه السّلام: فإن كنت لم تعلم صفة الصنعة من غيرها فاجعل نفسک مصنوعا لما تجد فى نفسک ممّا يحدث من هذه الامور، فقال ابن أبى العوجاء: سألتنى عن مسألة لم يسألنى أحد عنها قبلک، و لا يسألنى أحد بعدک عن مثلها «١».

أقول: إن إثبات هذه العوارض على الانسان لكونه مصنوعا ظاهر، لأن طوله بعد القصر و اختلافه فى العمق و العرض آنا بعد آخر، و سكونه مرّة و حركته اخرى أحداث دلّت على وجوده بعد العدم و مصنوعيّته بعد أن لم يكن، و لا بدّ للمصنوع من صانع و للمخلوق من خالق.

نفى التجسيم:

لعلّ شبهة التجسيم جاءت من قبل بعض الزنادقة فدخلت فى بعض معتقدات أهل الآراء و المذاهب من المسلمين، الذين يجمدون فى الدين على الظواهر، فإن أهل الزندقة لمّا خابوا فى الدعوة الى التعطيل و الإلحاد أفلحوا فى دسّ هذه الشبهة، لأنّا نجد الكلام عنها كثيرا فى ذلک العصر، و نقرأ الكثير عنها فى الأسئلة التى توجّه الى الإمام، فمن ذلک قوله فى الجواب عن هذه الشبهة:

إن الجسم محدود متناه، و الصورة محدودة متناهية، فاذا احتمل الحدّ احتمل الزيادة و النقصان، و اذا احتمل الزيادة و النقصان كان مخلوقا.

---

(۱) توحيد الصدوق: باب إثبات حدوث العالم.

قال السائل: فما أقول؟ قال عليه السّلام: لا جسم و لا صورة و هو مجسّم الأجسام، و مصوّر الصور، لم يتجزّأ و لم يتناه، و لم يتزايد و لم يتناقص، لو كان كما يقولون لم يكن بين الخالق و المخلوق فرق، و لا بين المنشئ و المنشأ، لكن هو المنشئ فرّق بين جسمه و صوره و أنشأه، إذ لا يشبهه شيء و لا يشبه هو شيئا «۱».

أقول: كاد أن يسيل هذا البيان رقّة و لطفا مع قوّة الحجّة و متانة التركيب و قد أغنى بوضوحه عن ايضاحه.

و قال مرّة اخرى: فمن زعم أن اللّه فى شيء أو على شيء أو يحول من شيء الى شيء أو يخلو منه شيء أو يشتغل به شيء فقد وصفه بصفة المخلوقين و اللّه خالق كلّ شيء لا يقاس بالقياس، و لا يشبّه بالناس، لا يخلو منه مكان و لا يشتغل به مكان، قريب فى بعده بعيد فى قربه، ذلک اللّه ربّنا لا إله غيره «۲».

أقول: ما أبدع هذا الوصف منه عليه السّلام، و ما أدقّ معنى قوله «قريب فى بعده بعيد فى قربه» و يحتاج إدراكه الى لطف قريحة و فطرة ثانية.

و ما اكثر ما جاء عنه عليه السّلام فى هذا المعنى و نجتزى عنه بهذا القدر. و ممّا يجب أن يعلم أن نفى الجسم و الصورة عنه- تقدّست ذاته- ممّا يقتضيه حكم العقل، و قد استوفت البيان عنه كتب الكلام، و أن النبى و أهل بيته عليهم السّلام جميعا أجمعوا على هذا التنزيه إرشادا الى حكم العقل، و ما اكثر ما جاء عن سيّد الرسل صلّى اللّه عليه و آله من البيان عن هذا التنزيه، و من التأويل لما جاء ظاهرا فى التجسيم من التنزيل، أمثال قوله تعالى: «على العرش

---

(۱) الكافى: باب النهى عن الجسم و الصورة، و توحيد الصدوق: باب أنه ليس بجسم و لا صورة.

(۲) بحار الأنوار: ۳/ ۲۸۷/ ۲.

استوى» و قوله «يد اللّه فوق أيديهم» و قوله: «فثمّ وجه اللّه» و غيرها، و لو لا أن نخرج عن الصدد لوافيناک ببعض كلامه، بيد أننا نذكر كلمة واحدة فحسب و هو ما يروى عن ابن عباس، قال: قدم يهودى على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله يقال له

نعثل فقال: يا محمّد إنى أسألک عن أشياء تلجلج فى صدرى منذ حين، فإن أنت أجبتنى عنها أسلمت على يدک، قال: سل يا أبا عمارة، فقال: يا محمّد صف لى ربّک، فقال صلّى اللّه عليه و آله: إن الخالق لا يوصف إلّا بما وصف به نفسه، و كيف يوصف الخالق الذى تعجز الحواسّ أن تدركه، و الأوهام أن تناله، و الخطرات أن تحدّه، و الأبصار عن الاحاطة به جلّ عمّا يصفه الواصفون، نأى فى قربه، و قرب فى نأيه، كيّف الكيفيّة فلا يقال له كيف، و أيّن الأين فلا يقال له أين، فهو الأحد الصمد، كما وصف نفسه، و الواصفون لا يبلغون نعته، لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد.

قال: صدقت يا محمّد، أخبرنى عن قولک: أنه واحد لا شبيه له، أ ليس اللّه واحدا و الانسان واحدا، فوحدانيّته أشبهت وحدانيّة الانسان، فقال صلّى اللّه عليه و آله: اللّه واحد واحدىّ المعنى، و الانسان ثنوىّ المعنى، جسم و عرض و بدن و روح، فإنما التشبيه فى المعانى لا غير، قال: صدقت يا محمّد «۱».

أقول: فهذه الكلمة من الرسول صلّى اللّه عليه و آله صريحة فى تنزيهه تعالى عمّا يشابه الخليقة فى الذات و الصفات، و القرآن ينادى بفصيحه فى ذلک التنزيه بأمثال قوله تعالى: «لا تدركه الأبصار و هو يدرک الأبصار» «۲» فليت شعرى أ ما يكفى فى تأويل هاتيک الآيات الظاهرة مثل هذه الآيات الصريحة،

---

(۱) بحار الأنوار: ۳/ ۳۰۳/ ۴۰.

(۲) الأنعام: ۱۰۳.

و مثل كلام الرسول السالف، و مثل ما جاء عنه و عن آله فى تفسير تلک الظواهر، و من ورائها جميعا حكم العقل بنزاهته تعالى عن مشابهة الحوادث و مجانسة الممكنات.

و لا أدرى كيف نفث ذلک السحر فأعمى بعض الأبصار و البصائر، فجعل ناسا من الأوائل يخبطون خبط عشواء فى التوحيد؟

صفات الحدوث:

إن هناک صفات تستلزم الحدوث مثل المكان و الزمان و الكيف و الحيث و الحركة و الانتقال، و ما سواها، فقد يتوهّم بعضهم من ظاهر بعض الآيات هذه الصفات اللازمة للجسميّة، فكان الصادق عليه السّلام يدفع أمثال هذه التوهّمات ببالغ حجّته، كما توهّم بعضهم أنه تعالى جسم من قوله جلّ شأنه فى كتابه المجيد «ما يكون من نجوى ثلاثة إلّا هو رابعهم و لا خمسة إلّا هو سادسهم» «۱» الآية، فقال الصادق عليه السّلام فى جوابه: هو واحد واحدىّ الذات بائن من خلقه، و بذلک وصف نفسه، و هو بكلّ شىء محيط بالإشراف و الإحاطة و القدرة، لا يعزب عنه ذرّة فى السموات و لا فى الأرض، و لا أصغر و لا اكبر، بالاحاطة و العلم لا بالذات، لأن الأماكن عنده محدودة تحويها حدود أربعة، فإذا كان بالذات لزمها الحواية «۲».

و أجاب علیه السّلام آخر بأوجز من هذا البیان فقال: من زعم أن اللّه تعالی من شیء فقد جعله محدثا، و من زعم أنه فی شیء فقد جعله محصورا، و من زعم أنه

---

(۱) المجادلة: ۷.

(۲) التوحید: باب الحرکة و الانتقال.

علی شیء فقد جعله محمولا «۱».

و سأله محمّد بن النعمان عن قوله تعالی: «و هو اللّه فی السموات و فی الأرض» «۲» فقال الصادق علیه السّلام: کذلک هو فی کلّ مکان، قال: بذاته؟

قاله علیه السّلام: ویحک إن الأماکن أقدار فاذا قلت فی مکان بذاته لزمک أن تقول فی أقدار و غیر ذلک، و لکن هو بائن من خلقه محیط بما خلق علما و قدرة و إحاطة و سلطانا، و لیس علمه بما فی الأرض بأقلّ ممّا فی السماء، لا یبعد منه شیء، و الأشیاء له سواء علما و قدرة و سلطانا و ملکا و إحاطة «۳».

و سأله سلیمان بن مهران الأعمش «۴» بقوله: هل یجوز ان تقول إن اللّه عزّ و جل فی مکان؟ فقال علیه السّلام: سبحان اللّه و تعالی عن ذلک أنه لو کان فی مکان لکان محدثا، لأن الکائن فی مکان محتاج الی المکان، و الاحتیاج من صفات المحدث لا من صفات القدیم «۵».

و یقول لأبی بصیر «۶»: إن اللّه تبارک و تعالی لا یوصف بزمان و لا مکان و لا حرکة و لا انتقال و لا سکون، بل خالق الزمان و المکان و الحرکة و السکون، تعالی اللّه عمّا یقولون علوّا کبیرا «۷».

و قال علیه السّلام لعبد اللّه بن سنان «۸»: و لا یوصف بکیف و لا أین و لا

---

(۱) التوحید: باب الحرکة و الانتقال.

(۲) الأنعام: ۳.

(۳) بحار الأنوار: ۳/ ۳۲۳/ ۲۰.

(۴) سیأتی فی المشاهیر من الثقات.

(۵) توحید الصدوق: باب نفی الزمان و المکان.

(۶) سیأتی فی ثقات المشاهیر.

(۷) التوحید: باب نفی الزمان و المکان.

(۸) سیأتی أیضا فی المشاهیر.

ص: ۱۷۵

حیث، و کیف أصفه و هو الذی کیّف الکیف حتّی صار کیفا فعرفت الکیف بما کیّف لنا من الکیف، أم کیف أصفه بأین و هو الذی أیّن الأین حتّی صار أینا فعرفت الأین بما أیّن لنا من الأین، أم کیف أصفه بحیث و هو الذی حیّث الحیث حتّی صار حیثا فعرفت الحیث بما حیّث لنا من الحیث، فاللّه تبارک و تعالی داخل فی کلّ مکان، و خارج من کلّ شی «لا تُدْرِکُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ یُدْرِکُ الْأَبْصارَ» «۱».

أقول: إن المراد بالکیف و الأین و الحیث السؤال أو الإخبار عن ذی الحیّز من الممکنات.

و لازم هذا أن یکون تعالی اذا استفسر عنه بالکیف و الأین أن یکون ذا جسم أو مکان، و اذا اخبر عنه بالحیث أن یکون متحیّزا فی محل، و إذا کان کذلک فالأبصار تدرکه لأن ذا الجسم المتحیّز الحال بمکان لا بدّ أن تدرکه الأبصار، و اللّه تعالی لا تدرکه الأبصار و هو یدرک الأبصار.

و جرت بینه علیه السّلام و بین ابن أبی العوجاء «۲» محاورة، فمنها قول ابن أبی العوجاء للصادق: ذکرت اللّه فأحلت علی غائب، فقال أبو عبد اللّه علیه السّلام:

ویلک کیف یکون غائبا من هو مع خلقه شاهد و إلیهم أقرب من حبل الورید، یسمع کلامهم و یری اشخاصهم و یعلم أسرارهم، فقال ابن أبی العوجاء: أ هو فی کلّ مکان، أ لیس اذا کان فی السماء کیف یکون فی الأرض، و اذا کان فی الأرض کیف یکون فی السماء، فقال أبو عبد اللّه علیه السّلام: إنما وصفت المخلوق اذا انتقل عن مکان اشتغل به مکان فخلا منه مکان، فلا یدری فی

---

(۱) التوحید: باب النهی عن الصفة بغیر ما وصف به نفسه.

(۲) اسمه عبد الکریم، و قد عدّه السید المرتضی فی أمالیه من ملاحدة العرب المشهورین، و قتله محمّد بن سلیمان والی الکوفة من قبل المنصور علی الالحاد.

ص: ۱۷۶

المكان الذى صار إليه ما حدث فى المكان الذى كان فيه، فأمّا اللّه العظيم الشأن الملک الديّان فلا يخلو منه مكان و لا يشتغل به مكان و لا يكون الى مكان «۱».

أقول: و ما اكثر ما جاء عنه من أمثال هذا الكلام فى تنزيه البارىء تعالى شأنه عن صفات صنائعه، و اجتزينا بما أوردناه.

لا تدركه الأبصار:

ذهب بعض أبناء الفرق الاسلاميّة الى أنه جلّ شأنه يرى بالبصر فى الآخرة فقط، أو فى الدنيا و الآخرة معا و ما زال أهل البيت- لا سيّما الصادق عليه السلام- يبطلون هذه النسبة و يمنعون عليه تعالى الرؤية، و سوف نورد عليک بعض الحجج من كلامه.

قال هشام: كنت عند الصادق عليه السّلام إذ دخل عليه معاوية بن وهب و عبد الملک بن أعين «۲» فقال له معاوية بن وهب: يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله ما تقول فى الخبر الذى روى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله رأى ربه، على أى صورة رآه؟ و عن الحديث الذى رووه أن المؤمنين يرون ربّهم فى الجنّة على أىّ صورة يرونه؟ فتبسّم عليه السّلام ثمّ قال: يا معاوية ما أقبح بالرجل يأتى عليه سبعون سنة أو ثمانون سنة يعيش فى ملک اللّه و يأكل من نعمه ثمّ لا يعرف اللّه حقّ معرفته، ثمّ قال عليه السّلام: يا معاوية إن محمّدا صلّى اللّه عليه و آله لم ير الربّ تبارک و تعالى بمشاهدة العيان و أن الرؤية على وجهين: رؤية

---

(۱) توحيد الصدوق: باب الحركة و الانتقال.

(۲) هما من أصحاب الصادق عليه السلام و أعلامهم المشهورين.

القلب، و رؤية البصر، فمن عنى برؤية القلب فهو مصيب و من عنى برؤية البصر فقد كفر باللّه و بآياته لقول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: من شبّه اللّه بخلقه فقد كفر، و لقد حدّثنى أبى عن أبيه عن الحسين بن على عليهم السّلام قال: سئل أمير المؤمنين عليه السّلام فقيل: يا أخا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله هل رأيت ربّک؟ فقال: و كيف أعبد من لم أره، لم تره العيون بمشاهدة العيان، و لكن رأته القلوب بحقائق الايمان، فإذا كان المؤمن يرى ربّه بمشاهدة البصر فإن كلّ من جاز عليه البصر و الرؤية فهو مخلوق، و لا بدّ للمخلوق من الخالق، فقد جعلته إذن محدثا مخلوقا، و من شبّهه بخلقه فقد اتخذ مع اللّه شريكا، ويلهم أو لم يسمعوا بقول اللّه تعالى «لا تدركه الأبصار و هو يدرک الأبصار و هو اللطيف الخبير» «۱» و قوله «لن ترانى و لكن انظر الى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف ترانى فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكّا» «۲» و إنما طلع من نوره على الجبل كضوء يخرج من سمّ الخياط فدكدكت الأرض و صعقت الجبال فخرّ موسى صعقا- أى ميّتا- فلمّا أفاق و ردّ عليه روحه قال:

سبحانک تبت إليک من قول من زعم أنک ترى و رجعت الى معرفتى بک أن الأبصار لا تدرکک، و أنا أول المؤمنين و أول المقرّين بأنک ترى و لا ترى و أنت بالمنظر الأعلى.

ثمّ قال عليه السّلام: إن أفضل الفرائض و أوجبها على الإنسان معرفة الربّ، و الإقرار له بالعبوديّة، و حدّ المعرفة أن يعرف أنه لا إله غيره، و لا شبيه له و لا نظير، و أن يعرف أنه قديم مثبت موجود غير فقيد، موصوف من غير شبيه و لا مبطل، ليس كمثله شىء و هو السميع البصير، و بعده معرفة الرسول و الشهادة

---

(١) الأنعام: ١٠٣.

(٢) الأعراف: ١۴٣.

بالنبوّة، و أدنى معرفة الرسول الإقرار بنبوّته و أن ما أتى به من كتاب أو أمر أو نهى فذلک من اللّه عزّ و جلّ، و بعده معرفة الإمام الذى تأتمّ به بنعمته و صفته و اسمه، فى حال العسر و اليسر، و أدنى معرفة الإمام أنه عدل النبى إلّا درجة النبوّة و وارثه و أن طاعته طاعة اللّه و طاعة رسول اللّه و التسليم له فى كلّ أمر، و الردّ إليه و الأخذ بقوله.

ثمّ أنه أورد على معاوية ذكر الأئمة و أسمائهم، ثمّ قال: يا معاوية جعلت لک أصلا فى هذا فاعمل عليه، فلو كنت تموت على ما كنت عليه لكان حالک أسوأ الأحوال، فلا يغرّنک قول من زعم أن اللّه تعالى يرى بالبصر.

ثمّ ذكر لمعاوية أعاجيب ما نسبوه من المكروه و الباطل للأنبياء و لأبويه النبىّ و علىّ عليهم السّلام جميعا.

و هذا بعض ما جاء عن الصادق فى استحالة الرؤية البصريّة عليه تعالى و بما سبق غنى، كما و أن للصادق عليه السّلام كلاما فى كلّ باب من أبواب التوحيد، و فى كلّ آية من الآيات المتشابهة و ما كان القصد أن نأتى بكلّ ماله من بيان فى ذلک لأن بسط البحث و الإتيان بكلّ شاردة و واردة له يبعدنا عن الغاية، و بما وافيناک به كفاية.

الطبّ:

نزّل اللّه تعالى الكتاب تبيانا لكلّ شىء، و قد جمع الكتاب الطبّ كما يقولون فى كلمتين و هما قوله تعالى: «كلوا و اشربوا و لا تسرفوا» «١» فلا غرابة إذن لو كان العلماء بما فى القرآن علماء فى الطبّ أيضا، و كان ما يظهر منهم، من

---

(١) الأعراف: ٣١.

البيان عن طبائع الأشياء و الأمزجة و المنافع و المضار يرشدنا الى وجود هذا العلم لديهم، و لقد جمع بعض علماء السلف شيئا كثيرا من كلامهم فى ذلک و سمّاه «طبّ الأئمة» و إخال أن الكتاب لا وجود له اليوم، غير أن المجلسى طاب ثراه يروى عنه كثيرا فى بحار الأنوار، كما يروى عنه الحرّ العاملى فى الوسائل.

و كفى دلالة على علم الصادق بالطبّ ما جاء فى توحيد المفضّل من الأخبار عن الطبائع و فوائد الأدوية و ما جاء فيه من معرفة الجوارح التى تكفّل بها علم التشريح، و سيأتى ما فى بعض مناظراته مع الطبيب الهندى ممّا يدلّ على ذلک، و يسع الكاتب أن يجمع كتابا فيما ورد عنه فى خواصّ الأشياء و فوائدها، و فى علاج الأمراض و الأوجاع و فى الحميّة و الوقاية، و هى متفرقة فى غضون كتب الأحاديث و نحوها، و ربّما لم يكشف عنها إلّا العلم الحديث مثل مداواة الحمّى بالماء البارد، فإنه ذكروا له الحمّى فقال عليه السّلام: «إنّا أهل بيت لا نتداوى إلا بإفاضة الماء البارد يصبّ علينا».

و مثل وجوب غسل الفاكهة قبل الأكل، قال عليه السّلام: «إن لكلّ ثمرة سمّا فاذا أتيتم بها فأمسوها الماء و اغمسوها فى الماء».

و نحن نحيلک على كتاب الأطعمة و الأشربة من الوسائل: ٣/ من ٢٧٦- ٣١١ لترى الشيء الكثير من ذلک.

الجفر:

الجفر فى الأصل ولد الشاة اذا عظم و استكرش، و لعلّ مبدأ هذا العلم كان يكتب على جلد ولد الشاة فسمّى به، و علم الجفر علم الحروف الذى تعرف به الحوادث المستقبلة، و جاء عن الصادق عليه السّلام أن عندهم الجفر و فسّره بأنه وعاء من أدم فيه علم النبيّين و علم العلماء الذين مضوا من بنى إسرائيل، و جاء

ص: ١٨٠

عنهم الشيء الكثير عن الجفر الذى عندهم، و إنّا و إن لم نعرف هذا العلم و ما القصد منه إلّا أننا نعرف من هاتيک الأحاديث التى ذكرت الجفر و أنه من مصادرهم أن هذا العلم شريف منحهم اللّه إيّاه، و جاء فى الكافى أحاديث كثيرة عن الجفر الذى عندهم.

و ذكر بعض علماء أهل السنّة الجفر و أنه ممّا يعلمه الصادق عليه السّلام، قال الشبلنجى فى نور الأبصار ص ١٣١: و فى حياة الحيوان الكبرى فائدة، قال ابن قتيبة فى كتاب أدب الكاتب: و كتاب الجفر كتبه الامام جعفر الصادق بن محمّد الباقر، فيه كلّ ما يحتاجون الى علمه الى يوم القيامة، و الى هذا الجفر أشار أبو العلاء بقوله:

لقد عجبوا الآل البيت لمّا	أتاهم علمهم فى جلد جفر
فمرآة المنجم و هى صغرى	تريه كلّ عامرة و قفر

و قال فى الفصول المهمّة: نقل بعض أهل العلم أن كتاب الجفر الذى بالمغرب يتوارثونه بنو عبد المؤمن بن على من كلام جعفر الصادق، و له فيه المنقبة السنيّة، و الدرجة التى فى مقام الفضل عليه.

الكيمياء و جابر بن حيّان:

ذكر علم الصادق عليه السّلام بالكيمياء كثير من المؤلّفين، و أن تلميذه جابر بن حيّان الصوفى الطرطوسى أخذ عنه هذا العلم، و ألّف خمسمائة رسالة فيه فى ألف ورقة، و هى تتضمّن رسائل جعفر الصادق عليه السّلام «١».

و للقدماء و المتأخّرين من المستشرقين كلام كثير فى شأن جابر و قد ذكره

---

(١) تاريخ ابن خلكان فى أحوال الصادق: ١/ ١٠٥.

ابن النديم فى الفهرست ص ٤٩٨- ٥٠٣، و أطال فيه الكلام و ذكر له من الكتب و الرسائل فى مختلف العلوم لا سيّما الكيمياء و الطبّ و الفلسفة و الكلام شيئا كثيرا لا يكاد يتّسع وقت الانسان فى العمر الطبيعى لتأليفها، نعم إلّا لأفذاذ فى الدهر منحوا ذكاء و فطنة مفرطين و انكبّوا على الكتابة و التأليف، و ذكر أن له تآليف على مذاهب الشيعة و من ثمّ استظهر تشيّعه و لعلّ أخذه عن الصادق و ائتمان الصادق به على هذا العلم شاهد على تشيّعه.

و ذكره فى الذريعة فى عداد مؤلّفى الشيعة فى ٢/ ٤٥١- ٤٥٢ عند ذكره لكتابه (الايضاح) فى الكيمياء.

و لو تصفّحت شيئا من رسائله التى نشرها المستشرق «كراوس» لأيقنت بتشيّعه و أخذه عن الامام الصادق، لأنه أخذ عنه كإمام مفترض الطاعة متّبع الرأى، و لعرفت أنه لم يأخذ عنه الكيمياء فحسب، بل الكلام و غيره.

و قد اكبر مؤلفو الاسلام منزلة جابر و عدّوه مفخرة من مفاخر الاسلام و لا بدع فإن من تزيد مؤلّفاته على ثلاثة آلاف كتاب و رسالة فى مختلف العلوم، و جلّها من العلوم النظريّة و الطبيعيّة التى تحتاج الى زمن طويل فى تجاربها و تطبيقها- هذا عدا الفلسفة و الكلام- لجدير بالتقدير و الإكبار و أن يكون مفخرة يعتزّ به.

و قد كبر على المستشرقين أن يكون عربى مسلم و من أهل القرن الثانى للهجرة يمتاز بتلك الآراء السديدة و تكون نظريّاته الاسس العامّة التى قام عليها علم الكيمياء قديمه و حديثه، فصاروا يخبطون فى تعرّضهم لكتبه كحاطب ليل، فمرّة يشكّون فى وجوده، و تارة فى زمانه، و اخرى فيما نسب إليه من تلك الكتب، و رابعة فى نسبة البعض ممّا يرويه عن استاذه الصادق عليه السّلام، و خامسة فى التبويب و الوضع و الاسلوب لأنه لم يكن يعرفه أهل ذلك العصر، الى غير ذلك،

و قد فنّد بعض تلک الشکوک و المزاعم الکاتب إسماعیل مظهر صاحب مجلة العصور فیما نشره فی المقتطف (۶۸/ ۵۴۴- ۵۵۱ و من ۶۱۷- ۶۲۵) و جلی فی هذه الحلبة الاستاذ أحمد زکی صالح فیما کتبه فی مجلة الرسالة المصریّة السنة الثامنة (ص ۱۲۰۴- ۱۲۰۶ و من ۱۲۳۵- ۱۲۳۷ و من ۱۲۶۸- ۱۲۷۰ و من ۱۲۹۹- ۱۳۰۲)، و لقد فنّد تلک الأوهام و المزاعم تفنیدا حکیما علمیّا.

و صرّح مرارا بتشیّعه، و قال فی مناقشة رأی الاستاذ (کراوس) ص ۱۲۹۹:

و من الجلیّ الواضح لدی کلّ من درس علم الکلام أن فرق الشیعة کانت أنشط الفرق الاسلامیّة حرکة، و کانت أولی من أسّس المذاهب الدینیّة علی اسس فلسفیة، حتّی أن البعض ینسب فلسفة خاصّة لعلیّ بن أبی طالب.

و کان هذا الکلام من أحمد زکی لتصحیح ما ینسب الی جابر من المقارنة بین الآراء الکلامیّة و الفلسفیّة.

و جملة القول أنه قد أصبح من الواضح تشیّع جابر و تقدّمه فی عدّة علوم لا سیّما الکلام و الفلسفة و الطبّ و الکیمیاء و الطبیعیّات عامّة، و ما کادت لتکون آراؤه الاسّ العامّ لدعائم علم الکیمیاء إلّا لأنه أخذ ذلک من معدنه الصحیح الامام الصادق علیه السّلام.

و کنت قد جمعت عدّة مصادر عن جابر لا تبسط فی ترجمته غیر أنی اکتفیت بهذا الوجیز عن الإطالة فیها، فإنّا لو استقصینا الکلام علی کلّ ما یقتضی التوسعة فی البحث عنه لکان هذا الکتاب عدّة أجزاء، و هو و إن کان لا یخلو من فائدة، غیر أنه یکون أبعد عن حیاة الصادق الخاصّة.

سائر العلوم:

لا نعنی بما ذکرناه من العلوم التی کتبنا عنها و أوضحنا أخذ الناس عن

الصادق فیها أن تلک جمیع ما لدیه، بل إن الامام علی رأی الإمامیة یجب أن یکون عالما بکلّ شیء و أعلم الناس فی کلّ علم و فنّ و لسان و لغة، کما یقتضیه حکم العقل «۱» و لو نظرنا الی الدلیل السمعی من دون أن نثبت له الإمامة الإلهیة لفهمنا منه أن فی کلّ زمان عالما من العترة بالکتاب و السنّة کما هو مفاد حدیث الثقلین و أن عالم الکتاب الذی نزل علی الرسول تبیانا لکلّ شیء یجب أن یکون عالما بکلّ شیء، و ما دام الکتاب موجودا فالعالم به من العترة موجود الی یوم الحشر، و لا یعدو أن یکون ذلک العالم فی عهد الصادق نفسه، إذ لیس فی زمانه من هو أعلم منه فی العترة، و کفت آثاره دلالة علی ذلک العلم.

فصادق أهل البیت إذن عالم أهل البیت فی عصره و عالم العترة بالکتاب الجامع للعلوم و الفنون، فمن ثمّة نستغنی بما سلف عن التعرّض لبقیّة العلوم و الشواهد علی علمه فیها، فلیس غریبا لو جاء الحدیث أن الصادق کلّم الفرس بلسانهم و أهل اللغات

بلغاتهم و ناظر أهل كلّ علم و فنّ فخصمهم مثل علماء النجوم و الفلک و الطبيعيات و الطبّ و ما عداها، و كلّ ذلک نطقت به الأخبار و دلّت عليه الآثار.

***

(١) و قد أوضحنا ذلک فی رسالتنا «الشيعة و الإمامة» فانظرها إن أردت التحقيق.

كيف صار مذهبا؟

إن المذهب فی عرف أهل الاسلام هو المرجع فی أحكام الدين، و هذا لا يقتضی أن يكون الصادق عليه السّلام دون الأئمة الاثنی عشر مذهبا، لأن الشيعة الإماميّة ترى أن كلّ إمام من اولئک الأئمة من علیّ أمير المؤمنين الی الغائب المنتظر يجب الأخذ بقوله و العمل برأيه، لأن علمهم- كما يرون- علم واحد موروث من الرسول صلّی اللّه عليه و آله لا يختلفون فی أخذه و لا يروون عن غيره، و علمهم سلسلة واحدة يرثه الابن عن أبيه من دون اجتهاد فيه و لا تحريف فی أخذه و نقله.

بيد أن الفرص لم تسنح لواحد منهم فی إظهار ما استودعهم الرسول صلّی اللّه عليه و آله و إبلاغ ما استحفظهم عليه، كما سنحت للصادق جعفر عليه السّلام فإن الذی ساعد علی بثّه للمعارف و نشره للعلوم الموروثة لهم من سيّد الرسل صلّی اللّه عليه و آله اجتماع عدّة امور:

١- إن زمن استقلاله بالإمامة قد طال حتّی جاوز الثلاثين عاما، و لئن كان جدّه زين العابدين و ابنه موسی الكاظم و حفيده علیّ الهادی عليهم السّلام قد شاركوه فی طول الزمن، و كانت أيام إمامتهم تجاوزت الثلاثين عاما أيضا فإنه لم يتّفق لهم ما اتّفق له ممّا يأتی.

٢- إن أيامه كانت أيام علم و فقه، و كلام و مناظرة، و حديث و رواية، و بدع و ضلالة، و آراء و مذاهب، و هذه فرصة جديرة بأن يبدی العالم فيها علمه، ليقمع بذلک الأضاليل و الأباطيل، و يبطل الآراء و الأهواء، و يصدع بالحقّ، و ينشر الحقيقة.

٣- إنّه مرّت عليه فترة من الرفاهيّة علی بنی هاشم لم تمرّ علی غيره من الأئمة، فلم يتّفق له علی الأكثر ما كان يحول دون آبائه و أبنائه من الجهر بمعارفهم بالتضييق عليهم و منع الناس عنهم و منعهم عن الناس من ملوک أيامهم.

و لم يملک من الأئمة زمام الأمر سوی أمير المؤمنين عليه السّلام، و لكن كانت أيامه علی قصرها بين حرب و كفاح و بين مناهضة للبدع و الضلالات فحمّلوه علی السير فی محجّة لا يجد مناصا من السلوک فيها، علی أنه لم تكن فی أيامه ما كان فی عهد الصادق من انتشار العلم بين طبقات الناس و ظهور الأهواء و الآراء و النحل و المذاهب.

أمّا الصادق فقد عاصر الدولتين المروانيّة و العبّاسيّة و وجد فترة لا يخشى فيها سطوة ظالم و لا وعيد جبّار، و تلک الفترة امتزجت من اخريات دولة بنى مروان و اوليات دولة بنى العبّاس، لأن الأمويين و أهل الشام لمّا أجهزوا على الوليد بن يزيد و قتلوه انتقضت عليهم أطراف البلاد و تضعضعت أركان سلطانهم، و كانت الدعوة لبنى هاشم قد انتشرت فى جهات البلاد فكانت تلک الامور كلّها صوارف لبنى مروان عمّا عليه الصادق عليه السّلام من الحياة العلميّة، و لمّا انكفأ بهم الزمن و سالم بنى العبّاس اشتغل بنو العبّاس بتطهير الأرض من أميّة و بتأسيس الدولة الجديدة، و أنت تعلم بما يحتاجه الملک الغضّ من الزمن لتأسيسه و رسوخه، فكان انصرافهم لبناء الملک و إحاطته شاغلا لهم برهة من

الزمن عن شأن الصادق فى بثّه العلوم و المعارف و إن لم يتناسه السفّاح و لكن لم يجد عنده ما يخشاه، و لمّا جاء دور المنصور و صفى الملک له ناصب العداء للصادق فكان يضيّق عليه مرّة و يتغاضى عنه اخرى.

روى العلّامة ابن شهر اشوب «۱» فى كتابه المناقب فى أحوال الصادق عن المفضّل بن عمر: «أن المنصور قد همّ بقتل أبى عبد اللّه عليه السّلام غير مرّة، فكان اذا بعث إليه و دعاه ليقتله فاذا نظر إليه هابه و لم يقتله، غير أنه منع الناس عنه و منعه عن القعود للناس و استقصى عليه أشدّ الاستقصاء حتّى أنه كان يقع لأحدهم مسألة فى دينه فى نكاح أو طلاق أو غير ذلک، فلا يكون علم ذلک عندهم و لا يصلون إليه فيعتزل الرجل أهله، فشقّ ذلک على شيعته و صعب عليهم، و حتّى ألقى اللّه عزّ و جل فى روع المنصور أن يسأل الصادق عليه السّلام ليتحفه بشىء من عنده لا يكون لأحد مثله، فبعث إليه بمخصرة «۲» كانت للنبى صلّى اللّه عليه و آله طولها ذراع، ففرح بها فرحا شديدا و أمر أن تشقّ أربعة أرباع، و قسّمها فى أربعة مواضع، ثمّ قال له: ما جزاؤک عندى إلّا أن اطلق لک و تفشى علمک لشيعتک، و لا أتعرّض لک و لا لهم فاقعد غير محتشم «۳» وافت الناس و لا تكن فى بلد أنافيه، ففشى العلم عن الصادق، و أجاز فى المنتهى».

فلهذا و غيره قد فشى عن الصادق عليه السّلام من العلوم ما لم تسمح الظروف به لسواه من الأئمة، و هذه كتب الحديث و الفقه و الأخلاق و الاحتجاج و غيرها من كتب المعارف و العلوم ترشدک الى ما كان منه، و كفت كثرة رواته و الرواية عنه، و لقد كتب عن رواته جملة من المؤلّفين و ذكروا أن

---

(۱) أشرنا الى شىء من حاله فى تعليقة ص ۷۸.

(۲) بالكسر و السكون فالفتح ما يتوكّا عليه كالعصا و نحوها و ما يأخذه الملک بيده يشير به إذا خاطب.

(۳) على زنة اسم الفاعل، أى غير هائب و منقبض.

عددهم أربعة آلاف أو يزيدون، و من المؤلّفين ابن عقدة «۱»، فإذا كانت الرواة عنه أربعة آلاف فكم كانت الرواية؟ و اذا كان راو واحد يروى عنه ثلاثين ألف حديث فكم تكون رواية الباقين؟ و كم هى العلوم و المعارف التى اسندت إليه؟

و جملة القول أن الصادق عليه السّلام إنما عرف بأنه مذهب تنتسب إليه الاماميّة و الجعفريّة، لما انتشر عنه من العلم و حفظ منه من الحديث حتّى أن اكثر ما فى كتب الحديث الشيعيّة مرويّ عنه.

و ما كانت الرواية عنه مقصورة على الشيعة بل أخذ عنه اكابر معاصريه من أهل السنّة، و منهم مالک و أبو حنيفة و السفيانان و أيوب و ابن جريح و شعبة و غيرهم، بل أرجع ابن أبى الحديد فقه المذاهب الأربعة إليه، كما فى شرح النهج: (۱/ ۶).

و كان انتساب الشيعة إليه من عهده، و هو القائل فى وصاياه لأصحابه: فإن الرجل منكم اذا ورع فى دينه و صدق الحديث و أدّى الأمانة و حسن خلقه مع الناس قيل: هذا جعفريّ و يسرّنى ذلک، و إذا كان على غير ذلک دخل علىّ بلاؤه و عاره و قيل: هذا أدب جعفر «۲».

و كانت هذه النسبة معروفة فى ذلک العهد حتّى أن شريكا القاضى شهد

---

(۱) هو أحمد بن محمّد بن سعيد الكوفى، و كان زيديّا جاروديّا، و شأنه فى الجلالة و الوثاقة و كثرة الحفظ معروف مشهور، و قد حكى عنه أنه قال: أحفظ مائة و عشرين ألف حديث بأسانيدها و أذاكر بثلاثمائة ألف حديث، و له كتب كثيرة منها كتاب أسماء الرجال الذين رووا عن الصادق عليه السلام و هم أربعة آلاف رجل، و أخرج فيه لكلّ رجل الحديث الذى رواه، و لم يعرف اليوم كتابه فى الوجود، مات بالكوفة عام ۲۳۳.

(۲) الكافى: ۲/ ۶۳۶/ ۵.

عنده شيعيّان و هما محمّد بن مسلم الثقة الشهير المعروف بصحبته للصادق و أبو كريبة الأزدى، فنظر شريک فى وجهيهما مليّا ثمّ قال: جعفريّان فاطميّان «۱».

فنعرف من هذا أن النسبة كانت من أيامه و استمرّت الى هذا اليوم.

***

(۱) بحار الأنوار: ۴۷/ ۳۹۳/ ۱۱۵.

مناظراته

لأبى عبد اللّه عليه السّلام الكثير من الحجج البوالغ التى أظهر فيها الحقّ و قطع فيها العذر، نوافيک بشطر منها لأنها ناحية من نواحى حياته العلميّة المليئة بالعبر و العظات لا يستغنى المسلم عن الوقوف عليها.

مناظراته فى التوحيد:

سبق شىء من كلامه عليه السّلام فى التوحيد، و كان فى طيّه بعض المناظرات، و نورد هاهنا شيئا منها غير ما سلف.

فمن تلک المناظرات ما يروى عن هشام بن الحكم، قال: كان بمصر زنديق يبلغه عن أبى عبد اللّه عليه السّلام أشياء، فخرج الى المدينة ليناظره فلم يصادفه بها، و قيل: إنه خارج بمكّة، فخرج الى مكّة و نحن مع أبى عبد اللّه عليه السّلام فصادفنا و نحن مع أبى عبد اللّه فى الطواف و كان اسمه عبد الملک و كنيته أبو عبد اللّه، فضرب كتفه كتف أبى عبد اللّه عليه السّلام، فقال له: ما اسمک؟

قال: عبد الملک، قال: فما كنيتک؟ قال: أبو عبد اللّه، فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام: فمن هذا الملک الذى أنت عبده؟ أمن ملوک الأرض أم ملوک السماء؟ و اخبرنى عن ابنک عبد إله السماء أم عبد إله الأرض؟ قل ما شئت

تخصم. فلم يحر جوابا.

ثمّ أن الصادق عليه السّلام قال له: اذا فرغت من الطواف فأتنا، فلما فرغ أبو عبد اللّه عليه السّلام أتاه الزنديق فقعد بين يدى أبى عبد اللّه عليه السّلام و نحن مجتمعون عنده، فقال أبو عبد اللّه للزنديق: أتعلم أن للأرض تحتا و فوقا؟ قال:

نعم، قال: فدخلت تحتها؟ قال: لا، قال: فما يدريک ما تحتها؟ قال: لا أدرى إلّا أنى أظن أن ليس تحتها شىء، فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام: فالظنّ عجز فلم لا تستيقن، ثمّ قال أبو عبد اللّه عليه السّلام: أ فصعدت الى السماء؟ قال: لا، قال:

أ فتدرى ما فيها؟ قال: لا، قال: عجبا لک لم تبلغ المشرق و لم تبلغ المغرب، و لم تنزل الى الأرض و لم تصعد الى السماء، و لم تجز هناک فتعرف ما خلفهنّ، و أنت جاحد بما فيهنّ، فهل يجحد العاقل ما لا يعرف؟ قال الزنديق: ما كلّمنى بها أحد غيرک.

فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام: فأنت من ذلک فى شکّ فلعلّه هو و لعلّه ليس هو، فقال الزنديق: و لعلّ ذلک، فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام: أيّها الرجل ليس لمن لا يعلم حجّة على من يعلم، و لا حجّة للجاهل، يا أخا أهل مصر تفهم عنّى فإنّا لا نشکّ فى اللّه أبدا، أ ما ترى الشمس و القمر و الليل و النهار يلجان فلا يشتبهان و يرجعان، قد اضطرّا ليس لهما مكان إلّا مكانهما فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلم يرجعان؟ و إن كانا غير مضطرّين فلم لا يصير الليل نهارا و النهار ليلا؟ اضطرّا و اللّه يا أخا أهل مصر الى دوامهما و الذى اضطرّهما أحكم منهما و اكبر «١» فقال الزنديق: صدقت.

ثمّ قال أبو عبد اللّه عليه السّلام: يا أخا أهل مصر إن الذى تذهبون إليه

(۱) أی اکبر فی القوّة و القدرة و ما شابه ذلک.

ص: ۱۹۱

و تظنّون أنه الدهر إن کان الدهر یذهب بهم فلم لا یردّهم؟ و إن کان یردّهم لم لا یذهب بهم؟ القوم مضطرّون یا أخا أهل مصر، لم السماء مرفوعة و الأرض موضوعة؟ لم لا تنحدر السماء علی الأرض؟ لم لا تنحدر الأرض فوق طباقها؟

و لا یتماسکان و لا یتماسک من علیها؟ قال الزندیق: أمسکهما اللّه ربّهما سیّدهما.

قال: فآمن الزندیق علی یدی أبی عبد اللّه علیه السّلام، فقال حمران بن أعین «۱»: جعلت فداک إن آمنت الزنادقة علی یدک فقد آمن الکفّار علی ید أبیک، فقال المؤمن الذی آمن علی یدی أبی عبد اللّه علیه السلام: اجعلنی من تلامذتک، فقال أبو عبد اللّه: یا هشام بن الحکم خذه إلیک، فعلّمه هشام، و کان معلّم أهل الشام و أهل مصر الایمان، و حسنت طهارته حتّی رضی بها أبو عبد اللّه علیه السّلام «۲».

و جاء إلیه زندیق آخر و سأله عن أشیاء نقتطف منها ما یلی: قال له: کیف یعبد اللّه الخلق و لم یروه؟ قال أبو عبد اللّه علیه السّلام: رأته القلوب بنور الایمان، و أثبتته العقول بیقظتها إثبات العیان، و أبصرته الأبصار بما رأته من حسن الترکیب و إحکام التألیف، ثمّ الرسل و آیاتها، و الکتب و محکماتها، و اقتصرت العلماء علی ما رأت من عظمته دون رؤیته، قال: أ لیس هو قادر أن یظهر لهم حتّی یروه فیعرفونه فیعبد علی یقین؟ قال علیه السلام: لیس للمحال جواب.

أقول: إنما الرؤیة تثبت للأجسام و إذا لم یکن تعالی جسما استحالت رؤیته، و المحال غیر مقدور لا من جهة النقص فی القدرة بل النقص فی المقدور.

(۱) سنذکره فی المشاهیر من ثقاته.

(۲) الکافی: ۱/ ۷۴.

ص: ۱۹۲

قال الزندیق: فمن أین أثبت أنبیاء و رسلا، قال علیه السلام: إنّا لمّا أثبتنا أنّ لنا خالقا صانعا متعالیا عنّا و عن جمیع ما خلق، و کان ذلک الصانع حکیما لم یجز أن یشاهده خلقه و لا أن یلامسوه و لا أن یباشرهم و یباشروه و یحاجّهم و یحاجّوه، ثبت أن له سفراء فی خلقه و عبادة یدلّونهم علی مصالحهم و منافعهم و ما به بقاؤهم و فی ترکه فناؤهم، فثبت الآمرون و الناهون عن الحکیم العلیم فی خلقه، و ثبت عند ذلک أن لهم معبّرین و هم الأنبیاء و صفوته من خلقه، حکماء مؤدّبین بالحکمة، مبعوثین

عنه، مشاركين للناس فى أحوالهم على مشاركتهم لهم فى الخلق و التركيب، مؤيّدين من عند الحكيم العليم بالحكمة و الدلائل و البراهين و الشواهد من إحياء الموتى و إبراء الأكمه و الأبرص.

ثمّ قال الزنديق: من أىّ شىء خلق الأشياء؟ قال عليه السّلام: من لا شىء، فقال: كيف يجىء شىء من لا شىء؟ قال عليه السلام: إن الأشياء لا تخلو إما أن تكون خلقت من شىء أو من غير شىء فإن كانت خلقت من شىء كان معه، فإن ذلک الشىء قديم، و القديم لا يكون حديثا، و لا يتغيّر و لا يخلو ذلک الشىء من أن يكون جوهرا واحدا و لونا واحدا، فمن أين جاءت هذه الألوان المختلفة و الجواهر الكثيرة الموجودة فى هذا العالم من ضروب شتّى؟ و من أين جاء الموت إن كان الشىء الذى انشئت منه الأشياء حيّا؟ أو من أين جاءت الحياة إن كان ذلک الشىء ميّتا؟ و لا يجوز أن يكون من حىّ و ميّت قديمين لم يزالا، لأن الحىّ لا يجىء منه ميّت و هو لم يزل حيّا، و لا يجوز أيضا أن يكون الميّت قديما لم يزل لما هو به من الموت، لأن الميّت لا قدرة به و لا بقاء.

أقول: إن هذا الأمر على دقّته قد أوضحه الامام بأحسن بيان و ردّده بين امور لا يجد العقل سواها عند الترديد، و حقّا إن كان الشىء الذى خلقت الأشياء منه قديما لزم أن يكون مع اللّه تعالى شىء قديم غير مخلوق له، و لو فرض أنه

مخلوق له عاد الكلام الأول أنه من أىّ شىء كان مخلوقا، هذا غير أن القديم لا يكون حادثا، و الميّت لا يكون منه الحىّ، و الحىّ لا يكون منه الميّت، و الحياة و الممات لا يتركّبان، و لو تركّبا عاد الكلام السابق، فإن الموت لا يصلح أن يكون فى الأشياء الحيّة، و لا بقاء و لا دوام ليكون باقيا إلى أن خلق اللّه منه الأشياء الحيّة، فلا بدّ إذن من أن يكون تعالى قد خلق الأشياء من لا شىء.

ثمّ قال: من أين قالوا إن الأشياء أزليّة؟ قال عليه السّلام: هذه مقالة قوم جحدوا مدبّرا الأشياء فكذّبوا الرسل و مقالتهم، و الأنبياء و ما أنبئوا عنه، و سمّوا كتبهم أساطير، و وضعوا لأنفسهم دينا بآرائهم و استحسانهم، و إن الأشياء تدلّ على حدوثها من دوران الفلک بما فيه و هى سبعة أفلاک، و تحرّک الأرض و من عليها، و انقلاب الأزمنة، و اختلاف الحوادث التى تحدث فى العالم من زيادة و نقصان، و موت و بلى، و اضطرار الأنفس الى الإقرار بأن لها صانعا و مدبّرا، أ لا ترى الحلو يصير حامضا، و العذاب مرّا، و الجديد باليا، و كلّ الى تغيّر و فناء «١».

أقول: إن الاستدلال بانقلاب الأزمنة و دوران الفلک من أدقّ الأدلّة العلميّة على حدوث العالم، الذى قصرت عنه أفهام كثير من الفلاسفة العظام كما أنه جعل الفلک الدائر فلكا واحدا ثمّ تفسيره بالأفلاک السبعة لا ينطبق إلّا على نظرية الهيئة الحديثة إذ يراد به النظام الشمسى، و مثله تصريحه بحركة الأرض التى لم يكن يحلم بها أحد من السابقين، و هى من مكتشفات العلم الحديث.

و للصادق عليه السلام مناظرات جمّة مع ابن أبى العوجاء، و كان بعضها فى التوحيد، و كان ابن أبى العوجاء و اسمه عبد الكريم من الملاحدة المشهورين

(۱) الاحتجاج للشيخ الطبرسى: ۳۳۶- ۳۴۵.

ص: ۱۹۴

و اعترف بدسّه الأحاديث الكاذبة فى أحاديث النبى صلّى اللّه عليه و آله و كفى فى معرفة حاله هذه المناظرات، و قد قتل على الإلحاد كما قتل صاحبه ابن المقفّع «۱».

فمن تلك المناظرات أنه كان يوما هو و عبد اللّه بن المقفّع فى المسجد الحرام فقال ابن المقفّع: ترون هذا الخلق- و أومأ بيده الى موضع الطواف- ما منهم أحد أوجب له اسم الانسانيّة إلّا ذلك الشيخ الجالس- يعنى أبا عبد اللّه جعفر بن محمد عليهما السّلام- و أما الباقون فرعاع و بهائم، فقال له ابن أبى العوجاء:

و كيف أوجبت هذا الاسم لهذا الشيخ دون هؤلاء، فقال: لأنى رأيت عنده ما لم أره عندهم، فقال ابن أبى العوجاء: لا بدّ من اختبار ما قلت فيه منه، فقال له ابن المقفّع: لا تفعل فإنى أخاف أن يفسد عليك ما فى يدك، فقال: ليس ذا رأيك لكن تخاف أن يضعف رأيك عندى فى إحلالك إيّاه هذا المحلّ الذى وصفت، فقال ابن المقفّع: أمّا اذا توسّمت علىّ فقم إليه و تحفّظ من الزلل و لا تثن عنانك الى استرسال فيسلمك الى عقال، و سمة ما لك و عليك، فقام ابن أبى العوجاء فلمّا رجع قال: ويلك يا ابن المقفّع ما هذا ببشر و إن كان فى الدنيا روحانى يتجسّد اذا شاء ظاهرا و يتروّح اذا شاء باطنا فهو هذا، فقال له:

كيف ذلك؟ فقال: جلست إليه فلمّا لم يبق عنده أحد غيرى ابتدأنى فقال: إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء و هو على ما يقولون- يعنى أهل الطواف- فقد سلموا و عطبتم، و إن يكن الأمر كما تقولون، و ليس كما تقولون، فقد استويتم

(۱) قتل محمّد بن سليمان عامل الكوفة من قبل المنصور ابن أبى العوجاء و كان ابن أبى العوجاء من تلامذة الحسن البصرى، فانحرف عن التوحيد و اعتزل حوزة الحسن البصرى، و أمّا ابن المقفّع فقد كان مجوسيّا و أسلم ظاهرا، غير أن أعماله و أقواله لا تدلّ على إسلامه، و كان فارسيّا ماهرا فى صنعة الإنشاء و الأدب، و هو الذى عرّب كتاب كليلة و دمنة، و قتله سفيان المهلبى أمير البصرة عام ۱۴۳ بأمر المنصور.

ص: ۱۹۵

و هم، فقلت: يرحمك اللّه و أىّ شىء نقول و أىّ شىء يقولون، ما قولى و قولهم إلّا واحد، فقال: و كيف يكون قولك و قولهم واحدا، و هم يقولون إن لهم معادا و ثوابا و عقابا، و يدينون بأن للسماء إلها و أنها عمران، و أنتم تزعمون أن السماء خراب ليس فيها أحد، قال: فاغتنمتها منه فقلت له: ما منعه إن كان الأمر كما يقولون أن يظهر لخلقه يدعوهم الى عبادته حتّى لا يختلف فيه اثنان؟ لم احتجب عنهم و أرسل إليهم الرسل؟ و لو باشرهم بنفسه كان أقرب الى الإيمان به، فقال لى: ويلك كيف احتجب عنك من أراك قدرته فى نفسك؟ نشوّك «۱» و لم تكن، و كبرك بعد صغرك، و قوّتك بعد ضعفك، و ضعفك بعد

قوّتک، و سقمک بعد صحتک، و صحتک بعد سقمک، و رضاک بعد غضبک، و غضبک بعد رضاک، و حزنک بعد فرحک، و فرحک بعد حزنک، و حبّک بعد بغضک و بغضک بعد حبّک، و عزمک بعد إنابتک «۲»، و إنابتک بعد عزمک، و شهوتک بعد کراهتک، و کراهتک بعد شهوتک، و رغبتک بعد رهبتک، و رهبتک بعد رغبتک، و رجاءک بعد یأسک، و یأسک بعد رجائک، و خاطرک لما لم یکن فی وهمک، و غروب «۳» ما أنت معتقده عن ذهنک و ما زال یعدّ «۴» علیّ قدرته التی هی فی نفسی التی لا أدفعها، حتّی ظننت أنه سیظهر فیما بینی و بینه «۵».

و دخل علی الصادق علیه السلام یوما فقال: أ لیس تزعم أن اللّه تعالی خالق کلّ شیء؟ فقال أبو عبد اللّه علیه السّلام: بلی، فقال: أنا أخلق، فقال له:

---

(۱) نشأک فی نسخة.

(۲) الإنابة: الرجوع، و فی نسخة: إبائک، و فی نسخة اخری: إناءتک و هی الإبطاء.

(۳) و فی نسخة عزوب.

(۴) و فی نسخة یعدّد.

(۵) الکافی: کتاب التوحید منه، باب حدوث العالم و إثبات المحدث.

کیف تخلق؟ فقال: أحدث فی الموضع ثمّ ألبث عنه فیصیر دوابا فکنت انا الذی خلقتها، فقال أبو عبد اللّه علیه السّلام: أ لیس خالق الشیء یعرف کم خلقه؟ قال: بلی، قال علیه السّلام: فتعرف الذکر من الانثی و تعرف عمرها؟

فسکت.

و للصادق علیه السلام نظیر ذلک مع الجعد بن درهم، و کان من أهل الضلال و البدع، و قتله والی الکوفة یوم النحر لذلک، قال ابن شهر اشوب: قیل إن الجعد بن درهم جعل فی قارورة ماء و ترابا فاستحال دودا و هواما فقال لأصحابه: أنا خلقت ذلک لأنی کنت سبب کونه، فبلغ ذلک جعفر بن محمّد علیهما السلام، فقال: لیقل کم هی؟ و کم الذکران منه و الاناث إن کان خلقه، و کم وزن کلّ واحدة منهنّ، و لیأمر الذی سعی الی هذا الوجه أن یرجع الی غیره، فانقطع و هرب.

ثمّ أن ابن أبی العوجاء عاد إلیه فی الیوم الثانی فجلس و هو ساکت لا ینطق فقال أبو عبد اللّه علیه السّلام: کأنک جئت تعید بعض ما کنّا فیه، فقال:

أردت ذلک یا ابن رسول اللّه، فقال أبو عبد اللّه علیه السّلام: ما أعجب هذا تنکر اللّه و تشهد أنی ابن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله! فقال: العادة تحملنی علی ذلک، فقال له الصادق علیه السّلام: فما یمنعک من الکلام، قال: إجلال لک و مهابة، ما ینطق لسانی بین یدیک، فإنی شاهدت العلماء و ناظرت المتکلّمین فما تداخلنی هیبة قط مثلما تداخلنی من هیبتک، قال علیه السّلام: یکون ذلک، و لکن أفتح علیک سؤالا، و أقبل علیه فقال له: أ مصنوع أنت أم غیر مصنوع؟

فقال له ابن أبی العوجاء: أنا غیر مصنوع، فقال له الصادق علیه السّلام: فصف لی لو کنت مصنوعا کیف کنت تکون؟ فبقی عبد الکریم ملیّا لا یحیر جوابا و ولع بخشبة کانت بین یدیه و هو یقول: طویل عریض عمیق قصیر متحرّک ساکن

ص: ۱۹۷

کلّ ذلک من صفة خلقه، فقال له الصادق علیه السّلام فإن کنت لم تعلم صفة الصنعة من غیرها فاجعل نفسک مصنوعا لما تجد فی نفسک ممّا یحدث من هذه الامور، فقال له عبد الکریم: سألتنی عن مسألة لم یسألنی أحد عنها قبلک، و لا یسألنی أحد بعدک عن مثلها، فقال له أبو عبد اللّه: هبک علمت أنک لم تسأل فیما مضی فما علمک إنک لم تسأل فیما بعد؟ علی أنک یا عبد الکریم نقضت قولک، لأنک تزعم أن الأشیاء من الأوّل سواء فکیف قدّمت و أخّرت؟ ثمّ قال: یا عبد الکریم: أ نزیدک وضوحا؟ أ رأیت لو کان معک کیس فیه جواهر، فقال لک قائل: هل فی الکیس دینار فنفیت کون الدینار فی الکیس، فقال لک قائل: صف لی الدینار؟ و کنت غیر عالم بصفة، هل لک أن تنفی کون الدینار فی الکیس و أنت لا تعلم؟ قال: لا، فقال أبو عبد اللّه علیه السّلام: فالعالم اکبر و أطول و أعرض من الکیس، فلعلّ فی العالم صنعة من حیث لا تعلم، لا تعلم صفة الصنعة من غیر الصنعة، فانقطع عبد الکریم، و أجاب إلی الإسلام بعض أصحابه و بقی معه بعض.

فعاد فی الیوم الثالث فقال: أقلب السؤال، فقال أبو عبد اللّه علیه السّلام سل عمّا شئت فقال: ما الدلیل علی حدوث الأجسام؟ فقال: إنی ما وجدت صغیرا و لا کبیرا إلّا و اذا ضمّ إلیه مثله صار اکبر، و فی ذلک زوال و انتقال عن الحالة الاولی، و لو کان قدیما ما زال و لا حال، لأن الذی یزول و یحول یجوز أن یجود و یبطل، فیکون بوجوده بعد عدمه دخول فی الحدث، و فی کونه فی الاولی دخوله فی العدم، و لن یجتمع صفة الأزل و العدم فی شیء واحد.

فقال عبد الکریم: هبک علمت فی جری الحالین و الزمانین علی ما ذکرت و استدللت علی حدوثها، فلو بقیت الأشیاء علی صغرها من أین کان لک أن تستدلّ علی حدوثها؟ فقال الصادق علیه السلام: إنما نتکلّم علی هذا العالم

ص: ۱۹۸

الموضوع فلو رفعناه و وضعنا عالما آخر کان لا شیء أدلّ علی الحدث من رفعنا إیّاه و وضعنا غیره، و لکن أجبت من حیث قدرت إنک تلزمنا و تقول: إن الأشیاء لو دامت علی صغرها لکان فی الوهم أنه متی ما ضمّ شیء منه الی مثله کان اکبر، و فی جواز التغیّر علیه خروجه من القدم کما بان فی تغییر دخوله فی الحدث، لیس وراءه شیء یا عبد الکریم، فانقطع و خزی.

أقول: إن خلاصة كلام الصادق عليه السّلام: أن هذا العالم إذا ضمّ شيء منه إلى شيء آخر حدث شيء اكبر، و فى ذلک زوال عن الحالة الاولى و انتقال الى حال اخرى، و القديم لا تطرأ عليه هذه التحوّلات، و لو كان ذلک التأليف بالفرض و الوهم، كما لو كانت الأشياء حسب فرض ابن أبى العوجاء باقية على صغرها لا تكبر، لأنه من الامور البديهيّة بل أبده البديهيّات أنه بضمّ شيء إلى شيء تحصل زيادة على كلّ من الشيئين، و هذه إحدى بديهيّات أربع هى أساس العلوم الرياضيّة كلّها، فقد أرجع الإمام الدليل على حدوث العالم الى أوضح بديهيّة فى العقول التى لا يختلف فيها اثنان، على أنه عليه السّلام مع ذلک أجاب على تقدير هذا الفرض المحال و هو أن الأشياء تبقى على ما هى عليه بضمّ بعضها الى بعض أجاب بأن هذا الفرض نفسه هو فرض جواز التغيير عليه و خروجه من القدم و دخوله فى الحدث، لأن المفروض أن العالم تقبل الأشياء فيه الزيادة بضمّ بعضها الى بعض، فلو فرضناه عالما آخر لا يقبل ذلک فقد فرضنا رفع هذا العالم و تغييره، فيتحقّق فيه الاستدلال على المطلوب. ما أدقّ هذا الدليل و أبدعه، و لذلک انقطع به ابن أبى العوجاء و خزى.

و لمّا كان فى العام القابل التقى معه فى الحرم، فقال له بعض شيعته: إن ابن أبى العوجاء قد أسلم، فقال الصادق عليه السلام: هو أعمى من ذلک لا يسلم، فلمّا بصر بالصادق عليه السلام قال: سيّدى و مولاى، فقال له: ما جاء

ص: ۱۹۹

بک الى هذا الموضع؟ فقال: عادة الجسد و سنّة البلد و لنبصر ما الناس فيه من الجنون و الحلق و رمى الحجارة، فقال له الصادق عليه السّلام: أنت بعد على عتوّک و ضلالک يا عبد الكريم، فذهب يتكلّم، فقال له: لا جدال فى الحجّ و نفض رداءه من يده، و قال: إن يكن الأمر كما تقول و ليس كما تقول نجونا و نجوت، و إن يكن الأمر كما تقول و هو كما نقول نجونا و هلكت «۱».

و ناظر الصادق عليه السلام يوما فى تبديل الجلود فى النار، فقال: ما تقول فى هذه الآية «كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلودا غيرها» «۲» هب هذه الجلود عصت فعذّبت فما بال الغير يعذّب؟ قال أبو عبد اللّه عليه السّلام: ويحک هى هى و هى غيرها، قال: اعقلنى هذا القول، فقال له: أ رأيت لو أن رجلا عهد الى لبنة فكسرها ثم صبّ عليها الماء و جبلها «۳» ثم ردّها الى هيئتها الأولى، أ لم تكن هى هى و هى غيرها؟ فقال: بلى أمتع اللّه بک «۴».

أقول: هذا ما توصّل إليه عظماء الفلاسفة بعد جهد و بحوث طويلة فى تحليل صحّة عذاب الانسان المجرم، مع أن ذرّات جسمه الذى وقع منه الجرم تتبدّل و تتحوّل دائما «بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ» «۵». و بهذا البيان الدقيق يجاب عن شبهة الآكل و المأكول المعروفة، فمن أين تعلم هذه الفلسفة الدقيقة فى تلک العصور التى ما شمّت رائحتها؟ إنه الامام، و كفى.

و كان لأبى شاكر الديصانى- أحد ملاحدة العرب- مع الصادق عليه السّلام

---

(۱) توحيد الصدوق طاب ثراه، باب حدوث العالم.

(۲) النساء: ۵۶.

(۳) طبعها وليّنها.

(۴) الاحتجاج للشيخ الطبرسى: ۳۵۴.

(۵) الدخان: ۵۳.

مناظرات و أسئلة، و اخرى بينه و بين هشام بن الحكم و يفزع هشام بها الى إمامه الصادق عليه السّلام، قال يوما لهشام: إن فى القرآن آية هى من قولنا، قال هشام: و ما هى؟ فقال:

«و هو الذى فى السماء إله و فى الأرض إله» «۱» قال هشام: فلم أدر بم اجيبه، فحججت فخبّرت أبا عبد اللّه عليه السلام، قال: هذا كلام زنديق خبيث، اذا رجعت إليه فقل له ما اسمک بالكوفة؟ فإنه يقول لک فلان فقل له: ما اسمک بالبصرة؟ فإنه يقول فلان، فقل له: كذلک ربّنا فى السماء إله، و فى الأرض إله، و فى البحار إله، و فى القفار إله، و فى كلّ مكان إله، قال: فقدمت فأتيت أبا شاكر فأخبرته، فقال: هذه نقلت من الحجاز «۲».

و سأل أبو شاكر هشام بن الحكم يوما فقال: أ لک رب؟ فقال: بلى، فقال:

أ قادر هو؟ قال: نعم قادر، قال: يقدر أن يدخل الدنيا كلّها البيضة لا تكبر البيضة و لا تصغر الدنيا؟ قال هشام: النظرة، فقال له: قد أنظرتک حولا، ثمّ خرج عنه، فركب هشام الى أبى عبد اللّه عليه السّلام فاستأذن عليه فأذن له، فقال له يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أتانى عبد اللّه الديصانى بمسألة ليس المعوّل فيها إلّا على اللّه و عليک، فقال له أبو عبد اللّه عليه السّلام: يا هشام كم حواسّک؟ قال: خمس، قال: أيّها أصغر؟ قال: الناظر، قال: و كم قدر الناظر؟

قال: مثل العدسة أو أقلّ منها، فقال له: يا هشام فانظر أمامک و فوقک و اخبرنى بما ترى، فقال: أرى سماء و أرضا و دورا و قصورا و برارى و جبالا و أنهارا، فقال له أبو عبد اللّه: إن الذى قدر أن يدخل الذى تراه العدسة أو أقلّ منها قادر أن

---

(۱) الزخرف: ۸۴.

(۲) الكافى: باب الحركة و الانتقال.

يدخل الدنيا كلّها البيضة لا تصغر الدنيا و لا تكبر البيضة، فأكبّ هشام عليه يقبّل يديه و رأسه و رجليه، و قال: حسبى يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، و انصرف الى منزله.

أقول: إن هذا الجواب صدر عن الإمام عليه السلام على سبيل الإسكات و الإقناع، و الجواب البرهانى أن يقال: إن اللّه تعالى لا يقدر على مثل ذلک لأنه محال و المحال غير مقدور له، كما أنه لا يقدر على إيجاد شريک له و على الجمع بين النقيضين و الضدّين، و هذا ليس من النقص فى القدرة بل للنقص فى المقدور، لأن القدرة تحتاج الى أن يكون متعلّقها ممكنا فى ذاته، و الفرق واضح بين النقص فى القدرة و النقص فى المقدور، و لعلّ الديصانى لو أجيب بمثل هذا لما اقتنع به أو لما عقله.

و روى أن أمير المؤمنين عليه السلام سئل عن مثل ذلک، فأجاب بأن اللّه لا ينسب إلى العجز، و الذى سألتنى لا يكون، و هذا هو الجواب الحقيقى، و مفاده ما أوضحناه.

ثمّ إن الديصانى غدا على هشام، فقال له هشام: إن كنت جئت متقاضيا فهاک الجواب، فقال له: إنى جئتک مسلّما و لم أجئک متقاضيا للجواب، فخرج الديصانى عنه حتّى أتى باب أبى عبد اللّه عليه السلام فاستأذن عليه فأذن له، فلمّا قعد قال له: يا جعفر بن محمّد دلّنى على معبودى، فقال له أبو عبد اللّه:

ما اسمک؟ فخرج عنه و لم يخبره باسمه، فقال له أصحابه: كيف لم تخبره باسمک؟ قال: لو كنت قلت له عبد اللّه كان يقول من الذى أنت له عبد؟

فقالوا: عد إليه و قل له يدلّک على معبودک و لا يسألک عن اسمک، فرجع إليه و قال: يا جعفر بن محمّد دلّنى على معبودى و لا تسألنى عن اسمى، فقال أبو عبد اللّه عليه السلام: اجلس، و اذا غلام له صغير فى كفّه بيضة يلعب بها

فقال أبو عبد اللّه عليه السلام: يا ديصانى هذا حصن مكنون له جلد غليظ، و تحت الجلد الغليظ جلد رقيق و تحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة و فضّة ذائبة، فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضّة الذائبة، و لا الفضّة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة، فهى على حالها لم يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن صلاحها، و لا دخل فيها مفسد فيخبر عن فسادها، لا يدرى للذكر خلقت أم للانثى، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس أ ترى لهذا مدبّرا؟ قال: فأطرق مليّا، ثمّ قال: أشهد أن لا إله إلّا اللّه وحده لا شريک له، و أن محمّدا عبده و رسوله، و أنک إمام و حجّة من اللّه على خلقه، و أنا تائب ممّا كنت فيه «١».

مناظرته مع طبيب:

حضر أبو عبد اللّه عليه السلام مجلس المنصور يوما و عنده رجل من الهند يقرأ كتب الطبّ فجعل أبو عبد اللّه الصادق عليه السلام ينصت لقراءته، فلما فرغ الهندى قال له: يا أبا عبد اللّه أ تريد ممّا معى شيئا؟ قال: لا، فإن معى ما هو خير ممّا معک، قال: و ما هو؟ قال: أداوى الحار بالبارد و البارد بالحار، و الرطب باليابس و اليابس بالرطب، و أردّ الأمر كلّه الى اللّه عزّ و جل، و أستعمل ممّا قاله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، و اعلم أن المعدة بيت الداء و أن الحميّة هى الدواء، و اعوّد البدن ما اعتاد،

فقال الهندى: و هل الطبّ إلّا هذا؟ فقال الصادق: أ فترانى عن كتب الطبّ أخذت، قال: نعم، قال: لا و اللّه ما أخذت إلّا عن اللّه سبحانه، فأخبرنى أنا أعلم بالطبّ أم أنت؟ فقال الهندى: لا بل أنا، فقال الصادق عليه السلام: فأسألک شيئا، قال: سل.

---

(١) الكافى: كتاب التوحيد منه، باب حدوث العالم و إثبات المحدث.

قال: أخبرنى يا هندى لم كان فى الرأس شؤن؟ «١» قال: لا أعلم، قال: فلم جعل الشعر عليه من فوقه؟ قال: لا أعلم.

قال: فلم خلت الجبهة من الشعر؟ قال: لا أعلم، قال: فلم كان لها تخطيط و أسارير؟ «٢» قال: لا أعلم، قال: فلم كان الحاجبان من فوق العينين؟

قال: لا أعلم، قال: فلم جعل العينان كاللوزتين؟ قال: لا أعلم، قال: فلم جعل الأنف فيما بينهما؟ قال: لا أعلم، قال: فلم كان ثقب الأنف فى أسفله؟

قال: لا أعلم، قال: فلم جعل الشفّة و الشارب من فوق الفم؟ قال: لا أعلم، قال: فلم احتدّ السنّ و عرض الضرس «٣» و طال الناب؟ قال: لا أعلم، قال:

فلم جعلت اللحية للرجال؟ قال: لا أعلم، قال: فلم خلت الكفّان من الشعر؟ قال: لا أعلم، قال: فلم خلا الظفر و الشعر من الحياة؟ قال: لا أعلم، قال: فلم كان القلب كحبّ الصنوبر «٤» قال: لا أعلم، قال: فلم كانت الرئة قطعتين، و جعل حركتها فى موضعها؟ قال: لا أعلم، قال: فلم كانت الكبد حدباء؟ قال: لا أعلم، قال: فلم كانت الكلية كحبّ اللوبياء؟ قال: لا أعلم، قال: فلم جعل طىّ الركبتين الى خلف؟ قال: لا أعلم، قال: فلم تخصّرت القدم؟ «٥» قال: لا أعلم، فقال الصادق عليه السلام: لكنّى أعلم، قال: فأجبا.

---

(١) روى فى البحار فى شرح هذه المناظرة عن ابن سينا فى التشريح أن الجمجمة مركّبة من سبعة أعظم أربعة كالجدران و واحد كالقاعدة و الباقيان يتألّف منها العجف و بعضها موصول الى بعض بدروز يقال لها الشؤن. أقول: لعلّه يريد بالعجف: العظام الفصار.

(٢) الأسارير: الخطوط.

(٣) يراد منه الطواحن خاصّة.

(٤) الصنوبر شجر لا يزال مخضرا و هو رفيع الورق و حبّه مستدير طويل.

(۵) مخصر القدم: من تمسّ قدمه الأرض من مقدمها و عقبها و يخوى أخمصها مع دقّة فيه.

ص: ۲۰۴

قال الصادق عليه السلام: كان فى الرأس شؤن لأن المجوّف إذا كان بلا فصل أسرع إليه الصداع، فاذا جعل ذا فصول كان الصداع منه أبعد و جعل الشعر من فوقه لتوصل بوصوله الأدهان الى الدماغ و يخرج بأطرافه البخار منه، و يردّ الحرّ و البرد عليه، و خلت الجبهة من الشعر لأنها مصبّ النور الى العينين «۱» و جعل فيها التخطيط و الأسارير ليحتبس العرق الوارد من الرأس الى العين قدر ما يميطه الانسان عن نفسه و هو كالأنهار فى الأرض التى تحبس المياه، و جعل الحاجبان من فوق العينين ليردّا «۲» عليهما من النور قدر الكفاية، أ لا ترى يا هندى أن من غلبه النور جعل يده على عينيه ليردّ عليهما قدر كفايتهما منه، و جعل الأنف فيما بينهما ليقسم النور قسمين الى كلّ عين سواء، و كانت العين كاللوزة ليجرى فيها الميل بالدواء و يخرج منها الداء و لو كانت مربّعة أو مدوّرة ما جرى فيها الميل و ما وصل إليها دواء و لا خرج منها داء، و جعل ثقب الأنف فى أسفله لتنزل منه الأدواء المتحدّرة من الدماغ و يصعد فيه الأراييح الى المشام، و لو كان فى أعلاه لما نزل منه داء و لا وجد رائحة، و جعل الشارب و الشفة فوق الفم لحبس ما ينزل من الدماغ الى الفم لئلّا يتنغّص على الانسان طعامه و شرابه فيميطه عن نفسه، و جعلت اللحية للرجال ليستغنى بها عن الكشف «۳» فى المنظر و يعلم بها الذكر من الانثى، و جعل السنّ حادّا لأنه به يقع العض، و جعل الضرس عريضا لأنه به يقع الطحن و المضغ، و كان الناب طويلا ليسند «۴» الأضراس و الأسنان كالاسطوانة فى البناء، و خلا الكفّان من الشعر لأن بهما يقع

---

(۱) فلو كان فى الجبهة لحال دون النور.

(۲) ليورد فى نسخة.

(۳) أى كشف العورة.

(۴) و فى نسخة ليشدّ. و المعنى عليهما معا لا يختلف.

ص: ۲۰۵

اللمس، فلو كان فيهم شعر ما درى الانسان ما يقابله و يلمسه، و خلا الشعر و الظفر من الحياة لأن طولهما سمج يقبح و قصّهما حسن فلو كانت فيهما حياة لألم الانسان قصّهما، و كان القلب كحبّ الصنوبر لأنه منكس فجعل رأسه دقيقا ليدخل فى الرئة فيتروّح عنه ببردها لئلّا يشيط الدماغ بحرّه «۱»، و جعلت الرئة قطعتين ليدخل «۲» بين مضاغطها «۳» فيتروّح عنه بحركتها، و كانت الكبد حدباء لتثقل المعدة و يقع جميعها عليها فيعصرها ليخرج «۴» ما فيها من البخار، و جعلت الكلية كحبّ اللوبياء لأن عليها مصبّ المنى نقطة بعد نقطة، فلو كانت مربّعة أو مدوّرة احتبست النقطة الاولى الى الثانية فلا يلتذّ بخروجها الحى، إذ المنى ينزل من فقار الظهر الى الكلية، فهى كالدودة تنقبض و تنبسط ترميه أوّلا فأوّلا الى المثانة كالبندقة من القوس، و جعل طىّ

الركبة الى خلف لأن الانسان يمشى الى ما بين يديه فتعتدل الحركتان «۵» و لو لا ذلک لسقط فى المشى، و جعلت القدم مخصّرة «۶» لأن المشى اذا وقع على الأرض جميعه ثقل ثقل حجر الرحى، فإذا كان على طرفه «۷» دفعه الصبى، و اذا وقع على وجهه صعب نقله على الرجل.

فقال له الهندى: من أين لک هذا العلم؟ فقال عليه السّلام: أخذته عن آبائى عليهم السّلام عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله عن جبرئيل عن ربّ

---

(۱) لاتصال ما بين القلب و الدماغ بالشرايين فاذا احترّ القلب احترّ الدماغ.

(۲) أى القلب.

(۳) و فى نسخة مساقطها.

(۴) و فى نسخة فيخرج.

(۵) و فى نسخة الحركات.

(۶) متخصّرة فى نسخة.

(۷) و فى نسخة حرفه.

العالمين جلّ جلاله الذى خلق الأبدان و الأرواح، فقال الهندى: صدقت و أنا أشهد أن لا إله إلّا اللّه و أن محمّدا رسول اللّه و عبده و أنک أعلم أهل زمانه «۱».

تفضيل النبى صلّى اللّه عليه و آله:

قال أبو خنيس الكوفى: حضرت مجلس الصادق عليه السّلام و عنده جماعة من النصارى، فقالوا: فضل موسى و عيسى و محمّد سواء، لأنهم عليهم السّلام أصحاب الشرائع و الكتب، فقال عليه السّلام: محمّد أفضل منهما عليهما السّلام و أعلم، و لقد أعطاه اللّه تبارک و تعالى من العلم ما لم يعط غيره، فقالوا: آية من كتاب اللّه تعالى نزلت فى هذا؟ قال عليه السّلام: نعم قوله تعالى «و كتبنا له فى الألواح من كلّ شىء» «۲» و قوله تعالى لعيسى: «و لأبيّنّ لكم بعض الذى تختلفون فيه» «۳» و قوله تعالى للسيّد المصطفى صلّى اللّه عليه و آله «جئنا بک شهيدا على هؤلاء و نزّلنا عليک الكتاب تبيانا لكلّ شىء» «۴» و قوله تعالى: «ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم و أحاط بما لديهم و أحصى كلّ شىء عددا» «۵» فهو و اللّه أعلم منهما، و لو حضر موسى و عيسى محضرتى و سألانى لأجبتهما، و سألتهما ما أجابا «۶».

أقول: إذا كان أمير المؤمنين باب مدينة علم الرسول و أولاده ورثة علمه فهم

---

(۱) بحار الأنوار: ۱۰/ ۲۰۷.

(۲) الأعراف: ۱۴۵.

(۳) الزخرف: ۶۳.

(۴) النحل: ۸۹.

(۵) الجن: ۲۸.

(۶) بحار الأنوار: ۱۰/ ۲۱۵/ ۱۵.

إذن أعلم الناس كلّهم، الأنبياء و غيرهم.

العدل بين النساء:

سأل رجل من الزنادقة أبا جعفر الأحول «۱» فقال: أخبرنى عن قول اللّه تعالى: «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى و ثلاث و رباع فإن خفتم ألّا تعدلوا فواحدة» «۲» و قال تعالى فى آخر السورة «و لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء و لو حرصتم فلا تميلوا كلّ الميل» «۳» فبين القولين فرق؟ فقال أبو جعفر الأحول:

فلم يكن عندى جواب فقدمت المدينة فدخلت على أبى عبد اللّه عليه السلام فسألته عن الآيتين، فقال: أمّا قوله «فان خفتم ألّا تعدلوا فواحدة» فإنما عنى فى النفقة، و قوله «و لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء و لو حرصتم» فإنما عنى فى المودّة، فإنه لا يقدر أحد أن يعدل بين امرأتين فى المودّة، فرجع أبو جعفر الى الرجل فأخبره، فقال: هذا حملته من الحجاز «۴».

أقول: حاول هذا الزنديق أن يناقض بين الآيتين لأن الثانية جعلت العدل غير مستطاع، و لكن هذا التناقض إنما يصحّ اذا كان متعلّق الآيتين واحدا، و أمّا اذا كان متعلّق الاولى النفقة و الثانية المودّة فلا تناقض بين العدلين.

رؤساء المعتزلة فى البيعة لمحمّد:

دخل عليه أناس من المعتزلة، و فيهم عمرو بن عبيد، و واصل بن عطاء

(۱) مؤمن الطاق و سنشير إليه فى ثقات رواته.

(۲) النساء: ۳.

(۳) النساء: ۱۲۹.

(۴) بحار الأنوار: ۱۰/ ۲۰۲/ ۶.

و حفص بن سالم «۱» و أناس من رؤساء المعتزلة، و ذلک حين قتل الوليد و اختلف أهل الشام بينهم، فتكلّموا و أكثروا، و خطبوا فأطالوا، فقال لهم الصادق عليه السلام: إنكم قد أكثرتم علىّ فأطلتم فأسندوا أمركم الى رجل منكم، فليتكلّم بحجّتكم و ليوجز، فأسندوا أمرهم الى عمرو بن عبيد فأبلغ و أطال، فكان فيما قال:

قتل أهل الشام خليفتهم، و ضرب اللّه بعضهم ببعض و تشتّت أمرهم، فنظرنا فوجدنا رجلا له دين و عقل و مروّة و معدن لخلافة، و هو محمّد بن عبد اللّه بن الحسن، فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه ثمّ نظهر أمرنا معه، و ندعو الناس إليه، فمن بايعه كنّا معه و كان معنا، و من اعتزلنا كففنا عنه، و من نصب لنا جاهدناه، و نصبنا له على بغيه، و نردّه الى الحقّ و أهله، و قد أحببنا أن نعرض ذلک عليک فإنه لا غناء لنا عن مثلک، لفضلک و كثرة شيعتک.

فلما فرغ قال أبو عبد اللّه عليه السّلام: أ كلّكم على مثل ما قال عمرو؟

قالوا: نعم، فحمد اللّه و أثنى عليه، و صلّى على النبى صلّى اللّه عليه و آله ثمّ قال:

إنّما نسخط اذا عصى اللّه فاذا اطيع اللّه رضينا، أخبرنى يا عمرو لو أن الامّة

(۱) أمّا عمرو بن عبيد فهو بصرى من تلامذة الحسن البصرى، و شهرته تغنى عن تعريفه، و هو ممّن لقى الصادق و روى عنه، و سأله عن الكبائر فأجابه عليه السّلام عنها مفصّلا، و كانت ولادته عام ۸۰ و وفاته ۱۴۴.

و أما واصل فشهرته أيضا تغنى عن بيان حاله، و كان بليغا فصيحا و هو من رؤساء المعتزلة، و كان يلتغ بالراء و يتجنّبها فى كلامه، ولد عام ۸۰ و مات ۱۳۱.

و أمّا حفص فلم أظفر بترجمته غير أن فى ميزان الاعتدال ذكر حفص بن سلم أبا مقاتل السمرقندى و قد طعن فيه.

قال أبو الفرج فى المقاتل: كان اجتماعهم فى دار عثمان بن عبد الرحمن المحزومى للمذاكرة فى أمر من يقوم بالناس فرجّحوا محمدا قبل أن يغدوا على الصادق عليه السلام.

ص: ٢٠٩

قلّدتک أمرها فملكته بغير قتال و لا مؤونة فقيل لک: ولّها من شئت، من تولّى؟

قال: كنت أجعلها شورى بين المسلمين، قال: بين كلّهم؟ قال: نعم، قال:

بين فقهائهم و خيارهم؟ قال: نعم، قال: قريش و غيرهم؟ قال: العرب و العجم، قال: يا عمرو أ تتولّى أبا بكر و عمر أو تتبرّأ منهما؟ قال: أتولّاهما، قال:

يا عمرو إن كنت رجلا تتبرّأ منهما فإنه يجوز لک الخلاف عليهما، و إن كنت تتولّاهما فقد خالفتهما، قد عهد عمر الى أبى بكر فبايعه و لم يشاور أحدا، ثمّ ردّها أبو بكر عليه و لم يشاور أحدا، ثمّ جعلها عمر شورى بين ستة، فأخرج منها الأنصار غير اولئک الستة من قريش، ثمّ أوصى الناس فيهم بشىء ما أراک ترضى به أنت و لا أصحابک، قال: و ما صنع؟ قال: أمر صهيبا أن يصلّى بالناس ثلاثة أيام، و أن يتشاور اولئک الستة ليس فيهم أحد سواهم إلّا ابن عمر يشاورونه و ليس له من الأمر شىء، و أوصى من بحضرته من المهاجرين و الأنصار إن مضت الثلاثة أيام و لم يفرغوا و يبايعوا أن يضرب أعناق الستة جميعا، و إن اجتمع أربعة قبل أن يمضى ثلاثة أيام و خالف اثنان، أن يضرب أعناق الاثنين، أ فترضون بذا فيما تجعلون من الشورى فى المسلمين؟ قالوا: لا، قال: يا عمرو دع ذا، أ رأيت لو بايعت صاحبک هذا الذى تدعو إليه، ثمّ اجتمعت لكم الامّة و لم يختلف عليكم منهم رجلان، فأفضيتم الى المشركين؟

قالوا: نعم، قال: فتصنعون ما ذا؟ قال: ندعوهم الى الاسلام فإن أبوا دعوناهم الى الجزية، قال: فإن كانوا مجوسا و عبدة النار و البهائم و ليسوا بأهل كتاب؟

قال: سواء.

قال عليه السّلام: فأخبرنى عن القرآن أ تقرءونه؟ قال: نعم، قال:

اقرأ: «قاتلوا الذين لا يؤمنون باللّه و لا باليوم الآخر و لا يحرّمون ما حرّم اللّه و رسوله و لا يدينون دين الحقّ من الذين اوتوا الكتاب حتّى يعطوا الجزية عن يد و هم

ص: ٢١٠

صاغرون» «١». قال: فاستثنى عزّ و جل و اشترط من الذين اوتوا الكتاب فيهم و الذين لم يؤمنوا سواء، قال عليه السّلام: عمّن أخذت هذا؟ قال: سمعت الناس يقولونه.

قال: فدع ذا فإنهم إن أبوا الجزية فقاتلتهم فظهرت عليهم، كيف تصنع بالغنيمة؟ قال: اخرج الخمس و اقسم أربعة أخماس بين من قاتل عليها، قال:

تقسمه بين جميع من قاتل عليها؟ قال: نعم، قال عليه السلام: فقد خالفت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فى فعله و سيرته، و بينى و بينک فقهاء المدينة و مشيختهم فسلهم فإنهم لا يختلفون و لا يتنازعون فى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله إنما صالح الأعراب على أن يدعهم فى ديارهم و ألّا يهاجروا على أنه إن دهمه من عدوّه دهم فيستنفرهم فيقاتل بهم و ليس لهم من الغنيمة نصيب و أنت تقول بين جميعهم، فقد خالفت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فى سيرته فى المشركين.

دع ذا، ما تقول فى الصدقة؟ قال: فقرأ الآية: «إنما الصدقات للفقراء و المساكين و العاملين عليها» «٢» الى آخرها، قال: نعم فكيف تقسّم بينهم؟ قال:

اقسّمها على ثمانية أجزاء، فاعطى كل جزء من الثمانية جزء، فقال عليه السّلام إن كان صنف منهم عشرة آلاف، و صنف رجلا واحدا أو رجلين أو ثلاثة جعلت لهذا الواحد مثلما جعلت لعشرة آلاف؟ قال: نعم، قال: و تصنع بين صدقات أهل الحضر و البوادى فتجعلهم سواء؟ قال: نعم، قال: فخالفت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فى كلّ ما به قلت فى سيرته، كان رسول اللّه

---

(١) التوبة: ٢٩.

(٢) التوبة: ٦٠.

صلّى اللّه عليه و آله يقسّم صدقة البوادى فى أهل البوادى، و صدقة الحضر فى أهل الحضر، و لا يقسّمها بينهم بالسويّة، إنما يقسّمها قدر ما يحضره منهم، و على ما يرى و على ما يحضره، فإن كان فى نفسک شىء ممّا قلت فإن فقهاء أهل المدينة و مشيختهم كلّهم لا يختلفون فى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله كذا كان يصنع.

ثمّ أقبل على عمرو و قال: اتّق اللّه يا عمرو و أنتم أيها الرهط فاتّقوا اللّه فإن أبى حدّثنى و كان خير أهل الأرض و أعلمهم بكتاب اللّه و سنّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قال: من ضرب الناس بسيفه و دعاهم الى نفسه و فى المسلمين من هو أعلم منه فهو ضالّ متكلّف «١».

أقول: قد يخال الناظر عند أوّل نظرة أن أسئلة الامام بعيدة عن القصد أجنبيّة عن شأن البيعة لمحمّد، و لكن بعد الرويّة يعرف أن القصد منها جليّ و المناسبة بارزة، و ذلک لأنه يريد أن يفهمهم أنهم جهلاء بالشريعة و أحكامها و أن إمامهم الذى يدعون له مثلهم فى الجهل بقواعد الدين، و كيف يتولّى الجاهل امور الامّة و فيهم الأعلم الأفضل.

مناظرته فى الزهد:

دخل سفيان الثورى على الصادق عليه السّلام فرأى ثيابه بيضا كأنها غرقى البيض «۲» فقال له: إن هذا اللباس ليس من لباسک، فقال له: اسمع منى ما أقول لک، فإنه خير لک عاجلا و آجلا، إن أنت متّ على السنّة و الحقّ

---

(۱) احتجاج الطبرسى: ۲/ ۳۶۴.

(۲) كزبرج: الفشرة الملتزقة ببياض البيض، و التشبيه بها إمّا لشدّة البياض أو للرقة أو لهما معا.

و لم تمت على البدعة.

اخبرک أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله كان فى زمان مقفر جدب فأمّا إذا أقبلت الدنيا فأحقّ أهلها بها أبرارها لا فجّارها، و مؤمنوها لا منافقوها، و مسلموها لا كفّارها، فما أنكرت يا ثورى، فو اللّه أننى لمع ما ترى علىّ منذ عقلت ما مرّ صباح و لا مساء و للّه فى مالى حقّ أمرنى أن أضعه موضعا إلّا وضعته.

و أتاه قوم ممّن يظهر التزهّد و يدعو الناس أن يكونوا معهم على مثل الذى هم عليه من التقشّف، فقالوا له: إن صاحبنا حصر عن كلامک و لم تحضره حججه، فقال لهم: فهاتوا حججكم، فقالوا له: حجّتنا من كتاب اللّه، فقال لهم: فادلوا بها، فإنها أحقّ ما اتبع و عمل به، فقالوا: يقول اللّه تبارک و تعالى مخبرا عن قوم من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و آله: «و يؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة «۱» و من يوق شحّ نفسه فاولئک هم المفلحون» «۲» فمدح فعلهم، و قال فى موضع آخر: «و يطعمون الطعام على حبّه مسكينا و يتيما و أسيرا» «۳» فنحن نكتفى بهذا.

فقال رجل من الجلساء: إنّا رأيناكم تزهدون فى الأطعمة الطيّبة و مع ذلک تأمرون الناس بالخروج من أموالهم حتّى تمتعوا أنتم بها، فقال لهم أبو عبد اللّه:

دعوا عنكم ما لا ينتفع به، أخبرونى أيّها النفر، أ لكم علم بناسخ القرآن من منسوخه، و محكمه من متشابهه، الذى فى مثله ضلّ من ضلّ و هلک من هلک من هذه الامّة؟ فقالوا له: أو بعضه فأمّا كلّه فلا، فقال عليه السّلام لهم: فمن هاهنا

---

(۱) بالفتح الفقر.

(۲) الحشر: ۹.

(۳) الدهر: ۸.

أتيتم، و كذلک أحاديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فأمّا ما ذكرتم من أخبار اللّه إيّانا فى كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم بحسن فعالهم فقد كان مباحا جائزا و لم يكونوا نهوا عنه، و ثوابهم منه على اللّه عزّ و جل، و ذلک أن اللّه جلّ و تقدّس أمر بخلاف ما عملوا به فصار أمره ناسخا لفعلهم و كان نهى تبارک و تعالى رحمة منه للمؤمنين، و نظرا لكى لا يضرّوا بأنفسهم و عيالاتهم، منهم الضعفة الصغار و الوالدان و الشيخ الفانى و العجوزة الكبيرة الذين لا يصبرون على الجوع، فان تصدّقت برغيفى و لا رغيف لى غيره ضاعوا و هلكوا جوعا، فمن ثمّ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: خمس تمرات أو خمسة قرص أو دنانير أو دراهم يملكها الانسان و هو يريد أن يمضيها، فأفضلها ما أنفقه الانسان على والديه، ثمّ الثانية على نفسه و عياله، ثمّ الثالثة على قرابته من الفقراء، ثمّ الرابعة على جيرانه الفقراء، ثمّ الخامسة فى سبيل اللّه و هو أفضلها أجرا.

و قال صلّى اللّه عليه و آله للأنصارى حين أعتق عند موته خمسة أو ستة من الرقيق و لم يملک غيرهم و له أولاد صغار: لو أعلمتمونى أمره ما تركتكم تدفنونه مع المسلمين، يترک صبيانه يتكفّفون الناس «١».

ثمّ قال: حدّثنى أبى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قال: ابدأ بمن تعول الأدنى فالأدنى.

ثمّ قال عليه السّلام: هذا ما نطق به الكتاب ردّا لقولكم و نهيا عنه مفروضا من اللّه العزيز الحكيم قال: «و الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا و لم يقتروا و كان بين ذلک قواما» «٢» أ فلا ترون أن اللّه تبارک و تعالى قال غير ما أراكم تدعون إليه من

---

(١) تكفّف الناس: مدّ كفّه إليهم يستعطى.

(٢) الفرقان: ۶۷.

الاثرة على أنفسكم و سمّى من فعل ما تدعون إليه مسرفا، و فى غير آية من كتاب اللّه يقول: «إنه لا يحبّ المسرفين» «١» فنهاهم عن الإسراف و نهاهم عن التقتير لكن أمر بين أمرين، لا يعطى جميع ما عنده ثمّ يدعو اللّه أن يرزقه فلا يستجيب له، للحديث الذى جاء عن النبى صلّى اللّه عليه و آله: أن أصنافا من أمتى لا يستجاب لهم دعاؤهم، رجل يدعو على والديه، و رجل يدعو على غريم ذهب له بمال فلم يكتب عليه و لم يشهد عليه، و رجل يدعو على امرأته و قد جعل اللّه عزّ و جل تخلية سبيلها بيده، و رجل يقعد فى بيته و يقول ربّ ارزقنى و لا يخرج و لا يطلب الرزق، فيقول اللّه عزّ و جل له: عبدى أ لم أجعل لک السبيل الى الطلب و الضرب فى الأرض بجوارح صحيحة فتكون قد اعذرت فيما بينى و بينک فى الطلب لاتباع أمرى و لكى لا تكون كلّا على أهلک، فإن شئت رزقتک و إن شئت قتّرت عليک، و أنت معذور عندى.

و رجل رزقه اللّه مالا كثيرا فأنفقه ثمّ أقبل يدعو يا ربّ ارزقنى، فيقول اللّه عزّ و جل: أ لم أرزقک رزقا واسعا فهلّا اقتصدت فيه كما أمرتک، و لم تسرف فيه و قد نهيتک عن الإسراف.

و رجل يدعو فى قطيعة رحم، ثمّ علّم اللّه جلّ اسمه نبيّه صلّى اللّه عليه و آله كيف ينفق، و ذلک أنه كان عنده اوقية من الذهب فكره أن تبيت عنده فتصدّق بها، فأصبح و ليس عنده شىء، و جاء من يسأله و لم يكن عنده ما يعطيه فلامه السائل، و اغتمّ هو حيث لم يكن عنده ما يعطيه و كان رحيما رقيقا فأدّب اللّه عزّ و جل نبيّه صلّى اللّه عليه و آله بأمره فقال: «و لا تجعل يدک مغلولة الى عنقک و لا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوما محسورا» «٢» يقول: إن الناس قد

---

(١) الأنعام: ١۴١.

(٢) بنى إسرائيل: ٢٩، و الحسر: الانكشاف، و يراد به هاهنا العراء من المال.

يسألونک و لا يعذرونک، فاذا أعطيت جميع ما عندک من المال كنت قد حسرت من المال.

فهذه أحاديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله يصدّقها الكتاب، و الكتاب يصدّقه أهله من المؤمنين، ثمّ من علمتم من بعده فى فضله و زهده سلمان رضى اللّه عنه و أبو ذر رضى اللّه عنه فأمّا سلمان فكان اذا أخذ عطاءه رفع منه قوته لسنة، حتّى يحضر عطاؤه من قابل، فقيل له: يا أبا عبد اللّه أنت فى زهدک تصنع هذا و أنت لا تدرى لعلّک تموت اليوم أو غدا، فكان جوابه أن قال:

مالكم لا ترجون لى البقاء كما خفتم علىّ الفناء، أ ما علمتم يا جهلة أن النفس قد تلتاث «١» على صاحبها اذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه فاذا أحرزت معيشتها اطمأنت.

و أمّا أبو ذر رحمه اللّه فكانت له نويقات و شويهات يحلبها و يذبح منها اذا اشتهى اللحم أو نزل به ضيف، أو رأى بأهل الماء الذين هم معه خصاصة، نحر لهم الجزور أو من الشاة على قدر ما يذهب عنهم بقرم اللحم «٢» فيقسّمه بينهم و يأخذ هو كنصيب واحد منهم لا يتفضّل عليهم، و من أزهد من هؤلاء؟ و قد قال فيهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله ما قال، و لم يبلغ من أمرهما أن صار لا يملكان شيئا البتّة، كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم و شيئهم و يؤثرون على أنفسهم و عيالاتهم.

و اعلموا أيّها النفر أنى سمعت أبى يروى عن آبائه عليهم السلام أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قال يوما: ما عجبت من شىء كعجبى من المؤمن

---

(١) تختلط.

(٢) القرم- محرّكة- شدّة شهوة اللحم.

انه اذا قرض جسده فی دار الدنیا بالمقاریض کان خیرا له، و إن ملک ما بین مشارق الأرض و مغاربها کان خیرا له، و کلّ ما یصنع به فهو خیر له، فلیت شعری هل یحقّ فیکم ما قد شرحت لکم منذ الیوم أم أزیدکم؟

أ ما علمتم أن اللّه عزّ و جل قد فرض علی المؤمنین فی أوّل الأمر أن یقاتل الرجل منهم عشرة من المشرکین لیس له أن یولّی وجهه عنهم، و من ولّاهم یومئذ دبره فقد تبوّأ «۱» مقعده من النار، ثمّ حوّلهم من حالهم رحمة منه لهم، فصار الرجل منهم علیه أن یقاتل رجلین من المشرکین تخفیفا من اللّه عزّ و جل للمؤمنین فنسخ الرجلان العشرة.

أقول: لمّا هاجر المسلمون من مکّة الی المدینة بدء الهجرة کانوا لا یجدون مأوی و لا مطعما، فکان الإیثار من الأنصار أمرا لازما إلی أن یتمّ للمهاجرین ما یحتاجون إلیه، و لمّا أن تمّ له ما احتاجوه نسخ الإیثار بالتوسّط فی الإنفاق فکان کلام الصادق علیه السلام عن العشرة بدء الجهاد، و عند ما کثر المسلمون و أحسن منهم الضعف و العجز و نسخه بالرجلین تنظیرا لکلامه الأوّل.

ثمّ قال علیه السلام: و اخبرونی أیضا عن القضاة أجورة «۲» هم حیث یقضون علی الرجل منکم نفقة امرأته اذا قال: إنی زاهد و إنی لا شیء لی؟ فإن قلتم جورة ظلمتم أهل الاسلام، و إن قلتم بل عدول خصمتم أنفسکم، و حیث یردون صدقة من تصدق علی المساکین عند الموت باکثر من الثلث.

أقول: و ذلک فیما اذا أوصی أحد باکثر من ثلث ماله بعد الموت، فإنها لا تمضی الوصیّة إلّا فی الثلث دون ما زاد، و قوله «و حیث یردون» أی یرد

---

(۱) هیّأ.

(۲) الهمزة للاستفهام، و الجورة جمع جائر.

القضاة.

ثمّ قال علیه السلام: أخبرونی لو کان الناس کلّهم کالذین تریدون زهّادا لا حاجة لهم فی متاع غیرهم، فعلی من یصدق بکفّارة الأیمان و النذور و الصدقات من فرض الذهب و الفضّة و التمر و الزبیب و سائر ما أوجب فیه الزکاة من الإبل و البقر و الغنم و غیر ذلک؟ اذا کان الأمر کما تقولون لا ینبغی لأحد أن یحبس شیئا من عرض الدنیا إلّا قدمه و إن کان به خصاصة، فبئس ما ذهبتم فیه و حملتم الناس علیه من الجهل بکتاب اللّه عزّ و جل و سنّة نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و أحادیثه التی یصدقها الکتاب المنزل، و ردّکم إیّاها بجهالتکم و ترککم النظر فی غرائب القرآن من الناسخ و المنسوخ، و المحکم و المتشابه و الأمر و النهی.

و اخبرونى أين أنتم عن سليمان بن داود عليهما السّلام حيث سأل اللّه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده، فأعطاه اللّه عزّ و جلّ اسمه ذلک، و كان يقول الحقّ و يعمل به، ثمّ لم نجد اللّه عزّ و جل عاب عليه ذلک و لا أحد من المؤمنين، و داود النبى قبله فى ملكه و شدّة سلطانه.

ثمّ يوسف النبى عليه السلام حيث قال لملک مصر: اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم، فكان من أمره الذى كان أن اختار مملكة الملک و ما حولها الى اليمين، و كانوا يمتارون الطعام من عنده لمجاعة أصابتهم و كان يقول الحقّ و يعمل به، ثمّ لم نجد احدا عاب عليه ذلک.

فتأدّبوا أيّها النفر بآداب اللّه عزّ و جل للمؤمنين، اقتصروا على أمر اللّه و نهيه، و دعوا عنكم ما اشتبه عليكم ممّا لا علم لكم به، و ردّوا العلم إلى أهله تؤجروا و تعذروا عند اللّه تبارک و تعالى، و كونوا فى طلب علم ناسخ القرآن من منسوخه و محكمه من متشابهه، و ما أحلّه اللّه فيه ممّا حرّم فإنه أقرب لكم من اللّه، و أبعد

لكم من الجهل، و دعوا الجهالة لأهلها، فإن أهل الجهل كثير، و أهل العلم قليل، و قد قال اللّه عزّ و جل: «و فوق كلّ ذى علم عليم» «١».

أقول: ما أوقع الناس فى مهامه الجهالة، و متائه الضلالة إلّا الاعتماد على آرائهم و خواطرهم دون ان يراجعوا فى الكتاب و السنّة الى الثقل الثانى- العترة- علماء الكتاب و السنّة، و قد رأيت كيف أوضح لهم الحقّ فى شأن الزهد.

مناظرته فى صدقة:

لا ريب فى أن الناس تقع بالجهل و التيه اذا اعتمدوا على أنفسهم دون أن يرجعوا الى أهل العلم الصادق، فيكون الجاهل تائها فى قفار الجهل و يحسب أنه عالم بالشريعة، و من الذى يرشده الى الهدى و الناس مثله اذا لم يكن المرشد العالم بالشريعة كما جاءت.

و لقد كانت بين الصادق عليه السلام و بين جاهل يدّعى العلم مناظرة فى صدقة يحدّثنا عنها الصادق نفسه فيقول:

إن من اتّبع هواه و اعجب برأيه كان كرجل سمعت غثاء الناس تعظّمه و تصفه، فأحببت لقاءه حيث لا يعرفنى، فرأيته قد أحدق به كثير من غثاء العامّة، فما زال يراوغهم حتّى فارقهم و لم يقر فتبعته، فلم يلبث أن مرّ بخبّاز فتغفّله و أخذ من دكّانه رغيفين مسارقة، فتعجّبت منه، ثمّ قلت فى نفسى: لعله معاملة، ثمّ أقول: و ما حاجته إذن الى المسارقة، ثمّ لم أزل أتبعه حتّى مرّ بصاحب رمّان، فما زال به حتّى تغفّله فأخذ من عنده رمّانتين مسارقة، فتعجّبت منه ثم قلت فى نفسى: لعلّه معاملة، ثمّ أقول: و ما حاجته إذن إلى المسارقة، ثمّ لم أزل

(۱) یوسف: ۷۶، و هذه المناظرة فی أوّل کتاب المعیشة من فروع الکافی.

ص: ۲۱۹

أتبعه حتّی مرّ بمریض فوضع الرغیفین و الرمّانتین بین یدیه.

ثمّ سألته عن فعله فقال: لعلّک جعفر بن محمّد، قلت: بلی، فقال لی: و ما ینفعک شرف أصلک مع جهلک؟ فقلت: و ما الذی جهلت منه؟ قال: قول اللّه عزّ و جل «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها و من جاء بالسیّئة فلا یجزی إلّا مثلها» «۱» و إنی لمّا سرقت الرغیفین کانت سیّئتین، و لمّا سرقت الرّمانتین کانت سیّئتین، فهذه أربع سیّئات فلما تصدّقت بکلّ واحدة منها کان لی أربعین حسنة، فانتقص من أربعین حسنة أربع سیّئات و بقی لی ستّ و ثلاثون حسنة، فقلت: ثکلتک امّک أنت الجاهل بکتاب اللّه، أ ما سمعت اللّه تعالی یقول «إنما یتقبّل اللّه من المتّقین» إنک لمّا سرقت رغیفین کانت سیّئتین، و لمّا سرقت رمّانتین کانت أیضا سیّئتین، و لمّا دفعتها الی غیر صاحبها بغیر أمر صاحبها کنت إنما أضفت أربع سیّئات الی أربع سیّئات، و لم تضف أربعین حسنة الی أربع سیّئات، فجعل یلاحظنی فانصرفت و ترکته.

قال الصادق علیه السلام: بمثل هذا التأویل القبیح المستکره یضلّون و یضلّون «۲».

أقول: و ما اکثر أمثال هذا المتأوّل و لا غرابة بعد أن أعرضوا عن المنهل و استقوا من السراب.

و هذه شذرات من مناظرات الصادق علیه السلام و محاججاته مع من تنکّب عن سبیل الهدی، و حاد عن سنن الحقّ، و هی قطرة من غیث، جئنا بها نموذجا من تلک الحیاة العلمیّة فی الحجج و الأدلّة.

(۱) الأنعام: ۱۶۰.

(۲) وسائل الشیعة: ۲/ ۵۷ باب استحباب الصدقة بأطیب المال.

ص: ۲۲۰

سیرته و أخلاقه

تمهید:

إن سیرة المرء تفصح عن سریرته، و سریرته مطویّة فی سیرته.

قد يحاول غواة التدليس و الرياء بحسن السمت و الهدى إخفاء ما انطوت عليه ضمائرهم و أجنته سرائرهم من الخديعة و الاغواء، بيد أنه ما أسرع ما تفضح الأعمال تلک الطوايا، و الأقوال هاتيک النوايا، فإن ما فی القلب تظهره فلتات اللسان و حرکات الأعمال.

ثوب الرّياء يشفّ عمّا تحته فاذا التحفت به فإنّک عار

و قد يروم رجال من ذوی الأخلاق الفاضلة و أرباب العرفان ألّا تظهر منهم تلک السرائر النقيّة و الضمائر الزکيّة، حذر الافتتان أو الشهرة، فلا يلبث دون أن تضوع تلک النفحات الذکيّة، و يضیء سنا تلک النفس القدسيّة.

و مهما تکن عند امرئ من خليقة و إن خالها تخفی علی الناس تعلم

و هذه ألسنة الخلق فإنها فی الکشف عن الحقائق أقلام الحق.

نعم ربما تنبری فئة للدفاع عن تلک الشرذمة الخادعة عصبيّة أو اغترارا بظاهر تلک الشؤون الصالحة، أو تندفع زمرة للمسّ بکرامة هؤلاء الأبدال أتباعا لقوم فتکت فيهم أدواء الحسد و الأحقاد، أو الجهل و العناد، و لکن الحقيقة لا يجهلها البصير، و أن الشمس لا يسترها الغربال.

ص: ۲۲۱

و ها هو ذا الصادق عليه السّلام تدلّنا سيرته و تعلمنا عن سريرته، أنه من أهل البيت الذين أذهب اللّه عنهم الرجس و طهّرهم تطهيرا، و من العترة التی ترکها النبی صلّی اللّه عليه و آله فی امّته لتکون بيانا عن کتابه الصامت، و ليکونا معا العروة الوثقی التی لا انفصام لها و التی ينجو المستمسک بها من مهاوی الضلال.

فکانت سيرته القويمة تريد بالناس إخراجهم من الغواية الی الهداية، و من العمی الی البصر، و من الجهل الی العلم، و تلک السريرة مطويّة فی هذه السيرة.

و نحن نورد من سيرته ما يعرب عن تلک الأخلاق العظيمة و النفسيّة القدسيّة العلويّة، التی لا ترى غير الجهاد فی الإرشاد و الإصلاح همّا و لا همّة.

آدابه فی العشرة:

إن الأخلاق الحميدة قد تکون غرائز نفسيّة، و طبائع فطريّة، أمثال السماحة و الشجاعة و البشاشة و البلاغة، و قد تکون بالتعلّم و الاکتساب مثل العبادة و الزهادة و المعارف و العلوم و الآداب.

و إن من يسبر سيرة هاشم و بنيه يجدهم قد جمعوا الفضائل بقسميها، و الأخلاق بشطريها، حتّى اذا نبغ الرسول صلّى اللّه عليه و آله من بينهم و أخذ من كلّ فضيلة بأسماها كما يقتضيه منصبه الإلهى كان بنوه أحقّ من درج على سنّته و اتّبع جميل أثره لا سيّما و الفضيلة شعار قبيلتهم قبل هذا التراث من رسول الأخلاق و الفضائل.

و من يستقص سيرة أبى عبد اللّه عليه السلام يعرف أنه الشخصيّة المثاليّة لأبيه المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و ما المرء إلّا بعمله، و لئن سكت عن بيان حاله فأعماله ترجمان ذاته و صفاته.

ص: ٢٢٢

و لقد مرّ عليک ما قاله العلماء فى شأنه، و كفى عن تعريف شخصيّته ما قرأته من حياته العلميّة، و سوف تقرأ المختار من كلامه فتتمثل له منزلته فى الأخلاق و الفضيلة من تلک النوادر الغالية، و كان الجدير أن يكون مثالا لكلامه قبل أن يحمل عليه رجاله و الآخذين عنه.

فلا نستكبر منه إذن أن يكون بين أصحابه كأحدهم لا تظهر عليه آثار العزّة و حشمة الإمامة، فقد خرج يوما و هو يريد أن يعزّى ذا قرابة بفقد مولود له، و معه بعض أصحابه فانقطع شسع نعله، فتناول نعله من رجله، ثمّ مشى حافيا، فنظر إليه ابن أبى يعفور «١» فخلع نعل نفسه من رجله و خله الشسع منها و ناولها أبا عبد اللّه عليه السلام، فأعرض عنه كهيئة المغضب ثمّ أبى أن يقبله، و قال: لا، صاحب المصيبة أولى بالصبر عليها، فمشى حافيا حتّى دخل على الرجل الذى أتاه ليعزّيه.

و كان اذا بسط المائدة حثّهم على الأكل و رغّبهم فيه، و لربّما يأتيهم بالشىء بعد الشبع، فيعتذرون فيقول: ما صنعتم شيئا إن أشدّكم حبّا لنا أحسنكم أكلا عندنا، ثمّ يروى لهم عن النبى صلّى اللّه عليه و آله أمثال ذلک لتطيب نفوسهم بالأكل و ترغب بالزيادة، و يروى لهم هذا القول، أعنى «أشدّكم حبّا لنا أحسنكم أكلا عندنا» عن النبى صلّى اللّه عليه و آله مع سلمان و المقداد و أبى ذر.

و قد يجىء بالقصعة من الارز بعد انتهائهم من الأكل، فاذا امتنع أحدهم من الأكل قال له: يعتبر حبّ الرجل لأخيه بانبساطه فى طعامه، ثمّ يجوز له حوزا و يحمله على أكله، و اذا رآهم يقصرون فى الأكل خجلا قال لهم: تستبين

---

(١) سيأتى فى مشاهير الثقات من أصحابه.

ص: ٢٢٣

مودّة الرجل لأخيه فى أكله «١».

و كان اذا أطعم أصحابه يأتيهم بأجود الطعام، قال بعضهم: كان أبو عبد اللّه عليه السلام ربّما أطعمنا الفرانى و الأخبصة، ثمّ أطعمنا الخبز و الزيت فقيل له: لو دبّرت أمرک حتّى يعتدل يوماک، فقال: إنما نتدبّر بأمر اللّه اذا وسّع وسّعنا و اذا قتّر قتّرنا.

و قال أبو حمزة: كنّا عند أبى عبد اللّه عليه السلام جماعة فاتينا بطعام ما لنا عهد بمثله لذاذة و طيبا، و أتينا بتمر ننظر فيه وجوهنا من صفائه و حسنه «۲».

و كان مع ذلک الشأن و السنّ يمنع ضيفه من القيام لبعض الحوائج فإن لم يجد أحدا قام هو بنفسه، و يقول: نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله عن أن يستخدم الضيف «۳».

و لرغبته فى بقاء الضيف عنده كان لا يساعده على الرحيل عنه، كما صنع ذلک مع قوم من جهينة، فإنه أمر غلمانه ألّا يعينوهم على الرحلة، فقالوا له: يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله لقد أضفت فأحسنت الضيافة، و أعطيت فأجزلت العطيّة، ثمّ أمرت غلمانک ألّا يعينونا على الرحلة، فقال عليه السلام:

إنّا أهل بيت لا نعين أضيافنا على الرحلة من عندنا «۴».

و كان من حبّه للبرّ و الإطعام و التزاور أن يأمر بها أصحابه تصريحا و تلويحا، و لربّما كان التلويح أجمل فى الترغيب بالعمل، حيث يخبر عن حبّه لتلک الخصال الكريمة، فيقول: لئن آخذ خمسة دراهم و أدخل الى سوقكم هذه فأبتاع

---

(۱) بحار الأنوار: ۴۷/ ۴۰/ ۴۷.

(۲) وسائل الشيعة: ۳/ ۲۶۸.

(۳) بحار الأنوار: ۴۷/ ۴۰/ ۴۸.

(۴) مجالس الصدوق رحمه اللّه، المجلس/ ۱۸.

بها الطعام و أجمع نفرا من المسلمين أحبّ إلىّ من أن أعتق نسمة «۱».

و يقول: لئن أطعم مؤمنا محتاجا أحبّ إلىّ من أن أزوره، و لئن أزوره أحبّ إلىّ من أن أعتق عشر رقاب «۲». و ما أكثر ما جاء عنه من أمثال ما أوردناه.

و إخال أن السرّ فى تقديم بعض هذه الامور على بعض هو رعاية الالفة و التوادد فما كان أدخل فى الاجتماع كان أفضل.

و انظر كيف يقرّب لک حسن الصنيعة و الافضال ليحملک على هذا العمل الجميل فيقول: ما من شىء أسرّ إلىّ من يد أتبعتها الاخرى، لأن من الأواخر يقطع شكر الأوائل «۳».

أقول: إن الوجدان شاهد صدق على ذلک، لأن اليد الواحدة اذا اتبعها الانسان بقطيعة فوّتت القطيعة شكر تلک الصنيعة، فلا يدوم الشكر إلّا إذا تتابعت الأيدى.

و إن شئت أن تقف على عمله الذى يمثّل لک العطف و البرّ فانظر الى ما كان يعمله فى (عين زياد) و هى ضيعة كانت له حول المدينة فيها نخل كثير، فإن بعض أصحابه طلب منه أن يذكر لهم ذلک.

قال عليه السلام: كنت آمر اذا أدركت الثمرة أن يثلم فى حيطانها الثلم ليدخل الناس و يأكلوا، و كنت آمر فى كلّ يوم أن يوضع عشر ثبنات «۴» يقعد على كلّ ثبنة عشرة، كلّما أكل عشرة جاء عشرة اخرى، يلقى لكلّ منهم مد من

---

(۱) الكافى: ۲/ ۲۰۳/ ۱۵.

(۲) الكافى: ۲/ ۲۰۳/ ۱۸.

(۳) كشف الغمّة، فى أحوال الصادق عليه السلام: ۲/ ۲۰۵.

(۴) جمع ثبنة بالضم و هى الموضع الذى تحمل فيه من ثوبک تثنيه بين يديک ثمّ تحمل فيه من التمر أو غيره.

رطب، و كنت آمر لجيران الضيعة كلّهم الشيخ و العجوز و الصبى و المريض و المرأة و من لا يقدر أن يجىء فيأكل منها، لكلّ إنسان مد، فاذا كان الجداد «۱» وفيت القوام و الوكلاء و الرجال أجرتهم، و أحمل الباقى الى المدينة، ففرّقت فى أهل البيوتات و المستحقّين الراحلتين و الثلاث و الأقلّ و الأكثر على قدر استحقاقهم، و حصل لى بعد ذلک ألف دينار، و كان غلّتها أربعة آلاف دينار «۲».

و هذا الإنفاق و إن بلغ ثلاثة آلاف دينار لا يستكثر على سماحة أهل البيت، و إنما الجميل فيه اهتمامه فى صلة المعوزين و مواصلة البرّ لهم.

و إن الأفضل فى الأخلاق ما يحكيه عن نفسه بقوله: إنه ليعرض لى صاحب الحاجة فابادر الى قضائها مخافة أن يستغنى عنها صاحبها «۳».

هذه بعض أخلاقه العالية التى تمثّل لک البرّ و العاطفة و تجسّم لک الحنان و الرأفة، فكأنما الناس كلّهم عياله و إخوانه و آله، و لا بدع فذلک شأن الإمام فى الامّة.

سخاؤه:

إن السخاء و إن كان خلّة كريمة فى نفسه، و فائدة لمن يجىء بالعطاء، إلّا أن فيه عدا هذا فوائد اخرى اجتماعيّة ملموسة، إن الكريم يحمل الناس على حبّ الكريم، و الحبّ داعية الائتلاف، بل ربما كان الحبّ سلّما لرئاسة ذى الجود و الإصغاء لقوله، و كم تكون من جدوى زعامة المرء و استماع كلامه اذا كان من أهل الصلاح و الخير.

---

(١) بالمهملتين و المعجمتين: قطع التمر.

(٢) بحار الأنوار: ۴۷/ ۵۱/ ۸۳.

(٣) المجلس/ ٣١ من أمالى الطوسى طاب ثراه.

ص: ٢٢۶

و هو القائل للمعلّى بن خنيس: يا معلّى تحبّب الى إخوانک بصلتهم، فان اللّه تعالى جعل العطاء محبّة و المنع مبغضة، فأنتم و اللّه إن تسألونى و اعطيكم أحبّ إلىّ من ألّا تسألونى فلا اعطيكم فتبغضونى «١».

فكان الصادق عليه السلام يعطى العطاء الجزيل، العطاء الذى لا يخاف صاحبه الفقر، و قد سبق فى الأخلاق بعض هباته، كما سيأتى الوفر من صلاته.

و قد أعطى مرّة فقيرا أربعمائة درهم فأخذها و ذهب شاكرا، فقال لعبده:

ارجعه، فقال: يا سيّدى سئلت فأعطيت فما ذا بعد العطاء؟ فقال له: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: خير الصدقة ما أبقت غنى و إنّا لم نغنک، فخذ هذا الخاتم فقد أعطيت فيه عشرة آلاف درهم فإذا احتجت فبعه بهذه القيمة «٢».

أحسب أن الصادق عليه السلام إنّما زاده للشكر، و الشكر داعية المزيد يقول تعالى: «و لئن شكرتم لأزيدنكم» و لقد زاد سائلا من ثلاث حبّات عنب الى كفّين الى نحو من عشرين درهما الى قميص، و ما ذاک إلّا لأن السائل قنع فى الاولى و حمد اللّه تعالى و ما كفّ عن عطائه إلّا بعد أن كفّ عن الحمد و دعا للصادق عليه السلام «٣».

و دخل عليه أشجع السلمى «۴» فوجده عليلا فجلس و سأل عن علّة مزاجه، فقال الصادق له: تعدّ عن العلّة و اذكر ما جئت له، فقال:

ألبسک اللّه منه عافية فى نومک المعترى و فى أرقک

(۱) المجلس/ ۱۱ من أمالی الطوسی طاب ثراه.

(۲) بحار الأنوار: ۴۷/ ۶۱.

(۳) نفس المصدر.

(۴) هو من الشعراء المجیدین و المجاهرین بالولاء و الحبّ لأهل البیت، ترجم له فی الأغانی: ۱۷/ ۳۰ و أعیان الشیعة: ۱۳/ ۳۴۶.

یخرج من جسمک السقام کما أخرج ذلّ السؤال من عنقک

فقال: یا غلام أیّ شیء معک، قال: أربعمائة، قال: اعطها لأشجع «۱» و دخل علیه المفضّل بن قیس بن رمّانة، و کان من رواته الثقات و أصحابه الأخیار فشکا إلیه بعض حاله و سأله الدعاء، فقال: یا جاریة هاتی الکیس الذی وصلنا به أبو جعفر، فجاءت بکیس، فقال: هذا کیس فیه أربعمائة دینار فاستعن به، فقال له: لا و اللّه جعلت فداک ما أردت هذا و لکن أردت الدعاء، فقال له: و لا أدع الدعاء، و لکن لا تخبر الناس بکلّ ما أنت فیه فتهون علیهم «۲».

و هذه بعض نفحاته الجزیلة، و ما ذکرناها إلّا مثالا لذلک الخلق السامی و تدلیلا علی تخلقه بهذه الخلّة الحمیدة، و لا نرید أن نذکر له کلّ نفحة طیّبة و بما مضی و یأتی کفایة.

هباته السرّیة:

إن الصلة و إن کانت من الأب أو ممّن هو أرفق منه کالإمام قد تحدث فی القابل انکسارا و ذلّة، لأنها تنبّئ عن تفضّل المعطی و حاجة الآخذ، و الحاجة نقص، و الشعور به یحدث الانکسار فی النفس.

و قد تحدث فی المعطی هزّة الإفضال، و تبجّح المتفضّل، هذا سوی ما قد یکون للعطیّة فی بعض النفوس من حبّ الذکر و الفخر و السمعة أو الریاء أو ما سوی ذلک ممّا تکرم عنه النفوس النزیهة النقیّة.

(۱) مناقب ابن شهرآشوب: ۴/ ۲۷۴.

(۲) الکشی: ص ۱۲۱.

فلهذا أو لغيره كان دأب أرباب الأخلاق الفاضلة التكتّم فى الصلة و شأن أهل البيت خاصّة التستّر فى صلاتهم، فلا تكاد تمرّ عليک سيرة إمام منهم إلّا و تجد فيها ترقّبه للغلس ليتّخذه سترا فى الهبات و الصّلات.

فلا أرى ذلک الإصرار على الأسرار إلّا لأنّهم لا يريدون أن يشاهدوا على الآخذ ذلّة الحاجة و الخضوع للمتفضّل المحسن، و إنهم أزكى نفسا و أعلى شأنا من أن يخافوا الفتنة فى الإعلان.

و من ثمّ تجد الصادق اذا جاء الغلس أخذ جرابا فيه الخبز و اللحم و الدراهم فيحمله على عاتق، ثمّ يذهب الى أهل الحاجة من أهل المدينة فيقسّمه فيهم و هم لا يعرفونه، و ما علموا ذلک حتّى مضى لربّه فافتقدوا تلک الصلات، فعلموا أنها كانت من أبى عبد اللّه عليه السّلام «۱».

و هذه السيرة درج عليها آباؤه من قبل، و نهج عليها بنوه من بعد.

و ما كانت سيرته تلک مع أهل المدينة خاصّة بل يعمل ذلک حتّى مع الهاشميّين، فإنه كان يتعاهدهم بالصلة و يتخفّى فى نسبتها إليه، و كان يرسل إليهم بصرر الدنانير و يقول للرسول: قل لهم إنها بعث بها من العراق، ثمّ يسأل الرسول بعد عودته عمّا قالوه فيقول: إنهم يقولون: أمّا أنت فجزاک اللّه خيرا بصلتک قرابة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و أمّا جعفر فحكم اللّه بيننا و بينه فيخرّ أبو عبد اللّه عليه السلام ساجدا و يقول اللّهمّ أذل رقبتى لولد أبى «۲».

و أعطى يوما صرّة لأبى جعفر الخثعمى «۳» و أمره بأن يدفعها الى رجل من بنى هاشم و أمره بكتمان الأمر، فلمّا أوصله بالصرّة قال: جزاه اللّه خيرا ما يزال

---

(۱) بحار الأنوار: ۴۷/ ۳۸/ ۴۰.

(۲) نفس المصدر.

(۳) و هو محمّد بن حكيم من أصحاب الصادق و رواته، و روى عنه الثقات و أصحاب الاجماع.

كلّ حين يبعث بها فنعيش بها الى قابل، و لكنّى لا يصلنى جعفر بدرهم مع كثرة ماله «۱».

و كان لا يترک صلاته حتّى لقاطعيه منهم، و حتّى ساعة الاحتضار، فإنه حين دنا أجله و كان فى سكرات الموت أمر بإجراء العطاء، و أمر للحسن بن علىّ الأفطس «۲» بسبعين دينارا فقيل له: أ تعطى رجلا حمل عليک بالشفرة ليقتلک؟ فقال عليه

السّلام: و يحكم أ ما تقرءون: «و الذين يصلون ما أمر اللّه به أن يوصل و يخشون ربّهم و يخافون سوء الحساب» «۳». إن اللّه خلق الجنّة فطيّبها و طيّب ريحها ليوجد من مسيرة ألفى عام و لا يجد ريحها عاق و لا قاطع رحم «۴».

هذه نفحات من هباته السرّيّة، و صلاته الخفيّة، التى تمثّل لک الرحمة و الرأفة.

حلمه:

و كان التجاوز عليه يأتيه من القريب و البعيد، فلا يقابله إلّا بالصفح بل ربما قابله بالبرّ و الإحسان.

و قد مرّ عليک شطر منه فى العنوان الماضى و كثير فى حياته السياسيّة فى محنه و سيأتى فى أبواب كثيرة، و نحن نورد لک الآن بعض ما ينبيک عن هذا الخلق

---

(۱) مناقب ابن شهرآشوب: ۴/ ۲۷۳.

(۲) هو الحسن بن على الأصغر بن على بن الحسين عليهما السلام و خرج مع محمّد بن عبد اللّه و كانت بيده راية بيضاء و ابلى، و يقال: إنه لم يخرج معه أشجع منه و لا أصبر و كان يقال له رمح آل أبى طالب لطوله و طوله و لما قتل محمّد اختفى الحسن هذا، و حين دخل الصادق العراق و لقى أبا جعفر تشفّع به فشفعه، و مع هذه الصنيعة و تلک الصلات حمل عليه بالشفرة.

(۳) الرعد: ۲۱.

(۴) غيبة الشيخ الطوسى طاب ثراه، و المناقب: ۴/ ۲۷۳.

الكريم.

فكان اذا بلغه نيل منه و وقيعة و شتم يقوم فيتهيّأ للصلاة فيصلّى ثمّ يدعو طويلا ملحّا فى الدعاء سائلا ربّه ألّا تؤاخذ ذلک الجانى بظلمه و لا يقايسه على ما جنى، لأن الحقّ حقّه، و قد وهبه للجانى غافرا له ظلمه «۱».

بل يزيد على ذلک فى ذوى رحمه فيقول: إنى لا حبّ أن يعلم اللّه أنى أذللت رقبتى فى رحمى، و أنى لأبادر أهل بيتى أصلهم قبل أن يستغنوا عنى «۲».

إن الحوادث محكّ، و بها تعرف مقادير الرجال، و بها تبلى السرائر و من ثمّ تعرف الفرق بين أبى عبد اللّه و بين ذوى قرابته، فكان يجفوه أحدهم، بل ينال منه الآخر شتما و نبزا، بل يحمل عليه الثالث بالشفرة عامدا على قتله، و ليس هناک ما يدعوهم

الى تلک الجفوة و القسوة و القطيعة فيعاملهم على عكس ما فعلوه معه، فتراه واصلا بدل القطيعة، و بارّا عوض الجفاء، و عاطفا بدل القسوة.

لقد أحزنته تلک النكبات التى أوقعها المنصور ببنى الحسن حتّى لقد بكى و ظهر عليه الجزع و الاستياء بل حمّ أياما حين حمل المنصور شيوخ بنى الحسن و رجالهم من المدينة الى الكوفة، و هم قد لاقوه بسيّئ القول بالابواء يوم أرادوا البيعة لمحمّد، و ما زال محمّد و أبوه عبد اللّه يلاقيانه بالقول السيّئ زعما منهما أنه كان حجر عثرة فى سبيل البيعة لمحمّد، و لمّا أن ظهر محمّد بالمدينة أرسل على الصادق يريد منه البيعة، و حين امتنع عليه قابله بسوء القول و الفعل، و كم تجرّع غصصا من بنى العبّاس و رجالهم، و لو لم يكن قادرا على شيء ينتقم به منهم إلّا الدعاء لكفى به سلاحا ماضيا.

---

(١) مشكاة الأنوار: ٢١٧.

(٢) الكافى: ٢/ ١٥۶/ ٢۵.

و ما كان الحلم شعاره مع الأقربين من أهله فحسب، بل كان مع مواليه و سائر الناس، فقد بعث غلاما له فى حاجة فأبطأ فخرج على أثره فوجده نائما فجلس عند رأسه يروّح له حتّى انتبه، فلمّا انتبه لم يكن منه معه إلّا أن قال: يا فلان ما ذلک لک تنام الليل و النهار، لک الليل و لنا منک النهار «١».

و بعث مرّة غلاما له أعجميّا فى حاجة ثمّ جاء الغلام فاستفهم الصادق عليه السلام الجواب و الغلام يعنى عن إفهامه، حتّى تردّد ذلک منه مرارا و الغلام لا ينطق لسانه و لا يستطيع إفهامه، فبدلا من أن يغضب عليه أحدّ النظر إليه و قال: لئن كنت عيى اللسان فما أنت بعيى القلب، ثمّ قال عليه السلام: إن الحياء و العفاف و العى- عىّ اللسان لا عىّ القلب- من الإيمان، و الفحش و البذاءة و السلاطة «٢» من النفاق «٣».

و نهى أهل بيته عن الصعود فوق البيت فدخل يوما فإذا جارية من جواريه ممّن تربّى بعض ولده قد صعدت فى سلّم و الصبىّ معها، فلما بصرت به ارتعدت و تحيّرت و سقط الصبىّ الى الأرض فمات، فخرج الصادق و هو متغيّر اللون فسئل عن ذلک فقال: ما تغيّر لونى لموت الصبى و إنما تغيّر لونى لما أدخلت على الجارية من الرعب، و كان قد قال لها: أنت حرّة لوجه اللّه لا بأس عليک، مرّتين «۴».

و ما كان هذا رأيه مع أهله و غلمانه فحسب بل كان ذلک شأنه مع الناس كافّة، فإنّه نام رجل من الحاجّ فى المدينة فتوهّم أن هميانه سرق فخرج فرأى

---

(١) الكافى: ٨/ ٨٧.

(۲) طول اللسان.

(۳) بحار الأنوار: ۴۷/ ۶۱.

(۴) المناقب: ۴/ ۲۷۵.

ص: ۲۳۲

الصادق مصلّيا و لم يعرفه فتعلّق به و قال: أنت أخذت همياني، قال: ما كان فيه؟ قال: ألف دينار، فحمله الى داره و وزن له ألف دينار، و عاد الرجل الى منزله و وجد همیانه، فعاد الى الصادق معتذرا بالمال، فأبى قبوله، و قال: شیء خرج من يدى لا يعود إليّ، فسأل الرجل عنه، فقيل: هذا جعفر الصادق، قال:

لا جرم هذا فعال مثله «۱».

بل دأب على هذه الخلّة حتى مع ألدّ أعدائه، فإنّه لمّا سرّحه المنصور من الحيرة خرج ساعة أذن له و انتهى الى موضع السالحين فى أوّل الليل فقال له: لا أدعک أن تجوز فألحّ عليه و طلب إليه فأبى إباء شديدا و كان معه من أصحابه مرازم «۲» و من مواليه مصادف «۳» فقال له مصادف: جعلت فداک إنما هذا كلب قد آذاک، و أخاف أن يردک، و ما أدرى ما يكون من أمر أبى جعفر، و أنا و مرازم أ تأذن لنا أن نضرب عنقه ثمّ نطرحه فى النهر، فقال: كيف يا مصادف، فلم يزل يطلب إليه حتّى ذهب من الليل اكثره، فأذن له فمضى، فقال: يا مرازم هذا خير أم الذى قلتما؟ قلت: هذا جعلت فداک، فقال: يا مرازم إن الرجل يخرج من الذلّ الصغير ذلک فى الذلّ الكبير «۴».

أقول: لعلّه عنى من الذلّ الكبير القتل، و الذلّ الصغير الطلب، و الخطاب خطاب إنكار.

هذا بعض ما كان منه ممّا دلّک على ذلک الحلم العظيم، الذى كان يلاقى به تلک الاعتداءات و المخالفات لقوله و لأمره.

---

(۱) المناقب: ۴/ ۲۷۴.

(۲) سيأتى فى المشاهير من ثقات رواته.

(۳) سيأتى فى مواليه.

(۴) روضة الكافى: ۸/ ۸۷/ ۴۹.

ص: ۲۳۳

عطفه:

إن الإمام لا يعرف فرقا فى البرّ و العطف بين الناس، فالناس قريبهم و بعيدهم لديه شرع سواء، و ما كلّ من ينيلهم بذلک البرّ و الصلة فى جوف الليل، و يسعفهم من التمر من عين زياد، ممّن يرى إمامته و ولاءه، فالمسلمون كلّهم- لو استطاع- مغرس برّه، و منال عطفه.

فمن بوادر عطفه ما كان منه مع مصادف مولاه، فإنه دعاه فأعطاه ألف دينار، و قال له: تجهّز حتّى تخرج الى مصر فإن عيالى قد كثروا فتجهّز بمتاع و خرج مع التجّار الى مصر، فلمّا دنوا من مصر استقبلتهم قافلة خارجة من مصر، فسألوهم عن المتاع الذى معهم ما حاله فى المدينة، و كان متاع العامّة، فأخبروهم أن ليس بمصر منه شىء، فتحالفوا و تعاقدوا على ألّا ينقصوا من ربح دينار دينارا، فلمّا قبضوا أموالهم انصرفوا الى المدينة، فدخل مصادف على أبى عبد اللّه عليه السّلام و معه كيسان فى كلّ واحد ألف دينار، فقال: جعلت فداک هذا رأس المال و هذا الآخر ربح، فقال عليه السّلام: إن هذا الربح كثير، و لكن ما صنعتم فى المتاع، فحدّثه كيف صنعوا و كيف تحالفوا، فقال:

سبحان اللّه تحلفون على قوم مسلمين ألّا تبيعوهم إلّا بربح الدينار دينارا، ثمّ أخذ أحد الكيسين، فقال: هذا رأس مالى، و لا حاجة لنا فى الربح، ثمّ قال: يا مصادف مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال «١».

أقول: إن هذا الربح الذى أخذه مصادف ما كان حراما حسب القواعد الشرعيّة، و لكن الصادق عليه السلام لا يريد من الناس إلّا الإرفاق من بعضهم

---

(١) بحار الأنوار: ۴۷/ ۵۹/ ۱۱۱.

ببعض، شأن الاخوة المتحابّين لا سيّما ساعة العسرة، و كان ذلک التحالف و التعاقد على خلاف ما تدعو إليه المروّة، و ذلک الربح على غير ما يتطلّبه الإرفاق، و من ثمّ استنكر الصادق هذا العمل حتّى عدّ الربح بهذا الوجه غير حلال فسمّاه حراما على نحو المجاز، و كان ذلک تعليما منه لمصادف و من سمع منه من أوليائه.

و تشاجر أبو حنيفة سائق الحاجّ «١» مع ختنه «٢» فيه ميراث فمرّ عليهما المفضّل بن عمر، و كان وكيلا للصادق عليه السلام فى الكوفة، و بعد ساعة من وقوفه عليهما أمرهما بالمجىء معه الى الدار و أصلح أمرهما بأربعمائة درهم و دفعها من عنده، و بعد استيثاق كلّ واحد من صاحبه قال لهما: أما أنها ليست من مالى، و لكن أبو عبد اللّه عليه السلام أمرنى اذا تنازع رجلان من أصحابنا فى شىء أن أصلح بينهما و افتديهم من ماله، فهذا مال أبى عبد اللّه عليه السلام «٣».

أجل ما أفضل إصلاح ذات البين، و لكن الأفضل فيه أن يفتدى المصلح من ماله، و هذه هى العاطفة حقا التى تريک الرأفة و الرحمة ملموستين.

و ما كان حاله مع الغلامين و الجارية فيما سبق فى الحلم حلما فحسب، بل حلم و عطف، فإنه لم يقنع بأن يصفح عمّا كان منهم دون أن يعطف على الأول فيروّح له، و هو إمام الامّة، و يمدح الثانى بأنه غير عيى القلب، و يهب للجارية جرمها، و ما اكبره، بل يزيد فى الإحسان لها أن يحرّرها من رقّ العبوديّة.

و ما أوفر عطفه فكم دعا لسجين بإطلاق سراحه كما فى دعائه لسدير و عبد الرحمن و هما من أصحابه و كانا فى السجن، و علّم أمّ داود الحسنى، و كان فى

---

(١) و اسمه سعيد بن بيان و كان من أصحاب الصادق و ثقات رواته.

(٢) الختن- بالتحريک- الصهر.

(٣) الكافى: ٢/ ٢٠٩/ ۴.

سجن المنصور مع بنى الحسن، دعاء و عملا و صوما فى الأيام البيض من رجب، فعملت ما قال فاطلق سراحه و ما زال العمل يعرف الى اليوم بعمل أمّ داود، الى كثير سواهم.

و كم دعا لمريض بالعافية فعوفى، كما فى دعائه لحبابة الوالبيّة و كانت من النساء الفاضلات، و ليونس بن عمّار الصيرفى و هو من رجال الصادق الثقات، و لرجل عرض له و قد سئل له الدعاء، و لا مرأة بها وضح فى عضدها، و لرجل جاءه فى البيت متعوّذا و به بلاء شديد، الى غير هؤلاء.

و كم دعا لناس بسعة الحال فأصابوا الدعوة، كما فى طرخان النخاس و حمّاد بن عيسى و غيرهما، و سنذكر ذلک فى استجابة دعائه.

و لا غرابة أن يكون أبو عبد اللّه عليه السلام على تلک العاطفة النبيلة، و ما هى إلّا بعض ما يجب أن يستشعره.

جلده:

إن من يلمس فى أبى عبد اللّه عليه السلام تلک العاطفة الرقيقة التى تدر دمعته و تذكى النار فى قلبه رحمة، و تختطف الدم من وجهه، يستغرب كيف يكون له الجلد الذى لا توازنه الجبال الشمّ فى احتماله.

كان ابنه إسماعيل اكبر أولاده، و هو ممّن جمع الفضيلة و العقل و العبادة فكان الصادق عليه السلام يحبّه حبّا شديدا، حتّى حسب بعض الناس أن الامامة فيه بعد أبيه، فلمّا مات و كان الصادق عند مرضه حزينا عليه جمع أصحابه و قدّم لهم المائدة و

جعل فيها أفخر الأطعمة و أطيب الألوان، و دعاهم الى الأكل و حثّهم عليه لا يرون للحزن أثرا عليه، و كانوا يحسبون أنه سيجزع و يبكى و يتأثّر و يتألّم، فسألوه عن ذلک فقال لهم: و ما لى لا اكون كما ترون

ص: ۲۳۶

و قد جاء فى خبر أصدق الصادقين: إنّى ميّت و إيّاكم.

و مات ابن له من غصّة اعترته و هو يمشى بين يديه فبكى و قال: لئن أخذت لقد أبقيت، و لئن ابتليت لقد عافيت، ثمّ حمله الى النساء فصرخن حين رأينه، فأقسم عليهنّ ألّا يصرخن، ثمّ أخرجه الى الدفن و هو يقول: سبحان من يقتل أولادنا و لا نزداد له إلّا حبّا، و يقول بعد الدفن: إنّا قوم نسأل اللّه ما نحبّ فيمن نحبّ فيعطينا، فاذا أحبّ ما نكره فيمن نحبّ رضينا «۱».

لا أدرى من أيّها يعجب المرء أمن جلد أبى عبد اللّه عليه السلام على هذه المفاجأة المشجية، أم من هذا الشكر المتوالى على مثل هذه النوائب المؤلمة، أم من ذلک الحبّ للخالق على كلّ حال، و الرضى بما يصنع فى كلّ أمر، أم من تلک البلاغة و الفصاحة و تدافع الحكم البليغة و مطاوعتها له ساعة الدهشة و الذهول؟

أجل لو لا هذه الملكات القدسيّة، و الأحوال المتضادّة فى شخصيّة أبى عبد اللّه عليه السلام لم تكن الشخصية الوحيدة فى خصالها و صفاتها.

و كفى إكبارا لجلده سقوط الولد من يد الجارية و موته، و تغيّر لونه لفزع الجارية و ارتهابها، و لم يظهر عليه الحزن و الجزع لهذه المفاجأة بموت الصبى على هذه الصور المشجية.

و ما زال يشاهد الآلام و النوائب و المكاره طيلة أيامه من الدولتين و لم يعرف التاريخ عنه تطامنا و خضوعا و جزعا و ذهولا بل ما زال يظهر عليه الصبر و الجلد و توطين النفس.

هيبته:

قد تكون الهيبة للرجال العظام من تلک الكبرياء التى يرتديها المرء نفسه،

---

(۱) بحار الأنوار: ۴۷/ ۱۸/ ۸.

ص: ۲۳۷

أو من الذين حوله من خدم و أهل و قبيلة، أو جند و دولة، و هذه الهيبة لا تختصّ بقوم، فإن كلّ من تلبّس بأحد هذه الشؤون اكتسى هذه الهيبة، و هذه الهيبة جديرة بأن تسمّى الهيبة المصطنعة.

و قد تكون للمرء من دون أن يحاط بجيش و خدم و عشيرة و دولة و إمرة و كبرياء، تلك الهيبة التى لا تكون باللباس المستعار، بل هى التى يفيضها اللّه تعالى على من يشاء من عباده، تلك الهيبة التى لا يزيلها التواضع و حسن الخلق و الانبساط، تلك التى يلبسها العلم و العمل به، من أراد عزّا بلا عشيرة و هيبة بلا سلطان، فليخرج من ذلّ معصية اللّه الى عزّ طاعته، و إن من خاف اللّه أخاف منه كلّ شيء، و من لم يخف اللّه أخافه من كلّ شيء، و هذه الهيبة جديرة بأن تسمّى الهيبة الذاتيّة.

إن المنصور كان صاحب تلك الهيبة المصطنعة، و من أوسع منه ملكا، و أكثر جندا، و أقوى فتكا؟ و لكنه كان اذا نظر الى جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام و هو عازم على قتله هابه و انثنى عن عزمه.

يقول المفضّل بن عمر: إن المنصور قد همّ بقتل أبى عبد اللّه عليه السلام غير مرّة فكان اذا بعث إليه و دعاه ليقتله فاذا نظر إليه هابه و لم يقتله «١» و لا تختلف هذه الهيبة لأبى عبد اللّه عليه السلام باختلاف الناس معه فإن كلّ واحد يشعر من نفسه بتلك الهيبة له، سواء الولىّ و العدوّ، و المؤالف و المخالف، فهذا هشام بن الحكم كان جهميّا قبل أن يقول بالإمامة، و لمّا التقى بالصادق عليه السلام فى صحراء الحيرة سكت و أطرق هيبة و إجلالا و هو اللّسن المفوّه، فأحسّ أن هذه الهيبة هى الهيبة التى يجلّل اللّه بها أنبياءه و أوصياءهم

---

(١) مناقب ابن شهرآشوب: ۴/ ٢٣٨.

عليهم السلام «١».

و هذه الهيبة التى أحسّها هشام يوم كان جهميّا كان يحسّها يوم كان إماميّا و كانت بين هشام و بين عمرو بن عبيد مناظرة فى الإمامة، و قد قصد هشام عمروا الى البصرة، فسأله الإمام عمّا كان بينهما ليحكى له ما كان، فقال هشام: يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله إنى أجلّك و أستحييك و لا يعمل لسانى بين يديك «٢».

و هذا ابن أبى العوجاء مع إلحاده كان أحيانا يحجم عن مناظرة الصادق عليه السلام لتلك الهيبة، فإنه حضر يوما لمناظرة الصادق و لكنه بعد أن جلس سكت، فقال له الصادق: فما يمنعك من الكلام؟ قال: إجلال لک و مهابة، ما ينطق لسانى بين يديک، فإنى شاهدت العلماء، و ناظرت المتكلّمين فما تداخلنى هيبة قط مثلما تداخلنى من هيبتک «٣».

على أن الصادق عليه السلام كان بين أصحابه و جلسائه كواحد منهم لا يتظاهر بالعظمة و حشمة الإمامة، و ينبسط لهم بالكلام، و يجلس معهم على المائدة، و يؤنسهم بالحديث، و يحثّهم على زيادة الأكل، لئلّا تمنعهم الهيبة من الانبساط على المائدة و اكل ما يشتهونه، غير أن تلك الهيبة التى كانت شعاره من الهيبة الذاتيّة التى تمنع العيون من ملاحظته و الألسنة من الانطلاق بين يديه و لم يكن محاطا بخدم و لا حجاب.

(۱) رجال الكشى: ص ۱۶۶.

(۲) الكافى: ۱/ ۱۶۹/ ۳.

(۳) كتاب التوحيد: باب إثبات حدوث العالم.

عبادته:

إن المفهوم من العبادة عند إطلاق هذه الكلمة، هو العبادة البدنيّة من الصوم و الصلاة و الحجّ و ما سواها، ممّا يحتاج الى نيّة القربة، و كان الصادق عليه السلام فى هذه العبادات زين العبّاد.

و هذا السبط فى التذكرة يقول: قال علماء السير: قد اشتغل بالعبادة عن طلب الرئاسة، و ابن طلحة فى المطالب يقول: ذو علوم جمّة و عبادة موفرة و أوراد متواصلة، و يقول: و يقسّم أوقاته على أنواع الطاعات، و هذا أبو نعيم فى الحلية يقول: أقبل على العبادة و الخضوع، و آثر العزلة و الخشوع و لها عن الرئاسة و الجموع، و مالک بن أنس يقول: كان جعفر بن محمّد لا يخلو من إحدى ثلاث خصال: إمّا صائما، و إمّا قائما، و إمّا ذاكرا، و كان من عظماء العبّاد، و اكابر الزهّاد، الذين يخشون اللّه عزّ و جل، و لقد حججت معه سنة فلمّا استوت به راحلته عند الإحرام كان كلّما همّ بالتلبية انقطع الصوت فى حلقه، و كاد أن يخرّ من راحلته، و قال: ما رأت عين و لا سمعت اذن و لا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر الصادق علما و عبادة و ورعا، الى سوى هؤلاء ممّن ذكره بالعبادة، و قد مرّت عليک هذه الكلمات و غيرها من ص ۷۲ الى ۸۰.

و لا بدع اذا كان أبو عبد اللّه أفضل الناس عبادة و زهادة و ورعا، فإن عبادة المرء على قدر علمه بالخالق تعالى «إنما يخشى اللّه من عباده العلماء» و أنت على يقين بما كان عليه الصادق من العلم و المعرفة.

هذا شأن الصادق عليه السلام فى العبادة البدنيّة، و أمّا شأنه فى العبادة الفضلى التى هى أزكى أثرا، و أذكى نشرا، و هى عبادة العلم و نشره و تعليمه و الإرشاد و الإصلاح، فلا يخفى على أحد، و قد عرفت من حياته العلميّة و من

الفصول الماضية من سيرته و أخلاقه قدر جهاده فى التعليم و التثقيف و جهوده فى البرّ و العطف و التربية الأخلاقيّة، و ستعرف فى المختار من كلامه عظيم اهتمامه فى حمل الناس على جدد الطريق، و العمل بالشريعة الغرّاء، و الاتّصاف بفاضل الأخلاق.

شجاعته:

لم تكن فى أيام الصادق عليه السلام حروب يحتم الدين عليه الولوج فى ميادينها ليعرف الناس عنه تلک الملكة النفسيّة، نعم إن هناک ظواهر تدلّ على تلک القوى الراسخة، أمثال قوّة القلب و اطمئنان الجأش، و مرّ عليک فى مواقفه مع المنصور و ولاته من ص ۱۱۴- ۱۲۲، و فى جلده ما ينبيک عن تلک القوى الغريزيّة، و الجبن إنما يكون من ضعف القلب و ضعة النفس.

و من ثمّ يجب أن يكون المؤمن شجاعا غير هيّاب و لا نكل فى سبيل الدين و الحق، و كلّما كان أقوى إيمانا كان أبسل و أشجع و لذلک تجد أنصار الحسين عليه السلام و أهل بيته أبهروا العالم فى موقفهم يوم الطف، و ما كانوا أشجع الناس لو لا ذلک الإيمان الثابت و اليقين الراسخ و التوطين على معانقة الرماح و السيوف، و لو كان أهل الكوفة على مثل ذلک اليقين و التوطين و الإيمان لما استقامت الحرب الى ما بعد الظهر فى ذلک اليوم القايض و هم سبعون ألفا و الأنصار سبعون نفرا، و لما كان قتلى أهل الكوفة لا يحصون عدّا.

و من هاهنا يستبين لنا أن الصادق لا بدّ أن يكون أشجع الناس و أربطهم جأشا اذا دارت رحى الحرب، الحرب التى يفرضها الدين و تدعو إليها الشريعة.

ص: ۲۴۱

زهده:

إن الزهد فى الشىء الإعراض عنه، و إنما يكون للزهد شأن يكسب الزاهد فضلا اذا كان المزهود فيه ذا قيمة و ثمن كبير، و أمّا اذا كان المزهود فيه بخسا لا شأن له يحتسب، و لا قدر يعرف فلا فضل فى الزهد فيه، أ ترى أن الزهد فى الشابّة النضرة الخلوق التى جمعت ضروب المحاسن و الجمال و فنون الآداب و الكمال، مثل الزهد فى الشوهاء السوداء العجوز؟ و لا سواء.

فإنما يكون الزهد فى الدنيا و الإعراض عن لذائذها و شهواتها ذا شأن يزيد المرء قدرا و رفعة، و يكشف عن نفس زكيّة نقيّة، إذا نظرها فوجدها حسناء فاتنة الشمائل، فولّاها ظهره معرضا عن جمالها، صافحا عن محاسنها طالبا بهذا الإعراض ما هو أفضل عند اللّه و أطيب، و أمّا اذا تجلّت لديه سافرة النقاب مجرّدة الثياب، و اختبرها معاشرة و صحبة، فرآها شوهاء عجفاء، بارزة العيوب، قبيحة المنظر، سيّئة المخبر و المعشر، لا تفى بوعد، و لا تركن الى عهد، و لا تصدق بقول، و لا تدوم على حال، و لا يسلم منها صديق، فكيف لا يقلاها ساخطا عليها متوحّشا منها، و كيف لا ينظرها بمؤخّر عينيه نظر المحتقر الملول.

و إننا على قصر نظرنا، و قرب غورنا، لنعرف حقّا أن حياتنا هذه و إن طالت صائرة إلى فناء، و عيشنا و إن طاب آئل الى نكد، و إننا سوف ننتقل من هذه الدار البائدة الى تلک الدار الخالدة، و من هذا العيش الوبيل الى ذلک العيش الرغيد، و إن كلّ لذّة فى هذه الحياة محفوفة بالمكاره، و كلّ عيش مشوب بالكدر، و إن هذه الأيام الزائلة مزرعة لهاتيک الأيام الباقية، و هل يحصد المرء غير ما يزرع، و يجازى بغير ما يفعل، و هل يجمل بالعاقل البصير أن يفتن بمثل هذه الحياة و اللذائذ؟.

ص: ۲۴۲

نعم إنما يحملنا على الافتتان بهذه العاجلة و الصفح عن تلک الحياة الآجلة مع فناء هذه و بقاء تلک، امور لا يجهلها البصير و إن لم تكن عذرا عند مناقشة الحساب، ألا و هى حبّ العاجل، و ضعف النفس، و نضارة هذه المناظر و الزينة اللتان نصبتهما الدنيا فخاخا و حبائل، و لو شاء الانسان- و إن كان أضعف الناس بصرا و بصيرة- أن ينجو من هذه الشباک لكان فى مقدوره، فكيف بأقوى الناس عقلا و أثبتهم يقينا، و أدراهم بالحقائق، حتّى كأنّ الأشياء لديه مكشوفة الغطاء بل لو كشف لهم الغطاء لما ازدادوا يقينا.

فإعراض محمّد و آل محمّد عليه و عليهم الصلاة و السلام عن هذه الحياة الدانية و رغائده إلّا بقدر البلغة لتلک الحياة الباقية، إنما هو لأنهم يرونها أخسّ من حثالة القرظ و أنجس من قراضة الجلم «۱» فما كانوا عليه شىء غير الزهد، بل هو أعلى من الزهد، غير أن ضيق المجال فى البيان يلجئونا الى تسميته بالزهد، تنظيرا له بما نعرفه من نفائس هذا الوجود و من الإعراض عنها.

فلا نستكبر بعد أن نعرف هذا عن محمّد و عترته ما يرويه أهل الحديث و السيرة و التأريخ عن صادقهم أنه كان يلبس الجبّة الغليظة القصيرة من الصوف على جسده و الحلّة من الخزّ على ثيابه، و يقول: نلبس الجبّة للّه و الخزّ لكم «۲».

أو يرى و عليه قميص غليظ خشن تحت ثيابه، و فوقه جبّة صوف، و فوقها قميص غليظ.

أو يطعم ضيفه اللحم ينتفه بيده، و هو يأكل الخلّ و الزيت و يقول: إن هذا

---

(۱) القرظ: ورق السلم، و الجلم: ما يجز به.

(۲) لواقح الأنوار للشعرانى عبد الوهاب بن أحمد الشافعى: ۱/ ۲۸، و مطالب السؤل.

طعامنا و طعام الأنبياء «۱» الى أمثال ذلک من مظاهر الزهد.

إن من قبض عنان نفسه بيده و تجرّد عن هذه الفتن الخدّاعة فى هذه الحياة، و اتجه بكلّ جوارحه لرضى خالقه يستكثر منه اذا روت الثقات عنه هذا و أشباهه.

و ما كان غريبا ما يروى من دخول سفيان الثورى «۲» عليه، و كان على الصادق عليه السلام جبّة من خز، و قول سفيان منكرا عليه: إنكم من بيت نبوّة تلبسون هذا، و قول الصادق عليه السلام: ما تدرى أدخل يدک، فاذا تحته مسح من شعر خشن، ثمّ قال عليه السلام: يا ثورى أرنى ما تحت جبّتک، فإذا تحتها قميص أرقّ من بياض البيض، فيخجل سفيان ثمّ يقول له الصادق عليه السلام: يا ثورى لا تكثر الدخول علينا تضرّنا و نضرّک «۳».

و أمثال هذا ممّا روى عنه جمّ كثير، نحن فى غنى عن سرده، فإنّ سادات أهل البيت أعلى كعبا، و أرفع شأنا، من أن تحسب مثل هذه الشؤون فضائلهم الجليلة.

و أمّا سفيان فجدير بالامام ألّا يرغب فى دنوّه ما دام يخالفه فى رأيه و سيره و عمله و علمه، و أمّا الضرر على الامام و عليه من دخوله على الامام، فلأن السلطان قد وقف للإمام بالمرصاد، لا يريد أن يظهر له شأن و لا أن يكثر عليه التردّد، فالدخول عليه يجعل الإمام معرّضا للخطر، و يجعل الداخل معرّضا للأذى، لا سيّما اذا كان الداخل ذا شأن و مقام بين الناس كسفيان الثورى.

---

(١) الكافى: ۶/ ٣٢٨/ ۴.

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الكوفى الشهير و له رواية عن الصادق عليه السلام ولد أيّام عبد الملک، و مات بالبصرة عام ١۶١.

(٣) لواقح الأنوار و مطالب السؤل و حلية الأولياء: ٣/ ١٩٣ و قد روى إنكاره على الإمام حسن بزّته من طرق عديدة و فى كيفيّات عديدة، و لعلّها كانت متعدّدة، فلا يمتنع فى الثانية بعد جوابه فى الأولى، و ممّن روى ذلک أبو نعيم فى حلية الأولياء: ٣/ ١٩٣ و قد ذكرنا مناظرة الصادق عليه السلام الطويلة فى الزهد مع سفيان و جماعته فى اخريات حياته العلميّة.

كراماته

إن اللّه تعالى أراد بخلقه لخلقه أن يعرفوه، و من معرفته أن يعبدوه «و ما خلقت الجنّ و الإنس إلّا ليعبدون» «١» و كانت مخلوقاته آية وجوده، و جمال الصنع، و اتصال التدبير دلالة وحدانيّته، و جعل من أنفسهم مرشدا الى ذلک كلّه، و هو العقل.

غير أن العقل لا يهتدى بنفسه الى كيفيّات عبادته، و خصوصيّات طاعته، لأن ذلک لا يعلم إلّا من قبله تعالى، و من ثم وجب عليه تعالى- حين أراد منهم عبادته- أن يرسل إليهم من يدلّهم على ما أراد، و يعرّفهم ما أوجب.

و لا يصحّ للعقل أن يصدّق دعوى كلّ من يدّعى النبوّة من دون بيّنة و معجز، فكان على الأنبياء أن يأتوا بالبرهان على تلک الدعوى، و لا نعرف أن المدّعى نبىّ مرسل إذا لم تكن لديه حجّة بالغة، بل شأن اكثر الناس الجحود و الإنكار مع الآيات و الدلالات، فكيف إذا لم تكن آية أو دلالة، فإن لم تكن لتلک الدعوى حجّة كانت الحجّة على رفضها قائمة بل هى تخصم نفسها بنفسها.

ما الآية؟

جدير بهذا السؤال العناية و النظر، لأن تصديق النبوّة متوقّف على صحّة

---

(١) الذاريات: ۵۶.

ص: ۲۴۵

الآية.

و إخال أن الجواب عنه سهل جدّا، نظرا الى ما جاء فى الكتاب المنير من استطراد آيات الأنبياء و الرسل، فإنک اذا نظرت الى آية موسى و هى اليد البيضاء و العصا، و آية عيسى و هى إبراء الأكمه و الأبرص و إحياء الموتى و خلق الطير، و آية محمّد صلّى اللّه عليه و آله و هى القرآن نفسه، لعرفت أن آيات الأنبياء ما يعجز البشر بما هو بشر و بما له من علم و قوّة عن الإتيان بمثلها، و من الذى يقدر بعلمه و قوّته و قدرته أن يجعل النار بردا و سلاما، و يقطّع الطير أجزاء و يفرّقها على الجبال فيدعوها فتأتى إليه فتأتلف بيده بعد ما كانت أجزاء متفرّقة و يجعل يده بيضاء من غير سوء متى أراد، و عصاه حيّة تسعى تلقف ما يأفک الساحرون، و يبرئ الأكمه و الأبرص، و يحيى الموتى، و يجعل من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا، و يجارى القرآن فى خصوصيّاته أجمع، الى غير ذلک من آيات الأنبياء التى نطق بها القرآن الحكيم.

و بذلک تعرف الفارق بين المعجزة و السحر، و بينها و بين هذه الصناعة فى هذا العصر، لأن المعجزة ما جرت على غير النواميس الطبيعيّة، غير أن الشىء المعجز لا بدّ أن يكون فى نفسه ممكنا ذاتيّا لأن المحال لا يقع، و لا تجرى المعجزة إلّا على أيدى أفذاذ من البشر عند الدعوة إليه تعالى، و الدلالة عليه سبحانه، لأن المفروض أنها فوق مستوى قدرة البشر فلا تكون إلّا من موهبة من اللّه تعالى يمنحها من يشاء من عباده المقرّبين.

و أمّا السحر فإنما هو فنّ يقوى عليه كلّ أحد اذا تعلّمه إذ هو تخييل و تضليل، و ليس له واقع و حقيقة.

و أمّا الصناعة فإنما هى أيضا علم تجرى على النواميس الطبيعيّة، يقوى عليها من تعلّمها، و يعرف طبائع الأشياء و تركيبها.

ص: ۲۴۶

و لربّما يقال: إن العلم يرفض المعجز اذا كان جاريا على غير النواميس الطبيعيّة، لأن به جريا على غير الأسباب العاديّة، و كيف يمكن أن تجرى الامور على غير أسباب اعتياديّة، و الجواب عنه من وجوه:

١- إن القرآن صريح بإتيان الأنبياء بتلک الآيات الخارقة للعادة الجارية على غير النواميس الطبيعيّة، مثل سلامة إبراهيم من النار، و إتيان الطيور له بعد تقطيعها، و جعل موسى يده بيضاء من غير سوء و عصاه حيّة تسعى، و إبراء عيسى الأمراض التى عجز الطبّ عن إبرائها كالأكمه و الأبرص و أعظم منه إحياؤه الموتى، و خلقه الطير، الى ما سوى هذه الآيات، و ما قيمة العلم اذا خالف صريح القرآن، بل لا يكون هذا علما صحيحا لوجود الخطأ فى بعض مقدّماته.

۲- إن هذه الآيات إن كانت ممكنة فى حدّ ذاتها فلأىّ شىء نجحدها و هى غير مستحيلة، مع أن الحاجة ماسّة إليها، و قدرة اللّه تعالى شاملة لا يشوبها نقص و لا عجز، إنه على كلّ شىء قدير.

نعم إنما نمنع الأشياء المستحيلة بالذات و العرض كإيجاده لشريک له، و جمعه بين النقيضين و الضدّين، و جعله الدنيا على كبرها فى البيضة على صغرها، لأن المحلّ غير صالح، فالنقص من جهة المقدور لا من جهة القدرة، و أمّا مثل تكلّم الحصا و انشقاق القمر و مشى الشجر، و ما ضارع هذا، فلا مانع فيه من جهة المحلّ و قابليّته، و لا من جهة القدرة منه تعالى عليه.

۳- اذا أحلنا هذه الآيات عليه تعالى، فأىّ شىء يكون المصدق لدعوى الأنبياء النبوّة، و اذا جازت النبوّة بلا دليل فكلّ أحد يمكن أن يدّعيها، فأىّ فرق إذن بين النبىّ الصادق و بين النبىّ الكاذب.

و اذا قيل: إن النبوغ و الذكاء و الفصاحة و العلم و الأمانة و الصدق اذا كانت متوفّرة فى مدّعى النبوّة على الوجه الأكمل الذى يمتاز به عن سائر البشر

ص: ۲۴۷

كافية فى تصديق دعوى النبوّة منه.

فإنّا نقول: إن اكثر الناس لا يقيم وزنا لهذه الامور، بل لا يستطيع تمييزها فيمن هى فيه حقّ التميز، فضلا أن يعرف أنها موجودة فى النبى على الوجه الأكمل فلا بدّ من ظهور شىء محسوس على يده يعجز عنه البشر يكون قاطعا لعذرهم و برهانا نيّرا يستوى فى الخضوع له و إدراكه العالم و الجاهل و النبيه و العاقل.

۴- لما ذا يمنع العلم عن الامور الجارية على غير النواميس الطبيعيّة؟ أ ليس خالق النواميس العاديّة و غير العاديّة واحدا؟ و من اقتدر على إجراء الامور بأسبابها العاديّة يقتدر على إجرائها بأسباب فوق مستوى قدرتنا و علمنا.

و اذا نظرنا بعض مصنوعاته تعالى وجدناها جارية على غير نواميس العادة و ذلک فى بدء الخلقة فإنه ما النواميس الطبيعيّة فى صنعة آدم و حواء و ابتداء خلق السّماوات و الأرضين و الأشجار و الأنهار و المعادن و الفلزّات و ما سواها فإنه خلقها لا من شىء سبق، و لا على مثال احتذاه، و اذا كان ناموسها الطبيعى هو تلک العناصر التى كان منها تركيبها، فما كان الناموس الطبيعى لخلق تلک العناصر أنفسها.

نعم إنما صرنا نتطلّب النواميس الطبيعيّة فى المصنوعات لما اعتدناه فى الخليقة من جريانها مستمرّة على تلک النواميس، و لكن ذلک لا يجب فى كلّ شىء ما دام خالق النواميس على غير النواميس موجودا، و كانت له فى خلقها على غير النواميس الحجّة على عباده و الإرشاد لهم على ألوهيّته و قدرته و نبوّة رسله.

بيد أننا نحتاج الى تصديق تلک الآيات التى جرت على غير العادة فى الأسباب مع إمكانها الى المشاهدة مع الحضور، و الى صحّة النقل مع الغيبة.

و هذه الآيات و الكرامات كما تكون للأنبياء تكون لأوصيائهم بذلک الغرض الذى دعا الأنبياء الى الإتيان بها، فإن إرسال الأنبياء ما كان إلّا لإرشاد الناس الى معرفة الخالق جلّ شأنه و الى عبادته، و إن نصب الأوصياء ما كان إلّا لدلالة على تلک المعرفة، و الإشارة الى الصحيح من تلک العبادة، فالحجّة إذن كما تدعو الى المعجزة فى النبى تدعو إليه فى الامام الوصى.

و لا فرق فى المعجز عند الحاجة إليه فى الإمكان عليه بين إحياء الموتى و خلق الطير و بين إنطاق الحجر و الشجر، و لا بين غيرهما ممّا هو أقلّ شأنا لأن القدرة منه تعالى على الجميع واحدة، و لا فرق لديه سبحانه فى الخلق بين الذرّة و الطود و لا بين السّماوات و الحشرات، فلا ينبغى لذى بصر أو بصيرة أن يستنكر أمثال إحياء الأموات و جعل التراب ذهبا و الإخبار عن الغيب من الأنبياء و الأوصياء بعد ثبوت النبوّة و الإمامة الإلهيّتين، فى حين أنه لا يستنكر منهم إنباط الماء و إنزال الغيث و إطعام الناس العنب لغير أوانه و أشباه ذلک، و ما هما إلّا واحد فى القدرة، و سواء فى الإمكان و سيّان عند الحاجة.

فالصادق عليه السلام اذا كان إماما معصوما منصوبا منه تعالى لتنفيذ شريعة الرسول صلّى اللّه عليه و آله وجب عليه الدلالة على إمامته بالمعجز عند الحاجة إليه، و عند الأمن من الخطر، كما وجب على النبى عند الدعوة، هذا عند الإماميّة، و أمّا أهل السنّة فالصادق لديهم من العترة الطاهرة الذى جمع الفضائل كلّها، كما أفصحت به كلماتهم، و رويناه عنهم فى عنوان- من هو الصادق- ص ۷۱، فلا غرابة لديهم لو ظهرت له الآيات و الكرامات بل لقد رووها عنه و آثروا نقلها، فلا بدع إذن لو استطردنا من كراماته و مناقبه ما ينبيک عن علوّ مقامه و سموّ منزلته لديه جلّ شأنه.

و لقد ذكر له صاحب مدينة المعاجز ما ينوف على ثلاثمائة كرامة و منقبة

و ها نحن اولاء نذكر شيئا ممّا روته الكتب الجليلة و المؤلّفات القيّمة، و ما اتفق على الكثير منها الفريقان، و تسالمت عليه الفرقتان.

دعاؤه المجاب:

يقول الصبّان فى «إسعاف الراغبين»: و كان مجاب الدعوة اذا سأل اللّه شيئا لا يتمّ قوله إلّا و هو بين يديه، و يقول الشعرانى فى «لواقح الأنوار»: و كان سلام اللّه عليه اذا احتاج الى شىء قال: يا ربّاه أنا محتاج الى كذا فما يستتمّ دعاؤه إلّا و ذلک الشىء بجنبه موضوع.

و هذا القول منهما لا يدلّ على استجابة دعائه فحسب بل و على سرعة الإجابة، حتّى لكأنّ المسئول عنه كان الى جنبه أو بين يديه، و ما كان جزم هؤلاء المؤلّفين بإجابة دعائه بسرعة الإجابة إلّا لكثرة ما تناقلته الطروس و السطور و حفظته الصدور من ذلک، حتّى صار لديهم شيئا محسوسا و أمرا معلوما.

و ممّا ذكروه له عليه السلام ما كان من قصد المنصور له بالقتل مرارا عديدة، فيحول اللّه تعالى بينه و بين ما عزم عليه ببركة دعائه، بل ينقلب حاله الى ضدّ ما نواه و عزم عليه، فينهض لاستقباله و يبالغ فى إكرامه «۱».

و من ذلک: أن الحكم بن العبّاس الكلبى قال:

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة — و لم نر مهديّا على الجذع يصلب

و قستم بعثمان عليّا سفاهة — و عثمان أزكى من علىّ و أطيب

---

(۱) المناقب: ۴/ ۲۳۱ انظر فى ذلک نور الأبصار للشبلنجىّ، و تذكرة الخواص للسبط، و مطالب السؤل لابن طلحة الشافعى، و الفصول المهمّة لابن الصبّاغ المالكى، و الصواعق المحرقة لابن حجر، و ينابيع المودّة للشيخ سليمان عند استطرادهم لأحوال الصادق عليه السلام، الى كثير سواهم، و قد ذكرنا ذلک مفصّلا فى محلّه.

و لمّا بلغ الصادق ذلک غضب و دعا عليه، فقال: اللّهمّ سلّط عليه كلبا من كلابک يأكله، فبعثه بنو أميّة الى الكوفة فافترسه الأسد فى الطريق «۱».

و لمّا كان داود بن على العبّاسى واليا على المدينة من قبل المنصور بعث على المعلّى بن خنيس مولى الصادق عليه السّلام فقتله، و لم يقنع بذلک حتّى أراد السوء مع الامام، فغضب الامام لذلک و دعا على داود حتّى سمعوه يقول:

الساعة الساعة، فما استتمّ دعاؤه حتّى سمعت الصيحة فى دار داود و قالوا: إنه مات فجأة «۲».

و من دعائه المستجاب ما حدّث به الليث بن سعد «۳» قال: حججت سنة ۱۱۳، فلما صلّيت العصر رقيت أبا قبيس فإذا رجل جالس يدعو فقال: يا ربّ يا ربّ حتّى انقطع نفسه، ثمّ قال: يا حىّ يا حىّ يا حىّ حتّى انقطع نفسه، ثمّ قال: إلهى أشتهى العنب فأطعمنيه، و إن بردى قد خلقا فاكسنى، قال الليث:

فما تمّ كلامه حتّى نظرت الى سلّة مملوءة عنبا، و ليس على الشجر يومئذ عنب، و اذا ببردين لم أر مثلهما، فأراد الأكل فقلت أنا شريكک لأنک دعوت و أنا أؤمّن، قال: كل و لا تخبئ و لا تدّخر، ثمّ دفع إلىّ أحد البردين، فقلت: لى عنه غنى، فاتّزر بأحدهما و ارتدى بالآخر، ثمّ أخذ الخلقين و نزل، فلقيه رجل فقال: اكسنى يا ابن رسول اللّه، فدفعهما إليه فقلت: من هذا، قال:

جعفر الصادق «۴» و فى رواية مطالب السؤل: فتقدّمت فأكلت شيئا لم آكل مثله قط،

(۱) نور الأبصار، و الصواعق، و الفصول، و المناقب: ۴/ ۲۳۴.

(۲) المصادر المتقدمة، و المناقب: ۴/ ۲۳۰.

(۳) الخزاعی من فقهاء الجمهور روی عن سعید بن جبیر و أضرابه، و لم تعرف له روایة عن الصادق علیه السلام علی أنه شاهد منه هذه الکرامة الکبری، و کم روی عنه من أقرانه خلق کثیر.

(۴) إسعاف الراغبین، و مطالب السؤل، و الصواعق، و کشف الغمّة، و صفوة الصفوة، و المناقب: ۴/ ۲۳۳.

و اذا عنب لا عجم «۱» له فأکلت حتّی شبعت و السلّة لم تنقص.

أقول: إن هذه الکرامة کانت منه علی عهد أبیه الباقر علیه السلام قبل رجوع الإمامة إلیه لأن وفاة الباقر کانت عام ۱۱۴، أو عام ۱۱۷.

و کانت الناس تستشفع بدعائه لما تجد فیه من الإجابة، و هذه حبابة الوالبیّة دخلت علیه و هی من فاضلات النساء، فسألته عن مسائل فی الحلال و الحرام فتعجّب الحضور من تلک المسائل، لأنهم ما رأوا سائلا أحسن منها، ثمّ سالت دموعها، فقال الصادق علیه السلام: مالی أری عینیک قد سالت، قالت: یا ابن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله داء قد ظهر بی من الأدواء الخبیثة التی کانت تصیب الأنبیاء علیهم السّلام و الأولیاء، و أن أهل قرابتی و أهل بیتی یقولون: قد أصابتها الخبیثة، و لو کان صاحبها کما قالت مفروض الطاعة لدعا لها، و کان اللّه یذهب عنها، و أنا و اللّه سررت بذلک، و علمت أنه تمحیص و کفّارات، و أنه داء الصالحین، فقال لها الصادق علیه السّلام: و قد قالوا: أصابک الخبیثة؟

قالت: نعم یا ابن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله، فحرّک شفتیه بشیء فلا یدری أ فی دعاء کان، فقال: ادخلی دار النساء حتّی تنظری الی جسدک، فدخلت و کشفت عن ثیابها فلم تجد فی صدرها و لا جسدها شیئا فقال: اذهبی الآن و قولی لهم: هذا الذی یتقرّب الی اللّه بإمامته «۲».

و حبابة هذه هی ابنة جعفر الأسدی، و الوالبیّة نسبة الی بنی والبة بطن من أسد، و هی صاحبة الحصاة التی طبع فیها أمیر المؤمنین علیه السّلام علامة

(۱) العجم: النوی.

(۲) بحار الأنوار: ۴۷/ ۱۲۱/ ۱۶۹ عن كتاب طبّ الأئمة، و كتاب طبّ الأئمة من جمع عبد اللّه أبى عتاب و أخيه الحسين ابنى بسطام الزيّات، و قيل فى حقّ الكتاب أنه جمعا فى الطبّ على طريقة الطبّ فى الأطعمة و فوائدها و الرقى و العوذ، و هو كثير الفوائد و المنافع.

ص: ۲۵۲

للإمامة، و عمّرت حتّى أدركت الرضا عليه السلام و ماتت فى أيّامه و كفّنها فى قميصه، و لم تكن هذه الكرامة الاولى التى شاهدتها من أئمّة أهل البيت، بل جاءت الى الحسين عليه السّلام و بها برص فعوفيت منه و الى السجّاد عليه السلام و هى تعدّ يومئذ ۱۱۳ عاما و قد بلغ بها الكبر حتّى أرعشت فرأته راكعا و ساجدا فيئست من الدلالة فأومأ إليها بالسبابة فعاد إليها شبابها، و لمّا جاءت الى الرضا أعاد عليها شبابها فى رواية، و لكنها اختارت الموت فماتت فى داره.

و جاءته امرأة اخرى فقالت له: جعلت فداك، أبى و أمّى و أهل بيتى نتولّاكم، فقال: صدقت فما الذى تريدين؟ قالت: جعلت فداك يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أصابنى وضح «۱» فى عضدى فادع اللّه أن يذهبه عنّى فقال عليه السّلام:

اللّهمّ إنک تبرئ الأكمه و الأبرص و تحيى العظام و هى رميم، ألبسها عفوک و عافيتک ما ترى أثر إجابة دعائى، فقالت المرأة: و اللّه لقد قمت و ما بى منه قليل و لا كثير «۲».

و قال بكر بن محمّد الأزدى «۳»: عرض «۴» لقرابة لى و نحن فى طريق مكّة، فلمّا صرنا الى أبى عبد اللّه عليه السلام ذكرنا ذلک له و سألناه الدعاء له ففعل، قال بكر: فرأيت الرجل حيث عرض له، و رأيته حيث أفاق «۵».

---

(۱) برص.

(۲) أمالى الشيخ الطوسى: المجلس/ ۱۴.

(۳) روى عن الصادق و الكاظم و الرضا عليهم السلام و هو من ثقات الرواة و روى عنه الكثير منهم.

(۴) أصابه جنون.

(۵) بحار الأنوار: ۴۷/ ۱۲۲/ ۱۷۰ عن قرب الاسناد، و هو لأبى جعفر محمّد بن عبد اللّه بن

ص: ۲۵۳

و جاءه شيخ و هو تحت الميزاب فى البيت و معه جماعة من أصحابه فسلّم عليه، ثمّ قال: يا ابن رسول اللّه إنى احبّكم أهل البيت و أبرأ من عدوّكم و إنى بليت ببلاء شديد، و قد أتيت البيت متعوّذا به ممّا أجد، ثمّ بكى و اكبّ على الصادق يقبّل رأسه و رجليه و الصادق يتنحّى عنه فرحمه و بكى، ثمّ قال: هذا أخوكم و قد أتاكم متعوّذا بكم فارفعوا أيديكم، فرفع الصادق يديه و

رفع القوم أيديهم، ثمّ قال: اللّهمّ إنک خلقت هذه الأنفس من طينة أخلصتها، و جعلت منها أولياءک و أولياء أوليائک، و إن شئت أن تنحى عنهم الآفات فعلت، اللّهمّ و قد تعوّذنا ببيتک الحرام الذى يأمن به كلّ شىء و قد تعوّذ بنا، و أنا أسألک يا من احتجب بنوره عن خلقه أسألک بحقّ محمّد و علىّ و فاطمة و الحسن و الحسين يا غاية كلّ محزون و ملهوف و مكروب و مضطرّ مبتلى أن تؤمنه بأماننا ممّا يجد، و أن تمحو من طينته ممّا قدّر عليها من البلاء، و أن تفرّج كربته يا أرحم الراحمين، فلما فرغ من الدعاء انطلق الرجل فلمّا بلغ باب المسجد رجع و بكى، ثمّ قال: اللّه أعلم حيث يجعل رسالته، و اللّه ما بلغت باب المسجد و بى ممّا أجد قليل و لا كثير «١».

و استحال وجه يونس بن عمّار «٢» الى البياض فنظر الصادق عليه السلام الى جبهته فصلّى ركعتين، و دعا ببعض الدعوات فما خرج من المدينة حتّى ذهب ما كان بوجهه من البياض «٣».

جعفر الحميرى القمّى طاب ثراه، و هو من وجوه الأصحاب و ثقاتهم، و قد كاتب صاحب الأمر عجّل اللّه فرجه و سأله مسائل فى أبواب الشريعة، و له اخوة و هم جعفر و أحمد و الحسين و كلّ منهم له مكاتبة، و قيل إن الكتاب لأبيه.

(١) بحار الأنوار: ۴٧/ ١٢٢/ ١٧٠.

(٢) الصيرفى الكوفى و هو أخو إسحاق و إسماعيل الثقتين، و لربّما عدّ يونس أيضا فى الثقات.

(٣) مناقب ابن شهر اشوب: ۴/ ٢٣٢.

و قال طرخان النخاس «١»: مررت بأبى عبد اللّه عليه السلام و قد نزل الحيرة، فقال: ما علاجک؟ قلت: نخّاس، قال: اصب لى بغلة فضخاء، قلت: جعلت فداک و ما الفضخاء؟ قال: دهماء بيضاء البطن بيضاء الأفخاذ بيضاء الجحفلة «٢» فقلت: و اللّه ما رأيت مثل هذه الصحيفة، فرجعت من عنده فساعة دخلت الخندق اذا أنا بغلام قد أسقى بغلة على هذه الصفة، فسألت الغلام: لمن هذه البغلة؟ قال: لمولاى، قلت يبيعها؟ قال: لا أدرى، فتبعته حتّى أتيت مولاه فاشتريتها منه و أتيته فقلت: هذه الصفة التى أردتها جعلت فداک ادع اللّه لى، فقال: اكثر اللّه مالک و ولدک، قال: فصرت من اكثر أهل الكوفة مالا و ولدا «٣».

و سأله حمّاد بن عيسى «۴» أن يدعو اللّه بأن يرزقه ما يحجّ به كثيرا و أن يرزقه ضياعا حسنة و دارا حسنة و زوجة من أهل البيوتات صالحة و أولادا أبرارا، فدعا له الصادق عليه السلام بما طلب، و قيّد الحجّ بخمسين حجّة، فرزقه اللّه جميع ما سأله، و حجّ خمسين حجّة، و لمّا ذهب فى الواحدة و الخمسين و انتهى الى وادى الجحفة- بين مكّة و المدينة- جاء السيل فأخذه فأخرجه غلمانه ميّتا، فسمّى حمّاد غريق الجحفة «۵».

و قال زيد الشحّام «۶»: إنى لأطوف حول الكعبة و كفّى فى كفّ أبى عبد اللّه

(۱) النخاس: بيّاع الرقيق و بيّاع الدواب و دلّالها.

(۲) بتقديم الجيم المعجمة على الحاء المهملة، و هى لذوات الحافر كالشّفة للانسان.

(۳) بحار الأنوار: ۴۷/ ۱۵۲/ ۲۰۰.

(۴) الجهنى البصرى، و كان من ثقات أصحاب الصادق و الكاظم عليهما السلام.

(۵) الخرائج و الجرائح: ص ۲۷۱.

(۶) سنذكره فى المشاهير من ثقات رواته.

عليه السلام، فقال- و دموعه تجرى على خدّيه-: يا شحّام ما رأيت ما صنع ربى إلىّ، ثمّ بكى و دعا، ثمّ قال: يا شحّام إنى طلبت الى إلهى فى سدير و عبد السلام بن عبد الرحمن «۱» و كانا فى السجن فوهبهما لى و خلّى سبيلهما «۲».

و سجن المنصور عبد الحميد «۳» فأخبروا الصادق عليه السلام بذلك و هو فى الموقف بعد صلاة العصر، فرفع يديه ساعة، ثمّ التفت الى محمّد بن عبد اللّه «۴» و قال عليه السلام: قد و اللّه خلّى سبيل صاحبك، قال محمّد: فسألت عبد الحميد أىّ ساعة خلاك أبو جعفر المنصور؟ قال: يوم عرفة بعد العصر «۵».

و هذه الكرامة الجليلة جمعت بين استجابة دعائه و إعلامه عن الإفراج عن عبد الحميد، كسابقتها.

هذه بعض دعواته المستجابة التى سجّلتها الكتب، و حفظتها الرواة، و ما كانت دعواته إلّا لخير الناس، نعم قد يدعو على أحد اذا كان فى ذلك صلاح و إلّا فإنّه الحليم الأوّاه الذى لاقى من أعدائه أذى تسيخ عن حمله متون الرواسى و لم يدع على واحد منهم، اللّهمّ إلّا على داود بن على و الحكم الكلبى لأمر هو أعرف به، كما دعا على بعض غلمان زمزم.

كان أبو عبد اللّه عليه السلام و معه بعض أصحابه يتغذّون فقال لغلامه:

انطلق و آتنا بماء زمزم، فانطلق الغلام فما لبث أن جاء و ليس معه ماء، فقال:

(۱) سنذكرهما أيضا فى المشاهير.

(۲) الكشى: ص ۱۳۸.

(۳) الظاهر أنه ابن أبی العلاء الأزدی السمین الکوفی، و فی روایة کشف الغمّة التصریح به، و هو من أصحاب الصادق علیه السلام و ثقات رواته.

(۴) مشترک بین کثیرین، و لا یبعد أن یکون هاشمیّا و هو أیضا فیهم کثیر.

(۵) مناقب ابن شهر اشوب: ۲/ ۳۶۰.

ص: ۲۵۶

إن غلاما من غلمان زمزم منعنی الماء و قال: أ ترید الماء لإله العراق، فتغیّر لون أبی عبد اللّه علیه السلام و رفع یده عن الطعام و تحرّکت شفتاه، ثمّ قال للغلام:

ارجع فجئنا بالماء، ثمّ أکل فلم یلبث أن جاء الغلام بالماء و هو متغیّر اللون، فقال: ما وراک؟ فقال: سقط ذلک الغلام فی بئر زمزم فتقطّع و هم یخرجونه، فحمد اللّه علیه «۱».

و أرسل غلامه مرّة الی بئر زمزم لیأتیه بالماء ثمّ سمعوه یقول: اللّهمّ اعم بصره، اللّهمّ أخرس لسانه، اللّهم أصم سمعه، فرجع الغلام یبکی، فقال:

مالک؟ قال: إنّ فلانا القرشی ضربنی و منعنی من السقاء، قال: ارجع فقد کفیته، فرجع و قد عمی و صمّ و خرس و قد اجتمع علیه الناس «۲».

إعلامه عن الحوادث:

کم أعلم علیه السلام عن حادثة وقعت بعد حین، و عن أمر حدث کما أخبر عن ملک بنی العبّاس مرارا قبل أن یکون، جاءه أبو مسلم الخراسانی و ناجاه سرّا بالدعوة له، و أعلمه أنّ خلقا کثیرا أجابوه، فقال له الصادق علیه السّلام: إن ما تؤمی إلیه غیر کائن لنا حتّی یتلاعب بها الصبیان من ولد العبّاس، فمضی الی عبد اللّه بن الحسن فدعاه، فجمع عبد اللّه أهل بیته و همّ بالأمر، و دعا أبا عبد اللّه علیه السلام للمشاورة، فلما حضر جلس بین السفّاح و المنصور، و حین استشیر ضرب علی منکب السفّاح، فقال: لا و اللّه أو یملکها هذا أوّلا، ثمّ ضرب بیده الاخری علی منکب المنصور و قال: و تتلاعب بها الصبیان من ولد هذا، و وثب

---

(۱) بحار الأنوار: ۴۷/ ۹۸/ ۱۵، الخرائج و الجرائح لقطب الدین سعد اللّه بن هبة اللّه الراوندی، و کان من العلماء المتبحّرین و الفقهاء المحدّثین و من تآلیفه شرح النهج و کانت وفاته فی شوال عام ۵۷۳.

(۲) بحار الأنوار: ۴۷/ ۱۰۸/ ۱۳۹.

و خرج من المجلس «۱».

و دعاه عبد اللّه بن الحسن مرّة اخرى للبيعة لابنه محمّد، فقال له: إنّ هذا الأمر و اللّه ليس لک و لا لابنيک، و إنّما هو لهذا- يعنى السفّاح- ثمّ لهذا- يعنى المنصور- ثمّ لولده من بعده، و لمّا خرج تبعه أبو جعفر فقال: أ تدرى ما قلت يا أبا عبد اللّه؟ قال عليه السلام: اى و اللّه أدريه و أنّه لكائن «۲» و ما اكثر ما أنبأ عن ملک بنى العبّاس.

كما أخبر عن مقتل محمّد و إبراهيم ابنى عبد اللّه بن الحسن فى مواطن عديدة، فقد قال يوما: مروان خاتم بنى اميّة، و إن خرج محمّد بن عبد اللّه قتل «۳».

و قال لمحمّد يوما و قد فاخره: فكأنى أرى رأسک و قد جيء به و وضع على حجر بالزنابير، يسيل منه الدم الى موضع كذا و كذا، فصار محمّد إلى أبيه فأخبره بمقالة الصادق عليه السلام فقال أبوه: آجرنى اللّه فيک، إن جعفرا أخبرنى أنک صاحب الزنابير «۴».

و أخبر بذلک يوما أمّ الحسين بنت عبد اللّه بن محمّد بن على بن الحسين عليهم السلام و قد سألته عن أمر محمّد فقال عليه السلام: فتنة يقتل فيها محمّد عند بيت رومى، و يقتل أخوه لامّه و أبيه بالعراق، و حوافر فرسه فى الماء «۵».

---

(۱) كتاب الوصيّة للمسعودى: ص ۱۴۱.

(۲) مقاتل الطالبيّين فى تسمية المهدى: ۲۵۵- ۲۵۶، بحار الأنوار: ۴۷/ ۱۳۱.

(۳) كتاب الوصيّة.

(۴) أعلام الورى للطبرسى طاب ثراه: ۲۶۹، و هو الفضل بن الحسن بن الفضل من أعيان علماء الاماميّة و هو صاحب مجمع البيان فى تفسير القرآن الذى لم يؤلّف مثله، و له مؤلّفات أخر جليلة، توفى ليلة النحر فى سبزوار عام ۵۴۸.

(۵) المقاتل فى تسمية المهدى.

و قال لعبد اللّه بن جعفر بن المسور «۲»: أ رأيت صاحب الرداء الأصفر- يعنى أبا جعفر؟- قلت: نعم، قال عليه السلام: فإنّا و اللّه نجده يقتل محمّدا، قلت: أو يقتل محمّد؟- قال: نعم، قلت فى نفسى: حسده و ربّ الكعبة، ثمّ ما خرجت و اللّه من الدنيا حتّى رأيته قتل.

و أخبر بذلک أباهما عبد اللّه بن الحسن و قال له: إن هذا- يعنى المنصور- يقتل محمّدا على أحجار الزيت، ثمّ يقتل أخاه بعده بالطفوف «۳» و قوائم فرسه فى الماء «۴».

فكان كلّ ما أخبر به من أمر العبّاسيّين و محمّد و إبراهيم قد وقع لم يفلت منه شىء.

و أخبر شعيبا بن ميثم «۵» بدنوّ أجله معرضا به، قال له أبو عبد اللّه عليه السلام: يا شعيب ما أحسن بالرجل يموت و هو لنا ولى و يعادى عدوّنا، فقال له شعيب: و اللّه إنى لأعلم أن من مات على هذا أنه لعلى حال حسنة، قال عليه السلام: يا شعيب أحسن الى نفسک، وصل قرابتک، و تعاهد إخوانک، و لا تستبدل بالشىء تقول: أدّخر لنفسى و عيالى، إن الذى خلقهم هو الذى يرزقهم، قال شعيب: قلت فى نفسى نعى إلىّ و اللّه نفسى، فما لبث بعد ذلک إلّا شهرا فمات «۶».

---

(۲) الظاهر أنه المخرمى نسبة الى جدّه مخرمة أب المسور، و عدّوه فى أصحاب الصادق عليه السلام، الخرائج و الجرائح: ص ۲۴۴.

(۳) جمع طف: الشاطى.

(۴) المقاتل فى تسمية المهدى: ۲۵۵- ۲۵۶.

(۵) التمّار: و هو من أصحاب الصادق عليه السلام و قد كتبنا عنه فى رسالتنا فى ميثم التمّار ص ۷۸.

(۶) بحار الأنوار: ۴۷/ ۱۲۶، المناقب: ۳/ ۳۵۰.

و أخبر أيضا إسحاق بن عمّار الصيرفى الثقة الجليل بأنه سيموت فى شهر ربيع، و ذلک أن إسحاق قال للصادق عليه السلام يوما: إن لنا أموالا و نحن نعامل الناس، و أخاف إن حدث أن تفرّق أموالنا، فقال عليه السلام: اجمع أموالک فى شهر ربيع، فمات إسحاق فى شهر ربيع «۱».

و أخبر عن قتل مولاه المعلّى بن خنيس، الذى قتله داود بن على قبل أن يقتله بسنة و أخبر بجميع ما يجرى عليه «۲».

و سأل أبا بصير عن أبى حمزة الثمالى فقال: خلفته صالحا، قال عليه السلام: إذا رجعت إليه فاقرأه السلام و اعلمه أنه يموت كذا من شهر كذا، قال أبو بصير:

فرجعت، فما لبث أبو حمزة أن مات فى تلک الساعة من ذلک اليوم «۳».

و لمّا بلغه خبر قتل زيد و صلبه و هرب ابنه يحيى الى خراسان و اجتماع الناس عليه، قال عليه السلام: إنه يقتل كما قتل أبوه و يصلب كما صلب أبوه، فقتل بالجوزجان و صلب «۴».

هذا بعض إعلامه عن حوادث لم تقع فوقعت كما أعلم، و أمّا إعلامه عن حوادث وقعت فما أوفرها، و هاک شيئا منها:

وقع شجار بين مهزم بن أبى بريدة الأسدى الكوفى- و هو من رواة الامام عليه السلام- و بين امّه، و قد جاء بها حاجّا، و كان كلامه معها فى المدينة و قد أغلظ لها فيه، فلمّا أصبح و دخل على الصادق عليه السلام ابتدأه قائلا: يا مهزم مالک و للوالدة أغلظت لها البارحة، أو ما علمت أن بطنها منزل سكنته، و أن

---

(۱) مناقب ابن شهر اشوب: ۳/ ۳۶۸، و أعلام الورى: ص ۲۷۰.

(۲) الكشى، فى أحوال المعلّى: ص ۲۳۹.

(۳) كشف الغمّة: ۳/ ۱۹۰.

(۴) ينابيع المودّة: ص ۳۸۱.

حجرها مهد قد مهدته، و أن ثديها وعاء قد شربته، فلا تغلظ لها «۱».

و دخل عليه رجل فقال له الصادق عليه السلام: تب الى اللّه ممّا صنعت البارحة، و كان الرجل نازلا بالمدينة فى دار و فيها وصيفة أعجبته، فلمّا انصرف ليلا ممسيا و استفتح الباب و فتحت له مدّ يده الى ثديها و قبض عليه «۲».

و قدم رجل من أهل الكوفة على أهل خراسان يدعوهم الى ولاية الصادق عليه السلام، فاختلفوا فى الأمر، فبين مطيع مجيب، و بين جاحد منكر، و بين متورّع واقف، فأرسلوا من كلّ فرقة رجلا الى الصادق عليه السلام لاستيضاح الحال، و لمّا كانوا فى بعض الطريق خلا واحد منهم بجارية كانت مع بعض القوم، و عند ما وصلوا الى الصادق عليه السلام عرفوه بالذى أقدمهم، فقال للمتكلّم و كان الذى وقع على الجارية: من أىّ الفرق الثلاث أنت؟ قال: من الفرقة التى ورعت، قال عليه السلام: فأين كان ورعک يوم كذا و كذا مع الجارية؟ فسكت الرجل «۳».

و هذه لعمر الحقّ اكبر دلالة على الامامة لو كان القوم طالبين للحقّ و للدلالة على الامامة.

و كان عبد اللّه النجاشى «۴» زيديّا منقطعا الى عبد اللّه بن الحسن فدخل يوما

(۱) بصائر الدرجات: ۵/ ۲۶۳.

(۲) بصائر الدرجات: ۵/ ۲۶۲.

(۳) المناقب، و بصائر الدرجات: ۵/ ۲۶۵: و هو لمحمّد بن الحسن الصفّار القمّى أبى جعفر الأعرج، و كان وجها فى القمّيين ثقة عظيم القدر، قليل السقط فى الرواية، و له كتب كثيرة جليلة، توفى عام ۲۹۰ و عدّه الشيخ الطوسى فى رجاله من أصحاب الحسن العسكرى عليه السلام، و كتابه بصائر الدرجات جليل كبير النفع.

(۴) أبو بجير الأسدى و كان واليا على الأهواز و بعد أن رجع الى القول بإمامة الصادق صار يراسله و يسأله عن أشياء من وظيفته و للامام كتاب كبير أرسله إليه جواب سؤال منه ذكر فيه ما يجب عليه من

ص: ۲۶۱

على الصادق عليه السلام فقال له: ما دعاك الى ما صنعت، تذكّر يوم مررت على باب قوم فسال عليك الميزاب من الدار فسألتهم فقالوا: إنه قذر، فطرحت نفسك فى النهر بثيابك فكانت منشغة «۱» عليك فاجتمع عليك الصبيان يضحكون منك و يصيحون عليك، فلمّا خرج من عند الصادق عليه السلام قال: هذا صاحبى دون غيره «۲».

و جاء من عدّه طرق دخول أبى بصير على الصادق عليه السلام و هو جنب، و ردع الصادق إيّاه، و من ذلك ما قاله أبو بصير، قال: دخلت على أبى عبد اللّه عليه السلام و أنا اريد أن يعطينى من دلالة الامامة مثلما أعطانى أبو جعفر عليه السلام، فلمّا دخلت و كنت جنبا قال: يا أبا محمّد تدخل علىّ و أنت جنب، فقلت: ما عملته إلّا عمدا، قال: أو لم تؤمن؟ قلت: بلى و لكن ليطمئن قلبى، فقلت عند ذلك: إنه إمام «۳».

إعلامه عمّا فى النفس:

إن نفس المؤمن اذا زكت من درن الرذائل عادت كالمرآة الصافية، ينطبع فيها كلّ ما يكون أمامها، و لذا قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور اللّه، هذا شأن المؤمن فكيف بإمام المؤمنين؟

و هذا الخضر عليه السلام أعاب السفينة و أقام الجدار و قتل الغلام، و ما

السيرة و العمل الصالح، و سنذكره فى وصاياه.

(۱) تسيل.

(۲) المناقب، و بصائر الدرجات: ۵/ ۲۶۵ و غيرها.

(۳) وسائل الشيعة: ۱/ ۴۹۰/ ۳ و ذكر بعض أحاديث أبى بصير الشيخ المفيد فى الارشاد، و ابن بابويه فى دلائل الامامة، و الطبرسى فى أعلام الورى و غيرهم.

كان ذلک منه إلّا علما منحه به العليم سبحانه.

فلا عجب إذن لو أعلم الامام الصادق عليه السلام عن أشياء تتلجلج فى النفوس عند إظهار الكرامة.

دخل عمر بن يزيد «۱» على الصادق و هو وجع و قد ولّاه ظهره و وجهه للحائط، و قد قال عمر فى نفسه: ما أدرى ما يصيبه فى مرضه لو سألته عن الامام بعده، فبينا يفكّر فى ذلک إذ حوّل الصادق إليه وجهه، فقال: الأمر ليس كما تظنّ ليس علىّ من وجعى هذا بأس «۲».

و دخل عليه الحسن بن موسى الحنّاط «۳» و جميل بن درّاج «۴» و عائذ الأحمسى «۵» و كان عائذ يقول: إن لى حاجة اريد أن أسأله عنها، فلمّا سلّموا و جلسوا أقبل بوجهه على عائذ فقال عليه السلام: من أتى اللّه بما افترض عليه لم يسأله عمّا سوى ذلک، فغمزهم فقاموا، فلمّا خرجوا قالوا له: ما كانت حاجتک؟ قال:

الذى سمعتم، لأنى رجل لا اطيق القيام بالليل فخفت أن اكون مأخوذا به فأهلک «۶».

و دخل عليه شهاب بن عبد ربّه «۷» و هو يريد أن يسأله عن الجنب يغرف

---

(۱) هل هما اثنان بيّاع السابرى و الصيقل أو واحد؟ و على كلّ حال فهما من أصحاب الصادق و ثقات رواته.

(۲) بصائر الدرجات: ۵/ ۲۵۹.

(۳) بالحاء المهملة و النون المضاعفة، و قيل بالخاء المعجمة و الياء التحتانيّة المضاعفة، هو من أصحاب الصادق، روى عنه بعض الثقات و أصحاب الاصول و من لا يروى إلّا عن ثقة كابن أبى عمير.

(۴) النخعى و سنذكره فى مشاهير الثقات من رواته.

(۵) بالذال المعجمة فى آخره، روى عنه الثقات مثل جميل بن درّاج، و أن للصدوق طرقا إليه.

(۶) الشيخ فى التهذيب و الأمالى، و الكلينى فى الكافى، و الصدوق فى الفقيه، ذكروه فى كتاب الصلاة فى القيام بالليل، المناقب: ۳/ ۲۲۶.

(۷) الكوفى من أصحاب الصادق و رواته الثقات.

ص: ۲۶۳

الماء من الحبّ فلمّا صار عنده انسى المسألة، فنظر إليه أبو عبد اللّه عليه السلام فقال: يا شهاب لا بأس أن يغرف الجنب من الحبّ «۱».

و كان جعفر بن هارون الزيّات «۲» يطوف بالكعبة و أبو عبد اللّه عليه السلام فى الطواف، فنظر إليه الزيّات و حدّثته نفسه فقال: هذا حجّة اللّه، و هذا الذى لا يقبل اللّه شيئا إلّا بمعرفته، فبينا هو فى هذا التفكير إذ جاءه الصادق من خلفه فضرب بيده على منكبه ثمّ قال: «أبشرا واحدا منّا نتبعه إنّا إذن لفى ضلال و سعر» «۳» ثمّ جازه «۴».

و دخل عليه خالد بن نجيح الجواز «۵» و عنده ناس فقنّع رأسه و جلس ناحية و قال فى نفسه: و يحكم ما أغفلكم عند من تتكلّمون، عند ربّ العالمين، فناداه الصادق عليه السلام: ويحک يا خالد إنى و اللّه عبد مخلوق ولى ربّ أعبده، إن لم أعبده و اللّه عذبنى بالنار، فقال خالد: لا و اللّه لا أقول فيک أبدا إلّا قولک فى نفسک «۶».

هذا قليل من كثير ممّا روته الكتب الجليلة من الكرامات و المناقب لأبى عبد اللّه الصادق عليه السّلام، و لا غرابة لو ذكرت له الكتب أضعاف ما

---

(۱) بصائر الدرجات: ۵/ ۶۳، بحار الأنوار: ۴۷/ ۶۸/ ۱۳.

(۲) لم ينصّوا على توثيقه و لكنهم استظهروا أنه من الحسان.

(۳) القمر: ۲۴.

(۴) بصائر الدرجات: ۵/ ۶۵، بحار الأنوار: ۴۷/ ۷۰/ ۲۵.

(۵) نجيح بالجيم المعجمة و الحاء المهملة، و أمّا الجواز فقيل بالمعجمتين الجيم و الزاء مع تضعيف الواو، و قيل بإهمالها، و قيل بإعجام الاولى و إهمال الثانية، و قيل: الجوان بالجيم و النون، و على كلّ حال فقد حسنت عقيدته بعد هذا الردع، و عدّوه فى أصحاب الكاظم عليه السلام و هو المشير الى الرضا عليه السلام من بعده.

(۶) بصائر الدرجات: ۵/ ۲۶۱.

ص: ۲۶۴

استطردناه بعد أن أوضحنا فى صدر البحث أمر الكرامة.

أجل بعد أن فاتتنا المشاهدة فلا طريق لنا لإثبات الكرامة غير النقل و إن المشاهدة لا تكون إلّا لأفراد من معاصرى النبى أو الامام، فكيف حال الناس مع الكرامة من أهل الأجيال المتأخّرة، هذا سوى الناس من أهل زمانه ممّن لم يحضر الكرامة، فهل طريق إذن لإثباتها غير النقل، فالنقل إن صحّ لاعتبار المؤلّف و الراوى فذلک المطلوب، و إلّا فاعتباره اذا بلغ التواتر لقضيّة خاصّة أو لقضايا يحصل من جميعها الاعتقاد بصدور الكرامة من النبى أو الوصى و إن لم يحصل الاعتقاد بواحدة منها خاصّة.